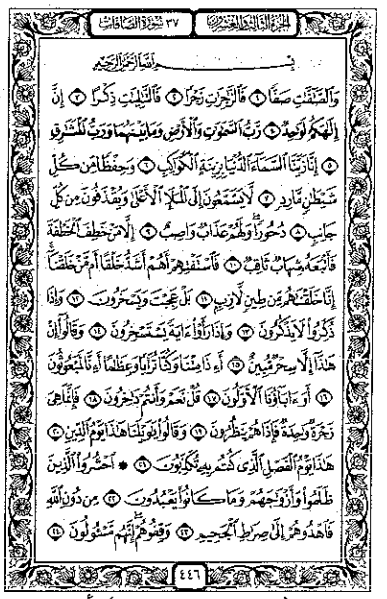

﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي: دائم، معد لهم، لتمردهم عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يستمعون شيئاً أصلاً، ولكن قال: ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلاّ مَنْ تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة، ﴿فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مئة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بيَّن هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فاستفتهم﴾ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم، ﴿أهم أشد خلقاً﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقاً وأشق؟ ﴿أم مَنْ خلقنا﴾ من [هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فيلزمهم إذاً الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إنا خلقناهم من طينٍ لازب﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمأ مسنون﴾.

﴿١٢ ـ ٢١﴾ ﴿بل عجبتَ ويسخرون * وإذا ذكروا لا يذكرون * وإذا رأوا آية يستسخرون * وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون * فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون * وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ ﴿بل عجبتَ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان، من تكذيب مَنْ كذَّب بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب، لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يسخرون﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إذا ذُكِّروا﴾ ما يعرفون في فطرهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لا يذكُرونَ﴾ ذلك، فإن كان جهلاً، فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً، فهو أعجب وأغرب.

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال وألباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون.

ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إن هذا إلاّ سحرٌ مبين﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلّها، وهو الحق، في رتبة أخسّ الأشياء وأحقرها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون﴾.

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم[1]، فقال: ﴿قل نعم﴾ ستبعثون، أنتم وآباؤكم الأولون ﴿وأنتم داخرون﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

﴿فإنما هي زَجْرَةٌ واحدة﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فإذا هم﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿ينظرون﴾ كما ابتدىء خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلاً، وفي تلك الحال، يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزؤون.

فيقال لهم: ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿٢٢ ـ ٢٦﴾ ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسؤولون * ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي: إذا أحضروا يوم القيامة، وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿احشروا الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿وأزواجهم﴾ الذين من جنس عملهم، كل يُضم إلى مَنْ يجانسه في العمل.

﴿وما كانوا يعبدون * من دون الله﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعاً ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي: سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم، وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل

(١) كذا في ب، وفي أ: تربيتهم.

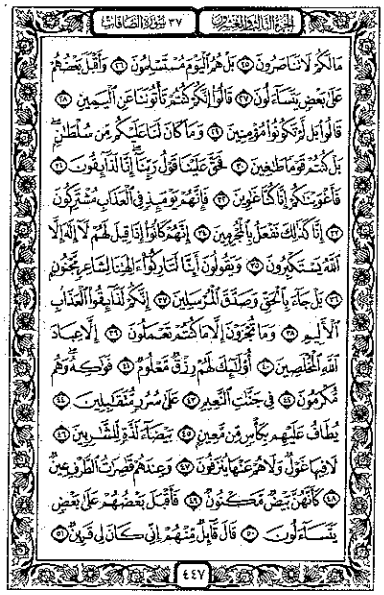

دار البوار، يقال: ﴿**وقفوهم**﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿**إنهم مسؤولون**﴾ عمّا كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿**مالكم لا تناصرون**﴾ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرقكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: ﴿**بل هم اليوم مستسلمون**﴾.

﴿٢٧ ـ ٣٩﴾ ﴿**وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين * فحقّ علينا قول ربنا إنّا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين * فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون * إنّا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أءنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدّق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾ لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا، فسئلوا، فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿**إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين**﴾ أي: بالقوة والغلبة، فتضلوننا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين.

﴿**قالوا**﴾ لهم: ﴿**بل لم تكونوا مؤمنين**﴾ أي: ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون، فأي: شيء فضلكم علينا؟ وأي: شيء يوجب لومنا؟ ﴿**و**﴾ الحال أنه ﴿**ما كان لنا عليكم من سلطان**﴾ أي: قهر لكم على اختيار الكفر ﴿**بل كنتم قوماً طاغين**﴾ متجاوزين للحد[1].

﴿**فحقّ علينا**﴾ نحن وإياكم ﴿**إنا لذائقون**﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سنذوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿**فـ**﴾ لذلك ﴿**أغويناكم إنا كنا غاوين**﴾ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿**فإنهم يومئذ**﴾ أي: يوم القيامة ﴿**في العذاب مشتركون**﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿**إنّا كذلك نفعل بالمجرمين**﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿**إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله**﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿**يستكبرون**﴾ عنها وعلى مَنْ جاء بها.

﴿**ويقولون**﴾ معارضة لها: ﴿**أإنا لتاركوا آلهتنا**﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿**لـ**﴾ قول ﴿**شاعر مجنون**﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يكفهم ـ قبحهم الله ـ الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿**بل جاء**﴾ محمد ﴿**بالحق**﴾ أي: مجيئه حقٌّ، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿**وصدّق المرسلين**﴾ [أي: ومجيئه صدق المرسلين] فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أممهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب مَنْ خالفهم، فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

وصدّق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿**إنّا لذائقون**﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿**إنكم لذائقوا العذاب الأليم**﴾ أي: المؤلم الموجع، ﴿**وما تجزون**﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿**إلاّ ما كنتم تعملون**﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

﴿٤٠ ـ ٤٩﴾ ﴿**إلاّ عباد الله المخلصين * أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنات النعيم * على سرر متقابلين * يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها**

(١) كذا في ب، وفي أ: للحق.

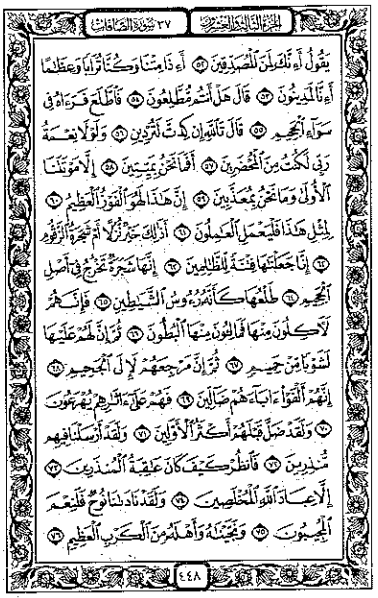

ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيض مكنون﴾.

يقول تعالى: ﴿إلاّ عباد الله المخلصين﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه، فسره بقوله: ﴿فواكه﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها. ﴿وهم مكرمون﴾ لا مهانون محتقرون، بل معظمون مجلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهنّئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان، ﴿في جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل مخل بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم على ﴿سرر﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة، المزخرفة المجملة، فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح. ﴿متقابلين﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتأدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر.

وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذة للشاربين﴾ يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفاصيله داخلة في قوله: ﴿جنات النعيم﴾.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشتاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلاّ به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح، و [كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباغض ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه.

﴿عين﴾ أي: حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق، ﴿كأنهن﴾ أي: الحور ﴿بيض مكنون﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

﴿٥٠ ــ ٦١﴾ ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون * قال هل أنتم مطلعون * فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين * إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين * إنّ هذا لهو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون﴾

لما ذكر تعالى نعيمهم وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إني كان لي قرين﴾ في الدنيا ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به، و ﴿يقول﴾ لي ﴿أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً، أننا نُبعث ونُعاد، ثم نُحاسب ونُجازى بأعمالنا؟!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً، وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلتُ أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب.

ف ﴿هل أنتم مطلعون﴾ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه، ويكون ذلك رَأْيَ عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم

ببعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له، للاطلاع على قرينه، ﴿فاطلع﴾ فرأى قرينه ﴿في سواء الجحيم﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

فـ ﴿قال﴾ له لائماً على حاله، وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تالله إن كدت لتردين﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت عليَّ من الشُّبَه بزعمك، ﴿ولولا نعمة ربي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لكنت من المحضرين﴾ في العذاب معك ﴿أفما نحن بميتين * إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ [أي: يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب استفهام بمعنى الإثبات والتقرير] أي: يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب[1].

وقوله: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدلَّ ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوَّق العاملين، وحثَّهم على العمل، فقال: ﴿إنَّ هذا لهو الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، واستروا برؤيته، وطربوا لكلامه؟

﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟!!

﴿٦٢ ـ ٧٤﴾ ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم * إنّا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إنّ لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إنّ مرجعهم لإلى الجحيم * إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون * ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين * إلاّ عباد الله المخلصين﴾

﴿أذلك خيرٌ﴾ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأي: الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿أم﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿شجرة الزقوم * إنّا جعلناها فتنة﴾ أي: عذاباً ونكالاً ﴿للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ أي: وسطه، فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به، وبما ذكر من صفة ثمرتها.

وأنها كـ ﴿رؤوس الشياطين﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل[2].

ولهذا قال: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم، ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثم إن لهم عليها﴾ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لشوباً من حميم﴾ أي: ماءً حاراً، قد انتهى، كما قال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ وكما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾.

﴿ثم إن مرجعهم﴾ أي: مآلهم ومقرهم [ومأواهم] ﴿لإلى الجحيم﴾ ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

وكأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إنهم ألفوا﴾ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون﴾ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾.

﴿ولقد ضل قبلهم﴾ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أكثر الأولين﴾ وقليل منهم آمن واهتدى.

﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من: ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إبقاءه لعدم شطبه في: أ.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: معدل.

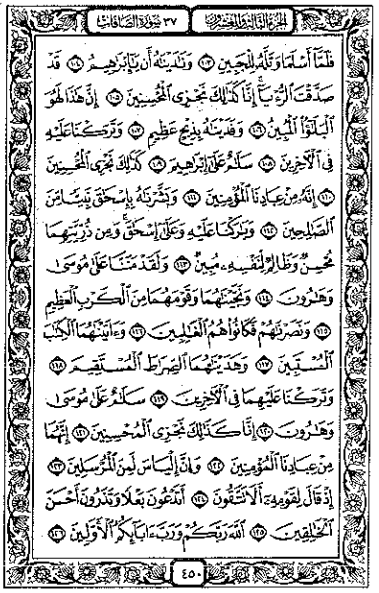
فلما أسلما وتله للجبين ﴿١٠٣﴾ وناديناه أن يا إبراهيم ﴿١٠٤﴾ قد
صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿١٠٥﴾ إن هذا لهو
البلاء المبين ﴿١٠٦﴾ وفديناه بذبح عظيم ﴿١٠٧﴾ وتركنا عليه
في الآخرين ﴿١٠٨﴾ سلام على إبراهيم ﴿١٠٩﴾ كذلك نجزي المحسنين
﴿١١٠﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿١١١﴾ وبشرناه بإسحاق نبيا من
الصالحين ﴿١١٢﴾ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما
محسن وظالم لنفسه مبين ﴿١١٣﴾ ولقد منَّنا على موسى
وهارون ﴿١١٤﴾ ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم
﴿١١٥﴾ ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴿١١٦﴾ وآتيناهما الكتاب
المستبين ﴿١١٧﴾ وهديناهما الصراط المستقيم ﴿١١٨﴾
وتركنا عليهما في الآخرين ﴿١١٩﴾ سلام على موسى
وهارون ﴿١٢٠﴾ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿١٢١﴾ إنهما
من عبادنا المؤمنين ﴿١٢٢﴾ وإن إلياس لمن المرسلين ﴿١٢٣﴾
إذ قال لقومه ألا تتقون ﴿١٢٤﴾ أتدعون بعلا وتذرون أحسن
الخالقين ﴿١٢٥﴾ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿١٢٦﴾
٤٥٠

ينذرونهم عن غيهم وضلالهم، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

ولما كان المنذَرون ليسوا[1] كلهم ضالين، بل منهم مَنْ آمن وأخلص الدين لله، استثناه الله من الهلاك فقال: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم المكذبين، فقال:

﴿٧٥ ـ ٨٢﴾ ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على نوح في العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ الآية.

وقال: ﴿ربِّ انصرني على القوم المفسدين﴾ فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه فقال: ﴿فلنِعْمَ المجيبون﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبتلهم وتضرعهم، أجابه إجابةً طابق ما سأل، نجّاه وأهله من الكرب العظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سُنَّته تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

ودلّ قوله: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح به خواص خلقه.

﴿٨٣ ـ ١١٣﴾ ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ إلى آخر القصة، أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام، ومَنْ هو على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿إذ جاء ربه بقلبٍ سليم﴾ من الشرك والشبه، والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليماً، سلم من كل شر، وحصل له كل خير، ومن سلامته، أنه سليم من غش الخَلْقَ وحسدهم، وغير ذلك من مساوىء الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾ هذا استفهام بمعنى[2] الإنكار، وإلزام لهم بالحجة.

﴿أإفكاً آلهة دون الله تريدون﴾ أي: أتعبدون [من دونه] آلهة كذباً، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم.

وما الذي ظننتم برب العالمين، من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.

فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهز الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم﴾.

في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقوله عن زوجته «إنها أختي»، والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم له الكيد بآلهتهم ﴿فـ﴾لهذا ﴿تولوا عنه مدبرين﴾ فلما وجد الفرصة، ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة، ﴿فقال﴾ متهكماً بها ﴿ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون﴾ أي: فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه جماد لا تأكل ولا تكلّم. ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ أي: جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاذاً، إلا كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون، ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾ أي: يسرعون ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به، بعدما بحثوا وقالوا: ﴿مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾.

وقيل لهم: ﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ يقول: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فوبخوه ولاموه، فقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ الآية. و ﴿قال﴾ هنا: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ أي: تنحتونه بأيديكم وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم الذين صنعتموهم، وتتركون الإخلاص لله؟ الذي ﴿خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بنياناً﴾ أي: عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار

(١) كذا في: ب، وفي أ: ليس.

(٢) في ب: على وجه.

﴿فألقوه في الجحيم﴾ جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم.

﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سيهدين﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿ربِّ هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم ير فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة [بإسحاق؛ ولأن الله تعالى قال في بشراه بإسحاق ﴿فبشرناها﴾] بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ فدلّ على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عمن جنى.

﴿فلما بلغ﴾ الغلام ﴿معه السعي﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سناً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا[1] الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وبازاً بوالده: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلما﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وتله للجبين﴾ أي: تلّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿وناديناه﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم * قد صدّقت﴾ أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلاّ إمرار السكين على حلقه، ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفي وُدَّه ويختبر خلته، فأمره أن يذبح مَنْ زاحم حبُّه حبَّ ربه، فلما قدّم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم﴾ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسُنّة إلى يوم القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين * سلامٌ على إبراهيم﴾ أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثنى عليه.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقوله: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشّر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ ـ ١٢٢﴾ ﴿ولقد منا على

(١) كذا في: ب، وفي أ: ورأي.

موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة يذكر تعالى منَّتهُ على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومَنَّ عليهما بسلوكه.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين * سلامٌ على موسى وهارون﴾ أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين **﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين﴾**.

﴿١٢٣ ـ ١٣٢﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين * فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إلْ ياسين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النِّعَم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله مَنْ هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم؟!! وهل هذا إلاّ من أعظم الضلال والسفه والغي؟!!

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: **﴿فإنهم لمحضرون﴾** أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. **﴿إلاّ عباد الله المخلصين﴾** أي: الذين أخلصهم الله ومنَّ عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. **﴿وتركنا عليه﴾** أي: على إلياس **﴿في الآخرين﴾** ثناء حسناً، **﴿سلام على إلْ ياسين﴾** أي: تحية من الله وسن عباده عليه.

﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾ فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿١٣٣ ـ ١٣٨﴾ ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا.

﴿إلاّ عجوزاً في الغابرين﴾ أي: الباقين المعذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. **﴿ثم دمرنا الآخرين﴾** بأن قلبنا عليهم ديارهم **﴿فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾** حتى همدوا وخمدوا.

﴿وإنكم لتمرون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط **﴿مصبحين * وبالليل﴾** أي: في هذه الأوقات يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. **﴿أفلا تعقلون﴾** الآيات والعبر، وتنزجرون عمّا يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩ ـ ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: **﴿إذ أبق﴾** أي: من ربه مغاضباً له، ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذُكِّرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيّض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبق لجأ **﴿إلى الفلك المشحون﴾** بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن مَنْ قرع وغلب، أُلقي في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

فلما [اقترعوا] أصابت القرعة يونس **﴿فكان من المدحضين﴾** أي: المغلوبين، فألقي في البحر **﴿فالتقمه الحوت وهو﴾** وقت التقامه **﴿مليم﴾** أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: **﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين﴾**.

﴿للَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجّاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. **﴿فنبذناه بالعراء﴾** بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. **﴿وهو سقيم﴾** أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرةٌ باردةُ الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

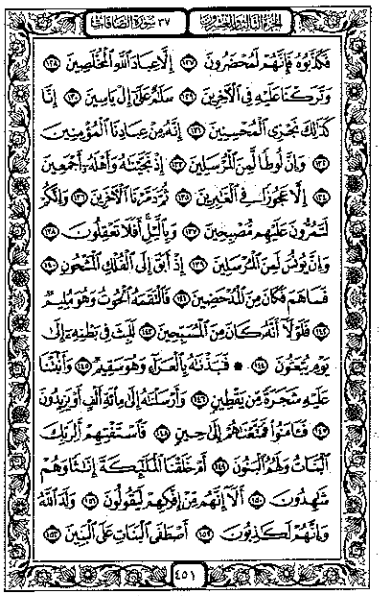

ثم لطف به لطفاً آخر، وامْتَنَّ عليه مِنَّةً عظمى، وهو أنه أرسله ﴿إلى مئة ألف﴾ من الناس ﴿أو يزيدون﴾ عنها، والمعنى أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فآمنوا﴾ فصاروا في موازينه، لأنه الداعي لهم، ﴿فمتعناهم إلى حين﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه، قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

﴿١٤٩ ـ ١٥٧﴾ ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فاستفتهم﴾ أي: اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله، ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾ أي: هذه قسمة ضيزى، وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أرذأ القسمين وأخسهما له وهو البنات التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك.

قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله، ولهذا قال: ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ أي: كذبهم الواضح ﴿ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون﴾

﴿أصطفى﴾ أي: اختار ﴿البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون﴾ هذا الحكم الجائر ﴿أفلا تذكرون﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكرتم لم تقولوا هذا القول. ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ أي: حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب أو رسول.

وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ فإن مَنْ يقول قولاً لا يقيم عليه حجة شرعية، فإنه كاذب متعمد، أو قائل على الله بلا علم.

﴿١٥٨ ـ ١٦٠﴾ ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسباً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن، والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله، [ليجازيهم] عباداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا[1] كذلك.

﴿سبحان الله﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم، عمّا يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم.

﴿إلاّ عباد الله المخلصين﴾ فإنه لم ينزه نفسه عمّا وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلاّ بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

﴿١٦١ ـ ١٦٣﴾ ﴿فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومَنْ عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً، إلاّ مَنْ قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى، أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿١٦٤ ـ ١٦٦﴾ ﴿وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون﴾ هذا [فيه] بيان براءة الملائكة عليهم السلام عمّا قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من أحد إلاّ له مقام وتدبير قد أمره الله به، لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء.

﴿وإنا لنحن الصافون﴾ في طاعة الله وخدمته ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ لله عما لا يليق به. فكيف ـ مع هذا ـ يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

﴿١٦٧ ـ ١٨٢﴾ ﴿وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكراً من الأولين * لكنا عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون * ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون * فتول عنهم حتى حين﴾ إلى آخر السورة. يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرون التمني، ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء

(١) كذا في ب، وفي أ: لم يكن.

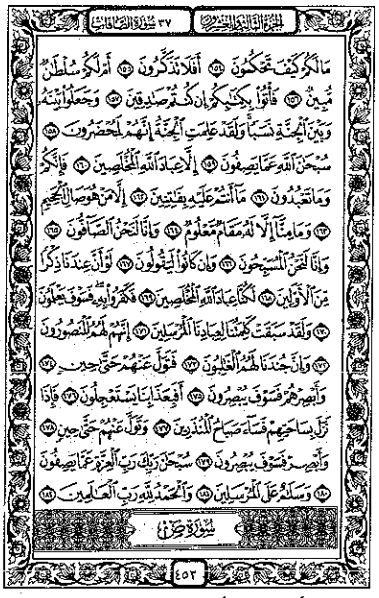

الأولين، لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كَذَبَةٌ في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، ﴿فسوف يعلمون﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم. ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ أي: نزل عليهم، وقريباً منهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرّر الأمر بالتولّي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سبحان ربك﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿ربِّ العِزَّة﴾ [أي:] الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، ﴿وسلامٌ على المُرْسَلِينَ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربى بها العالمين، وأدرَّ عليهم فيها النِّعَم، وصرف عنهم بها النِّقَم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومَن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة][1].

تم تفسير سورة الصافات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣هـ على يد جامعه وكاتبه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

تفسير سورة صٓ وهي مكية

﴿١ ــ ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم صٓ والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع مَنْ جاء به، فقال: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المُذَكِّر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكِّر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقِّيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه.

فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمَنْ أنزله، وصار معهم ﴿عزةٍ وشِقاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن ﴿لات حين مناص﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.

(١) زيادة من ب.

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم، وتمام الانقياد له.

ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هذا ساحر كذاب﴾ وذنبه - عندهم - أنه ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده. ﴿إن هذا﴾ الذي جاء به ﴿لشيء عجاب﴾ أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده. ﴿وانطلق الملأ منهم﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها صاد. ﴿إن هذا﴾ الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها ﴿لشيء يراد﴾ أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن مَنْ دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الحجج والبراهين، وهم قصدهم، أن محمداً، ما دعاكم إلى ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون مُعَظَّماً عندكم، متبوعاً ﴿ما سمعنا بهذا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿في الملة الآخرة﴾ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه، وهذه أيضاً شبهة من جنس شبهتهم الأولى، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون، فأين في هذا ما يدل على بطلانه؟

﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي: ما الذي فضله علينا، حتى ينزَّل الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به؟ وهذه أيضاً شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف، يَمُنُّ الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله، ولهذا، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخبر تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿في شك من ذكري﴾ ليس عندهم علم ولا بينة.

فلما وقعوا في الشك وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الانتفاك منهم.

ومن المعلوم، أن مَنْ هو بهذه الصفة يتكلم عن شك وعناد، إن قوله غير مقبول، ولا قادح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب، فقال: ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أي: قالوا هذه الأقوال، وتجرؤوا عليها، حيث كانوا ممتعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرؤوا.

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ فيعطون منها مَنْ شاؤوا، ويمنعون منها مَنْ شاؤوا، حيث قالوا: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتى يتحجروا على الله.

﴿أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون. ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم التحزب والتجند، والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحق؟ وهو الواقع فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب * وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل، ﴿قوم نوح وعاد﴾ قوم هود ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة، ﴿وثمود﴾ قوم صالح، ﴿وقوم لوط وأصحاب الأيكة﴾ أي: الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم شعيب، ﴿أولئك الأحزاب﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئاً.

﴿إن كل﴾ من هؤلاء ﴿إلا كذب الرسل فحق﴾ عليهم ﴿عقاب﴾ الله، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.

فلينتظروا ﴿صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ أي: من رجوع ورد، تهلكهم

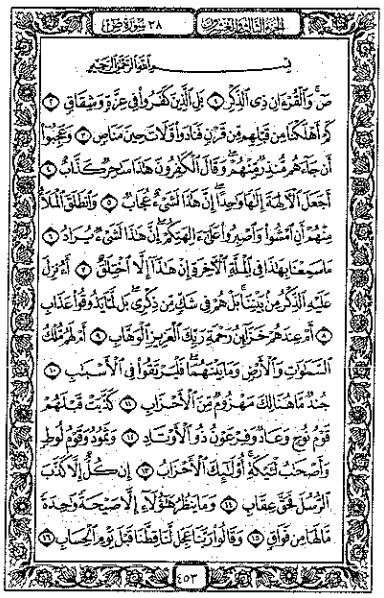

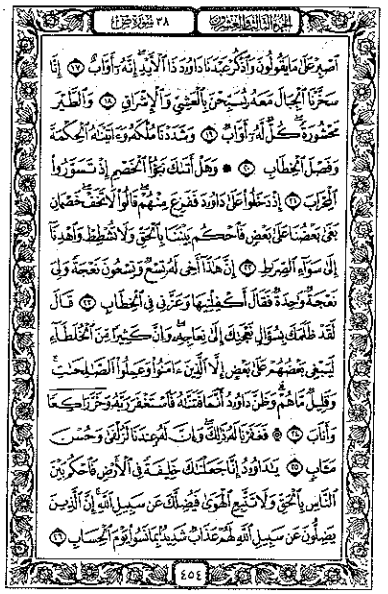
اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ● وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ● فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾
٤٥٤

وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب * اصبر على ما يقولون﴾ أي: قال هؤلاء المكذبون، من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿ربَّنا عَجِّل لنا قِطَّنا﴾ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قبل يوم الحساب﴾ ولجوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقاً، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم.

﴿١٧ ـ ٢٠﴾ ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّابٌ * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كلّ له أوّاب * وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾.

ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذا الأيد﴾[1] أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه. ﴿إنه أوّاب﴾ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور بالإنابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء، رجّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبِّح معه بحمد ربها ﴿بالعشي والإشراق﴾ أول النهار وآخره.

﴿و﴾ سخر ﴿الطير محشورة﴾ معه مجموعة ﴿كلٌّ﴾ من الجبال والطير، لله تعالى ﴿أوّاب﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ فهذه مِنَّةُ الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العَدَد والعُدَدِ التي بها قوّى الله ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم، فقال: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿وفَصْلَ الخِطَاب﴾ أي: الخصومات بين الناس.

﴿٢١ ـ ٢٦﴾ ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب * يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ لما ذكر تعالى أنه آتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له، وقيّض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إذ تسوَّرُوا﴾ على داود ﴿المحراب﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خصمان﴾ فلا تخف ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ بالظلم ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصان[2] عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

فقال أحدهما: ﴿إن هذا أخي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره. ﴿له تسعٌ وتسعون نَعْجَةً﴾ أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله. ﴿ولي نعجة واحدة﴾ فطمع فيها ﴿فقال أكفلنيها﴾ أي: دعها لي، وخلها في كفالتي. ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

فقال داود ـ لما سمع كلامه ـ ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: «لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر»؟

(١) كذا في ب، وفي الأصل: ذو الأيد.

(٢) في النسختين: فسيقصون.

﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾ لأن الظلم من صفة النفوس. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم. ﴿وقليل ما هم﴾ كما قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

﴿وظن داود﴾ حين حكم بينهما ﴿أنما فتناه﴾ أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه ﴿فاستغفر ربه﴾ لما صدر منه، ﴿وخر راكعاً﴾ أي: ساجداً ﴿وأناب﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿فغفرنا له ذلك﴾ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وحسن مآب﴾ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿ولا تتبع الهوى﴾ فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فيضلك﴾ الهوى ﴿عن سبيل الله﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم، ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ خصوصاً المتعمدين منهم، ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿٢٧ ـ ٢٩﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

﴿كتابٌ أنزلناهُ إليك مبارك﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

﴿ليدبروا آياته﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وليتذكر أولو الألباب﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿٣٠ ـ ٤٠﴾ ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق * ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ لما أثنى تعالى على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ أي: أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه.

﴿نِعْمَ العَبْدُ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنه أوّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائق، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالملوك، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة العصر وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ وضمن «أحببت» معنى «آثرت» أي: آثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد الخيل. ﴿عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾

﴿رُدُّوها عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فطفق﴾ فيها ﴿مسحاً بالسوق والأعناق﴾ أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾ أي: شيطاناً قضى الله وقدَّر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثم أناب﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

فـ ﴿قال ربِّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهَّابُ﴾ فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومَنْ عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه.

وقلنا له: ﴿هذا عطاؤنا﴾ فَقَرَّ به عيناً ﴿فامْنُنْ﴾ على مَنْ شئت، ﴿أو أمسك﴾ مَنْ شئت ﴿بغير حساب﴾ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحُسنَ مآب﴾ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار مَنْ قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا ـ في هذا الموضع ـ لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حُسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نِعَم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتنَّ الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنتَ ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «باغ عليَّ» لقولهما: ﴿خصمان بغى بعضنا على بعض﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتَّب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحُسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في

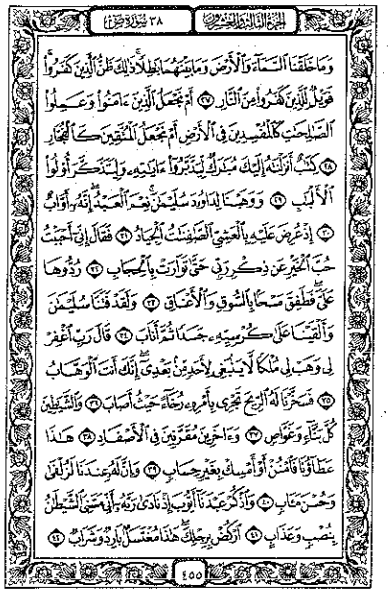

قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نِعَم الله على عبده، أن يهب له ولداً صالحاً، فإن كان عالماً، كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبيده، أن يمنّ عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهّاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مذموم، فَلْيُفَارِقه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «مَنْ ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه» فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديماً لمحبة الله، فعوضه الله خيراً من ذلك، بأن سخّر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخّر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحدٍ بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملكاً نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلاّ العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلاّ بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

﴿٤١ ـ ٤٤﴾ ﴿واذكر عبدنا أيوب إذا نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾

أي: ﴿واذكر﴾ في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عبدنا أيوب﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلاّ إليه.

فـ ﴿نادى ربه﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: ربِّ ﴿أني مسني الشيطان بنُصْبٍ وعذاب﴾ أي: بأمر مشق متعب معذّب، وكان سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

فقيل له: ﴿اركضْ برِجْلِكَ﴾ أي: اضرب الأرض بها، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى.

﴿ووهبنا له أهله﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿ومثلهم معهم﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالاً عظيماً ﴿رحمة منّا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً.

﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن مَنْ صبر على الضر، أن الله تعالى يثيبه ثواباً عاجلاً وآجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ أي: حزمة شماريخ ﴿فاضرب به ولا تحنثْ﴾.

قال المفسرون: وكان في مرضه وضره قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه.

﴿إنا وجدناه﴾ أي: أيوب ﴿صابراً﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى. ﴿نعم العبد﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء.

﴿إنه أوّاب﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله.

﴿٤٥ ـ ٤٧﴾ ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ يقول تعالى: ﴿واذكر عبادنا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً، ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿و﴾ ابنه ﴿إسحق و﴾ ابن ابنه ﴿يعقوب أولي الأيدي﴾ أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿والأبصار﴾ أي:

البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي ﴿ذكرى الدار﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه، ﴿الأخيار﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ ﴿واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار * هذا ذكر﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة.

﴿هذا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذكر﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

﴿٤٩ ـ ٥٤﴾ ﴿وإن للمتقين لحسن مآب * جنات عدن مفتحة لهم الأبواب * متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب * هذا ما توعدون ليوم الحساب * إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ أي: ﴿وإن للمتقين﴾ ربهم، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، ﴿لحسن مآب﴾ أي: لمآباً حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا يبغي صاحبها بدلاً منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين.

﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿متكئين فيها﴾ على الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات.

﴿يدعون فيها﴾ أي: يأمرون خدامهم، أن يأتوا ﴿بفاكهة كثيرة وشراب﴾ من كل ما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللذة.

﴿وعندهم﴾ من أزواجهم، الحور العين ﴿قاصرات﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلاً، ولا عنه عوضاً. ﴿أتراب﴾ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

﴿هذا ما توعدون﴾ أيها المتقون ﴿ليوم الحساب﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إن هذا لرزقنا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿ماله من نفاد﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآنات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعض بره.

﴿٥٥ ـ ٦٤﴾ ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب * جهنم يصلونها فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميم وغساق * وآخر من شكله أزواج * هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار * قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار * وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار * اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار * إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ ﴿هذا﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه ﴿وإن للطاغين﴾ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لشر مآب﴾ أي: لشر مرجع ومنقلب، ثم فصله فقال: ﴿جهنم﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قرها ﴿يصلونها﴾ أي: يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فبئس المهاد﴾ المعد لهم مسكناً ومستقراً ﴿هذا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي والفضيحة والنكال.

﴿فليذوقوه حميم﴾ ماء حار، قد اشتد حره، يشربونه فَيُقَطِّع أمعاءهم.

﴿وغساق﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصديد، مر المذاق، كريه الرائحة.

﴿وآخر من شكله﴾ أي: من نوعه ﴿أزواج﴾ أي: عدة أصناف من

أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ النار ﴿لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾.

﴿قالوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه﴾ أي: العذاب ﴿لنا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسببكم. ﴿فبئس القرار﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم فـ ﴿قالوا ربنا مَنْ قدَّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ أي: كنا نزعم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبَّحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صبغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إن ذلك﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحق﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿تخاصم أهل النار﴾.

﴿٦٥ ـ ٨٨﴾ ﴿قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار * رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار * قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون * ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين * إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين * قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إنما أنا منذر﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فلله تعالى، ولكني آمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر فمَن اهتدى فلنفسه ومَنْ ضلّ فعليها. ﴿وما مِنْ إلهٍ إلاّ الله﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلاّ الله ﴿الواحد القهار﴾. هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿ربُّ السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرها[1] بجميع أنواع التدابير. ﴿العزيز﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الغفار﴾ لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قل﴾ لهم، مخوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبأ عظيم﴾ أي: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله، ولكن ﴿أنتم عنه معرضون﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتم في قولي، وامتريتم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾ أي: الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحاؤه إليّ، ولهذا قال: ﴿إن يوحى إليّ إلاّ أنّما أنا نذير مبين﴾ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

---

(١) كذا في النسختين.

ثم ذكر اختصام الملأ الأعلى فقال: ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ على وجه الإخبار ﴿إني خالق بشراً من طين﴾ أي: مادته من طين ﴿فإذا سويته﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فوطّن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربهم، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتحن الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿استكبر﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله تعالى.

ف ﴿قال﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ أي: شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿أستكبرت﴾ في امتناعك ﴿أم كنت من العالين﴾.

﴿قال﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾. وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ف ﴿قال﴾ الله له: ﴿فاخرج منها﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فإنك رجيم﴾ أي: مبعد مدحور. ﴿وإن عليك لعنتي﴾ أي: طردي وإبعادي ﴿إلى يوم الدين﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

ف ﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فإنك من المنظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾ حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه مُنظَر، بادى ربه، من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين.

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾

علم أن الله سيحفظهم من كيده.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمته، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾.

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿فالحق والحق أقول﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لأملأن جهنَّمَ منك وممَّن تبعك منهم أجمعين﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له:

﴿قل ما أسألكم عليه﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليّ.

﴿إن هو﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إلا ذكرٌ للعالمين﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على مَنْ كذّب بالقرآن وعارضه، وكذّب مَنْ جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين. فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿واذكر عبدنا﴾ ـ ﴿واذكر عبادنا﴾ ـ ﴿رحمة من عندنا وذكرى﴾ ـ ﴿هذا ذكر﴾.

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك.

﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي: خبره ﴿بعد حين﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنّه تعالى وعونه.

تفسير سورة الزُّمر وهي مكية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كفار﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة مَنْ تكلّم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى

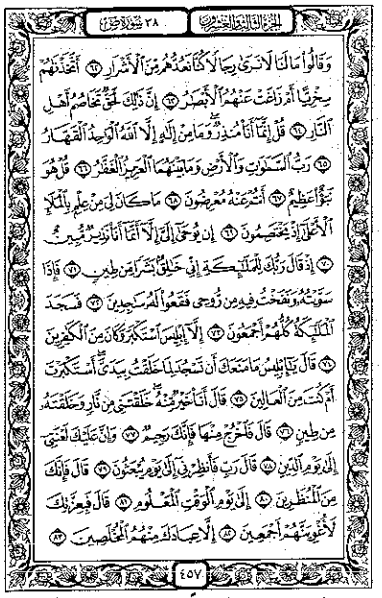

الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته.

ولكنه ـ مع هذا ـ زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلَّت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد.

﴿**ألا لِلّه الدين الخالص**﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتألُّه لله في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بذم مَنْ أشرك به فقال: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء**﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معتذرين][1] عن أنفسهم وقائلين: ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلاَّ، فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلاَّ بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وفطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم. فيحتاج مَنْ يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج مَنْ يعطفهم عليه [ويسترحمه لهم][2]، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضونَ حوائج مَنْ توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج مَنْ يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلاً منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده، إلاَّ كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلاَّ بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراءتهم عليه.

ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال ـ حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين ـ ﴿**إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون**﴾

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومَنْ

(١) في أ: متعذرين.

(٢) كذا في النسختين ولعل الصواب (ويسترحمهم له).

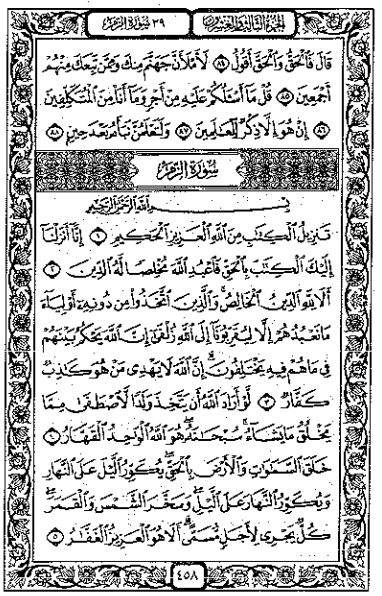
قال فالحق والحق أقول ﴿٨٤﴾ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿٨٥﴾ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴿٨٦﴾ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴿٨٧﴾ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴿٨٨﴾
سورة الزمر
بسم الله الرحمن الرحيم
تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿١﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴿٢﴾ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴿٣﴾ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿٤﴾ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴿٥﴾
٤٥٨

يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار. ﴿إن الله لا يهدي﴾ أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هو كاذبٌ كفار﴾ أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتيه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدها ويكفر بها ويكذب، فهذا أنّى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن؟!!

﴿٤﴾ ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً﴾ كما زعم ذلك مَنْ زعمه، من سفهاء الخلق. ﴿لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾ أي: لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاءه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة. ﴿سبحانه﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون. ﴿هو الله الواحد القهار﴾ أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهّار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلاّ قهاراً، والقهّار لا يكون إلاّ واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿٥ ـ ٧﴾ ﴿خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار * خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خلق السماوات والأرض﴾ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

﴿يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل﴾ أي: يدخل كلاً منهما على الآخر، ويحله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه.

﴿وسخّر الشمس والقمر﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن. ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾ متأثراً عن تسخيره تعالى ﴿لأجل مسمّى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، وينشىء الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار.

﴿ألا هو العزيز﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره. ﴿الغفّار﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾. الغفار لمن أشرك به بعدما رأى من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

ومن عزته أن ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ على كثرتكم وانتشاركم، في أنحاء الأرض، ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة. ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾ أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم. ﴿ثمانية أزواج﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾.

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أبينا وأمنا، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ أي: طوراً بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿في ظلمات ثلاث﴾ ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، ﴿ذلكم﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿الله ربكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي رباكم ودبركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: ﴿لا إله إلاّ هو فأنى تصرفون﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء.

﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ لكمال إحسانه بهم،

وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وإن تشكروا﴾ لله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يرضه لكم﴾ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله.

وكما أنه لا يتضرر بشرككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلاً منكم ما يستحقه.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿٨﴾ ﴿وإذا مسّ الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بَحْر أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذا الحال إلاّ الله، فيدعوه متضرعاً منيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلح في ذلك.

﴿ثم إذا خوله﴾ الله ﴿نعمة منه﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه.

﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي: ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتى بالملزوم ليدل على اللازم.

﴿قل﴾ لهذا العاتي، الذي بدّل نعمة الله كفراً: ﴿تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار.

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾.

﴿٩﴾ ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء، رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿والذين لا يعلمون﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إنما يتذكر﴾ إذا ذكروا ﴿أولو الألباب﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف مَنْ لا لُبَّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿١٠﴾ ﴿قل يا عباد الذي آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدَّق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ بعبادة ربهم لهم ﴿حسنة﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾.

﴿وأرض الله واسعة﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل مَنْ أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال مَنْ آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على

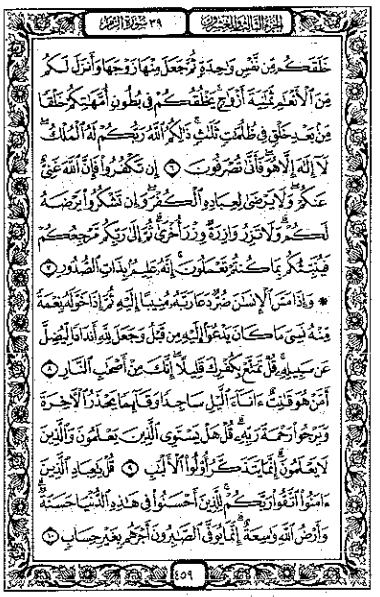
خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ۝٦ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ۝٧ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ۝٨ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ۝٩ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ۝١٠

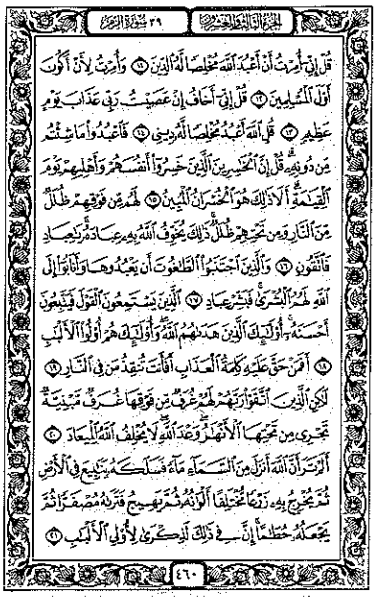

الحق ظاهرين لا يضرهم مَنْ خذلهم ولا مَنْ خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما مُنعتم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حدّ ولا عدّ ولا مقدار، وما ذاك إلاّ لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١١ ـ ١٦﴾ ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين * قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين * لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾

﴿وأمرت لأن أكون أوّلَ المُسلمين﴾ لأني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أوّل مَنْ ائتمر بما آمر به، وأوّل مَنْ أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وممن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. ﴿عذابَ يوم عظيم﴾ يخلد فيه مَنْ أشرك، ويعاقب فيه مَنْ عصى.

﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾.

﴿قل إن الخاسرين﴾ حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وأهليهم يوم القيامة﴾ أي: فرّق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ومن تحتهم ظلل﴾

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، ﴿يخوّفُ الله به عباده، يا عبادِ فاتقون﴾ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾

﴿وأمرت لأن أكون أوّلَ المُسلمين﴾ لأني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أوّل مَنْ ائتمر بما آمر به، وأوّل مَنْ أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وممن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. ﴿عذابَ يوم عظيم﴾ يخلد فيه مَنْ أشرك، ويعاقب فيه مَنْ عصى.

﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾.

﴿قل إن الخاسرين﴾ حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وأهليهم يوم القيامة﴾ أي: فرّق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ومن تحتهم ظلل﴾

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، ﴿يخوّفُ الله به عباده، يا عبادِ فاتقون﴾ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجر عمّا يوجب العذاب. فسبحان مَنْ رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغّبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذّرهم من العمل لغيره[1] غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ لما ذكر حال المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وأنابوا إلى الله﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلاّم، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، ﴿لهم البشرى﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلاّ مَنْ أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فبشّر عِبَادِ * الذين يستمعون القول﴾ وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من العمالة.

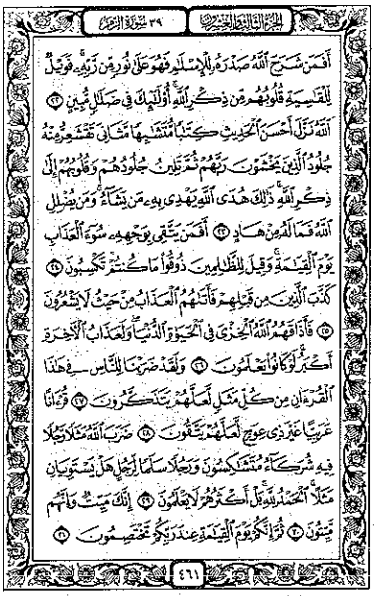

مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿**الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً**﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من آثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿**الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً**﴾ الآية.

﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله**﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿**وأولئك هم أولو الألباب**﴾ أي: العقول الزاكية.

ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار * لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد**﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ مَنْ في النار لا محالة، لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره...

﴿**لهم غُرَفٌ**﴾ أي: منازل عالية مزخرفة، من حسنها وبهائها وصفائها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، [أنها][1] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿**من فوقها غرف**﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿**مبنيّة**﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿**وعد الله لا يخلف الله الميعاد**﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب**﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر، ﴿**ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه**﴾ من بر وذرة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿**ثم يهيج**﴾ عند استكماله، أو عند حدوث آفة فيه ﴿**فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً**﴾ متكسراً ﴿**إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب**﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وخزنه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم.

ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿٢٢﴾ ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين**﴾ أي: أفيستوي مَنْ شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحاً قرير العين، على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿**فهو على نور من ربه**﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾ أي: لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿**أولئك في ضلال مبين**﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال مَنْ أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره؟!!

﴿٢٣﴾ ﴿**الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿**أحسن الحديث**﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه.

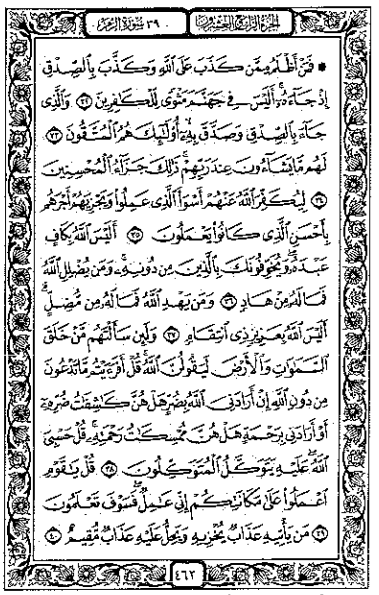

أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجلُّ المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلاّ من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فالمراد بها، التي تشتبه على فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلاّ بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حُسنه، لأنه قال: ﴿أحسن الحديث﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

﴿مثاني﴾ أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحُسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بَعُد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراع لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارىء للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثّر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَى الله﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يهدي بِهِ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿مَنْ يشاء﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذلك﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هدى الله﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلاّ منه ﴿يهدي به مَنْ يشاء من عباده﴾ ممن حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام﴾.

﴿ومَنْ يُضْلِلِ الله فما له من هادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلاّ توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلاّ الضلال المبين والشقاء.

﴿٢٤ ـ ٢٦﴾ ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون * كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون * فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غُلّت يداه ورجلاه، ﴿وقيل للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾

﴿كَذَّب الذينَ من قبلهم﴾ من الأمم كما كذّب هؤلاء، ﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون، ﴿فأذاقهم الله﴾ بذلك العذاب ﴿الخزي في الحياة الدنيا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿٢٧ ـ ٣١﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون * ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلما لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرّب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لعلهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآناً عربياً، واضح الألفاظ،

سهل المعاني، خصوصاً على العرب.

﴿غير ذي عوج﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً﴾.

﴿لعلهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾ أي: عبداً ﴿فيه شركاء متشاكسون﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كلٌ له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ورجلاً سلماً لرجل﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. ﴿هل يستويان﴾ أي: هذان الرجلان ﴿مثلاً﴾؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحِّد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾

﴿إنك ميتٌ وإنهم ميتُون﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾.

﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كُلاً ما عمله ﴿أحصاه الله ونسوه﴾.

﴿٣٢ ـ ٣٥﴾ ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ يقول تعالى، مخبراً ومخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً ﴿ممن كذب على الله﴾ إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ إن كان جاهلاً، وإلاَّ فهو أشنع وأشنع،

[﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾][1] أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والتكذيب بالحق، كان ظلماً على ظلم.

﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنايته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وصدَّق به﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يُصدَّق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هم المتقون﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.

﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه حاصل لهم، معد مهيأ، ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ﴿المحسنين﴾ إلى عباد الله.

﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات:

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، فبهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي: بحسناتهم كلها. ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

(١) في النسختين: أو كذَّب بالحق لما جاءه.

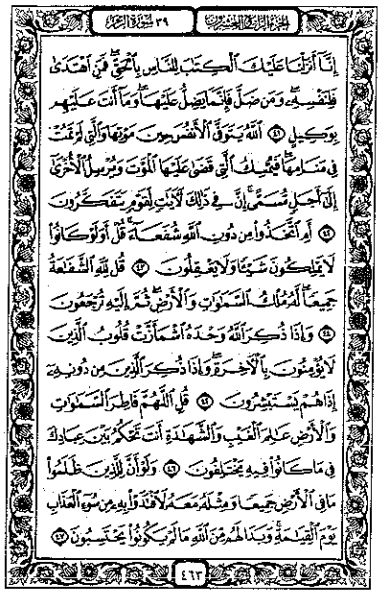

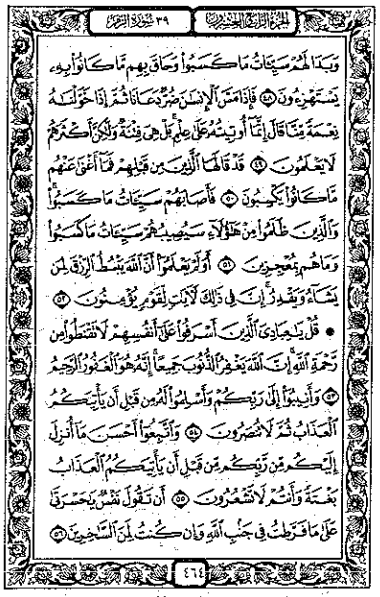

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ ﴿أليس الله بكاف عبدهُ ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضلّ أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾ ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره واجتنب نهيه، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء.

﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم.

﴿ومَنْ يُضْلِلِ الله فما له من هَادٍ * ومَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما له من مضِلٍّ﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿أليس الله بعزيز﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم. ﴿ذي انتقام﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

﴿٣٨﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرٍّ هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾

أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خلق السماوات والأرض﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئاً. ﴿ليقولن الله﴾ الذي خلقها وحده. ﴿قل﴾ لهم مقرراً عجز آلهتهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أفرأيتم﴾ أي: أخبروني ﴿ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر﴾ أيّ ضرٍّ كان.

﴿هل هُنَّ كاشفات ضُرِّه﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أو أرادني برحمة﴾ يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي. ﴿هل هنَّ ممسكات رحمته﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم: ﴿قل حسبي الله عليه يتوكّل المتوكلون﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده ـ وحده ـ الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أهمني ومالا أهتم به.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة مَنْ لا يستحق من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيء.

﴿إني عاملٌ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده. ﴿فسوف تعلمون﴾ لمن العاقبة و ﴿مَنْ يأتيه عذاب يخزيه﴾ في الدنيا، ﴿ويحل عليه﴾ في الأخرى ﴿عذاب مقيم﴾ لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿٤١﴾ ﴿إنّا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فمَن اهتدى﴾ بنوره واتبع أوامره ﴿فإ﴾ إن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿ومَنْ ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فإنما يضلّ عليها﴾ لا يضر الله شيئاً. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿٤٢﴾ ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه، لا ينافي أنه قد وكّل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم﴾ ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فيمسك﴾ من هاتين النفسين النفس ﴿التي قضى عليها الموت﴾ وهي نفس

مَنْ كان مات، أو قضى أن يموت في منامه.

﴿ويرسل﴾ النفس ﴿الأخرى إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتتحادث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿٤٣ ـ ٤٤﴾ ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون﴾ ينكر تعالى على مَن اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم. ﴿قُل﴾ لهم ـ مبيناً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة ـ: ﴿أَوَلو كانوا﴾ أي: مَنْ اتخذتم من الشفعاء ﴿لا يملكون شيئاً﴾ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلماً؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلاّ بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي: جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات. فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة. ﴿ثم إليه ترجعون﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل، ومَنْ أشرك به بالعذاب الوبيل.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون﴾ يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إذا ذكر الله﴾ توحيداً له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشمئزون وينفرون، ويكرهون ذلك أشد الكراهة.

﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها، ﴿إذا هم يستبشرون﴾ بذلك، فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم، وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء. فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئاً؟

ولهذا قال: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما ومدبرهما، ﴿عالم الغيب﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، ﴿والشهادة﴾ الذي نشاهده.

﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا فيك مَنْ لا يسوى شيئاً، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمئزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾.

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد﴾ إلى أن قال: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾.

وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ ﴿إنه مَنْ يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ ففي هذه الآية، بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه بين عباده وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه ﴿ألا يعلم مَنْ خلق﴾.

﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون * وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على ـ الفرض والتقدير ـ لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قُبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون * إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم﴾.

﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

﴿٤٩ ـ ٥٢﴾ ﴿فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين * أولم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضر، من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دعانا﴾ ملحاً في تفريج ما نزل به ﴿ثم إذا خولناه نعمة منّا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافراً، ولمعروفه منكراً، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي: علم من الله، أني له أهل، وأني مستحق له، لأني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ يبتلي الله به عباده، لينظر مَنْ يشكره ممن يكفره. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي: قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغنِ ﴿عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم العذاب.

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا ـ بجهلهم ـ أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿ويقدر﴾ الرزق، أي: يضيقه على مَنْ يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إن في ذلك، لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعياً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٥٣ ـ ٥٩﴾ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول ومَنْ قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علاّم الغيوب.

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعَم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجلّ، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا.

وفي قوله: ﴿إلى ربكم وأسلموا له﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ مجيئاً لا يدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾. فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك.

ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،

والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم، ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ وكل هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أن﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و ﴿تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جَنبِ اللَّهِ﴾ أي: في جانب حقه، ﴿وإن كنتُ﴾ في الدنيا ﴿لمن الساخرين﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ و «لو» في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ وتجزم بوروده ﴿لو أن لي كرَّة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿لكنت من المحسنين﴾. قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أماني باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لَوْ رُدَّ، بيان بعد البيان الأول.

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ الدالة دلالة لا يمترى فيها على الحق ﴿فكذبت بها واستكبرت﴾ عن اتباعها ﴿وكنت من الكافرين﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٦٠ ـ ٦١﴾ ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين * وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾ يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سوَّدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي: العذاب الذي يسوؤهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.

﴿٦٢ ـ ٦٣﴾ ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل * له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكماله، الموجب لخسران مَنْ كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء ـ غير الله ـ مخلوقة، ففيها رد على كل مَنْ قال بقدم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسماوات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

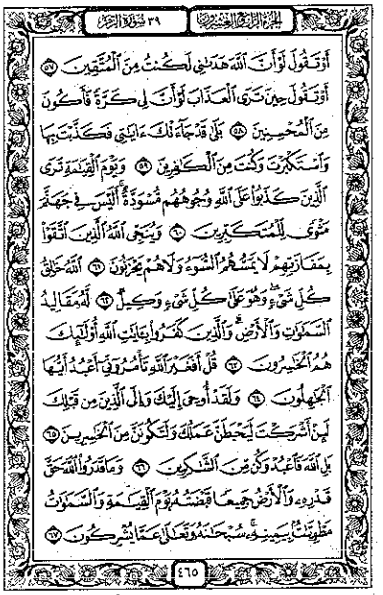
الجزء الرابع والعشرون ٣٩ سورة الزمر
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى
الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا
الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ
لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾
بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾
٤١٥

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فَأَخْذُ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلاّ بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، فإخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٦٣﴾ ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي: مفاتيحها، علماً

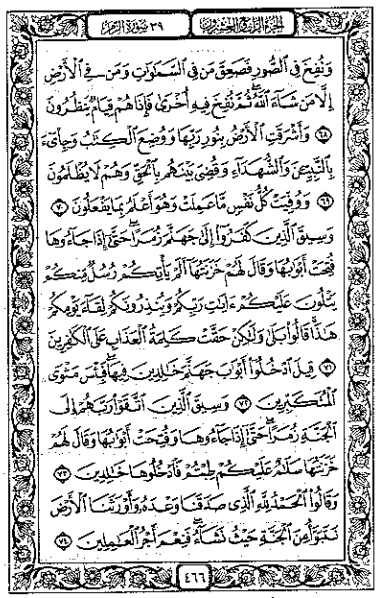
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ
بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾
٤٦٦

وتدبيراً، فـ ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾. فلما بيَّن من عظمته ما يقتضي أن تمتلىء القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ ـ ٦٦﴾ ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون مَنْ كان ناقصاً من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام ـ لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يُشكر ويُثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نِعَم الدين، هي النِّعَم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به مَنْ هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات ـ على سعتها وعظمها ـ مطويات بيمينه، فلا عظَّمَهُ حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به.

﴿٦٨ ـ ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغَّبهم ورهَّبهم فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إلا مَنْ شاء الله﴾ ممن ثبَّته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق ونفخة الفزع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

والقمر يُخسف، والنجوم تنتثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلّى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْنَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلاّ، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾.

﴿وجيء بالنبيين﴾ ليُسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقُضِيَ بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومَنْ هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك مَنْ يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿٧١ ـ ٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقُضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيفاً، يُضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يُدَعون إلى نار جهنم دعّا﴾ أي: يدفعون إليها دفعاً، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقاً متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم وقِربَ لنزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل مَنْ كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

فـ ﴿قيل﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طبتم﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿فـ﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلاّ الطيبون.

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلاّ مَنْ أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلاّ مَن استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على ألسنة رسله، إن آمنَّا وصلحنا، فوفَّى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما منَّانا. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي: ننزل منها أي: مكان شئنا، ونتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنّا شيء نريده. ﴿فنعم أجر العاملين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حافين من حول العرش﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل مَنْ هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

تفسير سورة المؤمن
مكية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، ﴿العزيز﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق، ﴿العليم﴾ بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾ للمذنبين ﴿وقابل التوب﴾ من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾ على مَنْ تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذي الطول﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لا إله إلاّ هو إليه المصير﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال.

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نِعَمِهِ العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذي الطول﴾.

وإما إخبار عن نِقَمِهِ الشديدة، وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شديد العقاب﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا إله إلاّ هو﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إليه المصير﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤ ـ ٦﴾ ﴿ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فلا يغررك

وترى الملئكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿٧٥﴾
سورة غافر
بسم الله الرحمن الرحيم
حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴿٢﴾ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴿٣﴾ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلد ﴿٤﴾ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجدلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴿٥﴾ وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴿٦﴾ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴿٧﴾
٤٦٧

تقلبهم في البلاد﴾ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد، أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه مَنْ لا علم ولا عقل له.

ثم هدد مَنْ جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل مَنْ قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل لينصروه، ﴿**و**﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿**همت كل أمة**﴾ من الأمم ﴿**برسولهم ليأخذوه**﴾ أي: يقتلوه. وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿**فأخذتهم**﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿**فكيف كان عقاب**﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خامدون.

﴿**وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا**﴾ أي: كما حقت على أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿**أنهم أصحاب النار**﴾

﴿ ٧ـ ٩ ﴾ ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم**﴾ يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿**الذين يحملون العرش**﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿**ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**﴾.

﴿**ومن حوله**﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿**يسبحون بحمد ربهم**﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده» فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات.

﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها ـ غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب ـ ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلاّ به، فقال: ﴿**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً**﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه. ﴿**فاغفر للذين تابوا**﴾ من الشرك والمعاصي ﴿**واتبعوا سبيلك**﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك. ﴿**وقهم عذاب الجحيم**﴾ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

﴿**ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم**﴾ على ألسنة رسلك ﴿**ومَنْ صلح**﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿**من آبائهم وأزواجهم**﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿**وذرياتهم**﴾ ﴿**إنك أنت العزيز**﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم به إلى كل خير ﴿**الحكيم**﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت بها على ألسنة رسلك، واقتضاها فضلك، المغفرة للمؤمنين. ﴿**وقِهِمُ السيئات**﴾ أي: الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها. ﴿**ومن تَقِ السيئات يومئذ**﴾ أي: يوم القيامة

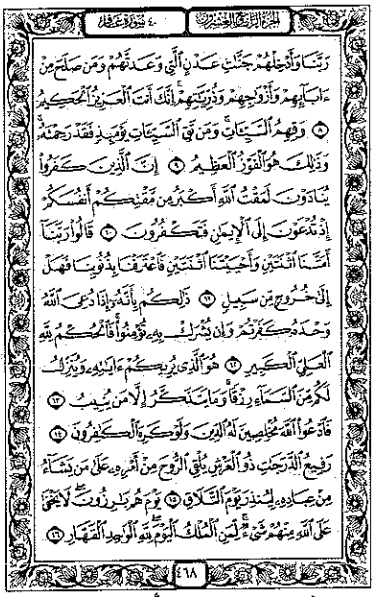
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦

﴿فقد رحمته﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقيته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذلك﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادىء والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُدْلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها، واجتهدوا اجتهاد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني. وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجلُّه إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثيرٌ من هذا مَنَّ به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بدّ من وجود صلاحهم لقوله: ﴿ومَنْ صلح﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿١٠ ـ ١٢﴾ ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون * قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إن الذين كفروا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ أي: إياكم ﴿إذ تُدْعَوْنَ إلى الإيمان فتكفرون﴾ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾ يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم

المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم، ﴿وأحييتنا اثنتين﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده﴾ أي: إذا دُعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كفرتم﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور. ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا المقيل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾.

﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.

﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿١٣ ـ ١٧﴾ ﴿هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب * فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يُري عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يُبْقِ الحق مشتبهاً، ولا الصواب ملتبساً، بل نوَّع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك مَنْ هلك عن بيّنة، ويحيا مَنْ حي عن بيّنة وكلَّما كانت المسائل أجلَّ وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾

ولما ذكر أنه يُري عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ أي: مطراً، به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعَم كلها منه، فمنه نِعَم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعَم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه ـ وحده ـ المنعم.

﴿وما يتذكر﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إلا مَنْ يُنيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

﴿ولو كره الكافرون﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلَّت أوصافه، وتعالت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهّر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يلقي الروح﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الذي فيه

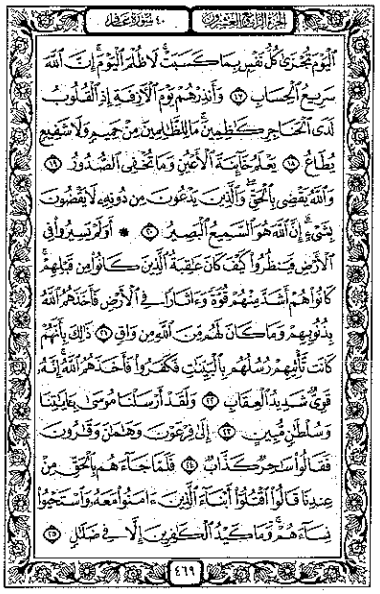

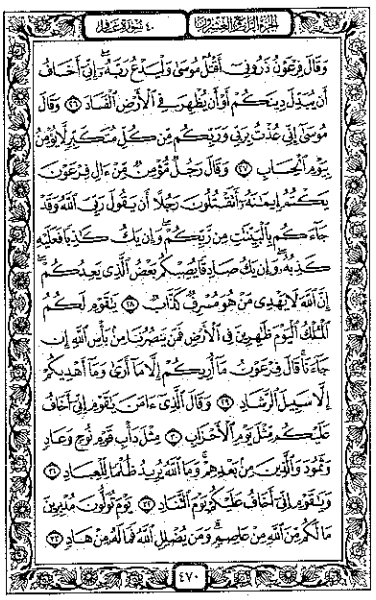

نفع العباد ومصلحتهم.

﴿على مَن يشاء من عباده﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لينذر﴾ مَنْ ألقى الله إليه الوحي ﴿يوم التلاق﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه «يوم التلاق»، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لمن الملك اليوم﴾ أي: مَنْ هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلاّ الأعمال الصالحة أو السيئة؟

الملك ﴿لله الواحد القهار﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿القهار﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلاّ بإذنه، ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم، فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿ ١٨ ــ ٢٠ ﴾ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلاّ مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يُطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله.

﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾[1] بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

﴿ ٢١ ــ ٢٢ ﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدَّ منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يسيروا في الأرض﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوةً من هؤلاء في العَدَد والعُدَد وكبر الأجسام. ﴿و﴾ أشد ﴿آثاراً في

(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).

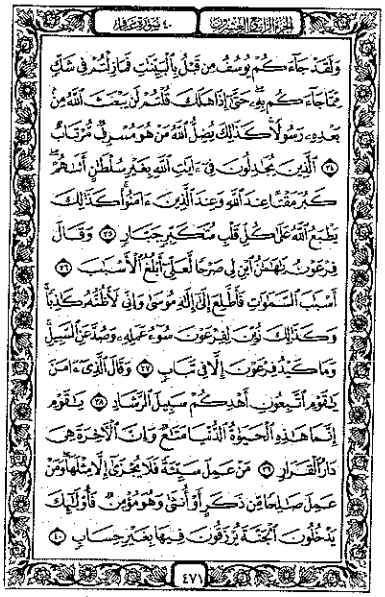
وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

الأرض﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها. ﴿**فأخذهم الله**﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها، ﴿**إنه قوي شديد العقاب**﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿**مَنْ أشد منا قوة**﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسل، وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿ ٢٣ ـ ٤٦ ﴾ ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين**﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿**ولقد أرسلنا**﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿**موسى**﴾ ابن عمران، ﴿**بآياتنا**﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيّة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿**وسلطان مبين**﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتذعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيّد الله بها موسى، ومكّنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿**فرعون وهامان**﴾ وزيره ﴿**وقارون**﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿**فقالوا ساحر كذاب**﴾ ﴿**فلما جاءهم بالحق من عندنا**﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿**قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين**﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(١) وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، ولينـدفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل «وما كيدهم إلاّ في ضلال» بل قال: ﴿**وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال**﴾

و ﴿**قال فرعون**﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿**ذروني أقتل موسى وليدع ربه**﴾ أي: زعم ـ قبحه الله ـ أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿**إني أخاف أن يبدل دينكم**﴾ الذي أنتم عليه ﴿**أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾. وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج، الذي لا يدخل إلاّ عقل مَنْ قال الله فيهم: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿**وقال موسى**﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعيناً بربه: ﴿**إني عُذْتُ بربي وربكم**﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿**من كل متكبِّر لا يؤمن بيوم الحِساب**﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيّض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿**وقد جاءكم بالبينات من ربكم**﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلاّ أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه،

(١) في هامش الأصل (قاعدة).

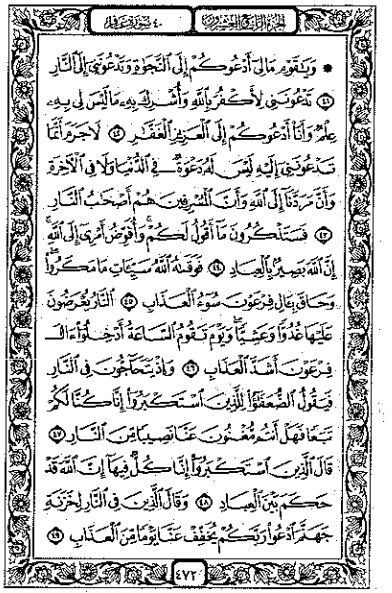

فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: ﴿**وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهلٌ منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه ـ إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿**إن الله لا يهدي من هو مسرف**﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿**كذاب**﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذّر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿**يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض**﴾ أي: في الدنيا ﴿**فمن ينصرنا من بأس الله**﴾ أي: عذابه ﴿**إن جاءنا**﴾؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿**فمن ينصرنا**﴾ وقوله: ﴿**إن جاءنا**﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

فـ ﴿**قال فرعون**﴾ معارضاً له في ذلك، ومغروراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿**ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**﴾ وصدق في قوله: ﴿**ما أريكم إلا ما أرى**﴾ ولكن ما الذي رأى؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم يرَ الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿**وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

﴿**وقال الذي آمن**﴾ مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿**يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب**﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿**مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم**﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿**وما الله يريد ظلماً للعباد**﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿**يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد**﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ إلى آخر الآيات.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾.

وحين ينادي أهل النار مالكاً ﴿ليقض علينا ربك﴾ فيقول: ﴿إنكم ماكثون﴾. وحين ينادون ربهم: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فيجيبهم: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾. وحين يقال للمشركين: ﴿ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾. فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿**يوم تولون مدبرين**﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿**مالكم من الله من عاصم**﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر﴾.

﴿**ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته.

﴿**ولقد جاءكم يوسف**﴾ بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿**فما**

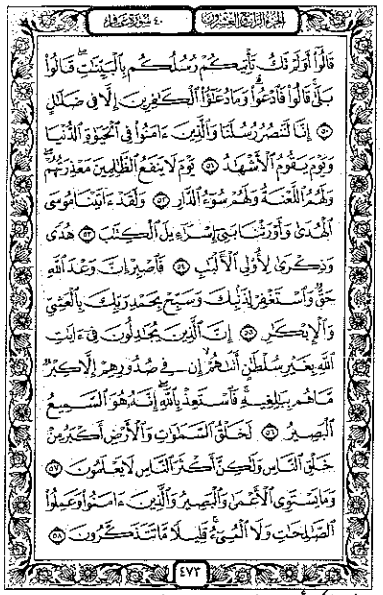

زلتم في شك مما جاءكم به في حياته **حتى إذا هلك** ازداد شككم وشرككم، و **قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا** أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظنُّ أن الله لا يرسل رسولا ظنُّ ضلال، ولهذا قال: **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلماً وعلواً، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** **والله لا يهدي القوم الظالمين**.

٣٥ ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: **الذين يجادلون في آيات الله** التي بينت الحق من الباطل، وصارت - من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها **بغير سلطان أتاهم** أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل مَنْ جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلاً **كبر** ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل **مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا** فالله أشد بغضاً لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقته، **كذلك** أي: كما طبع على قلوب آل فرعون **يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

وقال فرعون معارضاً لموسى ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: **يا هامان ابن لي صرحاً** أي: بناء عظيماً مرتفعاً، والقصد منه لعلي أطلع **إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً** في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: **وكذلك زين لفرعون سوء عمله** فزين له العمل السيِّء، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، **وصد عن السبيل** الحق، بسبب الباطل الذي زين له. **وما كيد فرعون** الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل **إلا في تباب** أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

٣٨ **وقال الذي آمن** معيداً نصيحته لقومه: **يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد** لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد. **يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع** يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عمّا خلقتم له **وإن الآخرة هي دار القرار** التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

مَنْ عمل سيئة من شرك أو فسوق أو عصيان **فلا يجزى إلا مثلها** أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء.

ومَنْ عمل صالحاً من ذكر أو أنثى من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان **فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة بما قلت لكم **وتدعونني إلى النار** بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام. ثم فسر ذلك فقال:

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم أنه يستحق أن يُعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، **وأنا أدعوكم إلى العزيز** الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. **الغفار** الذي يستر العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفّر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

لا جرم أي: حقاً يقيناً **أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة** أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً

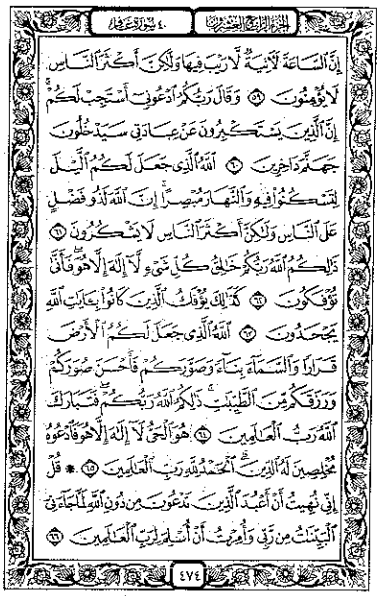

ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

﴿وأن مردنا إلى الله﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله. ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرُّؤ[1] على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذّرهم وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلاّ بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليَّ، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي: وقى الله القويّ الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه باداهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿٤٧ ـ ٥٠﴾ ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد * وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقول الضعفاء﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿للذين استكبروا﴾ على الحق، ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿إنّا كنّا لكم تبعاً﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قال الذين استكبروا﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إنّا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقصُ منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿وقال الذين في النار﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ لعله تحصل بعض الراحة، فـ ﴿قالوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قالوا بلى﴾ قد جاؤونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين. ﴿قالوا﴾ أي: الخزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال، صادّ لإجابة الدعاء.

﴿٥١ ـ ٥٢﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله وحاربوهم، قال: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم لهم، ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العقاب:

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ حين يعتذرون ﴿ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿٥٣ ـ ٥٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب * هدى وذكرى لأولي الألباب * فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ لما ذكر

(١) في النسختين (بالتجري).

ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار، ذكر أنه أعطى موسى ﴿الهدى﴾ أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون. ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي: جعلناه متوارثاً بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، وعلى التذكر للخير بالترغيب فيه، وعن الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿لأولي الألباب﴾.

﴿فاصبر﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين. ﴿إن وعد الله حق﴾ أي: ليس مشكوكاً فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدى الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿إن وعد الله حق﴾ من الأسباب التي تحث على الصبر على طاعة الله وعن ما يكره الله.

﴿واستغفر لذنبك﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصاً ﴿بالعشي والإبكار﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما، لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور.

﴿٥٦﴾ ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾ يخبر تعالى أن مَنْ جادل في آياته ليبطلها بالباطل، بغير بينة من أمره ولا حجة، إن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى مَنْ جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم.

ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح، وبشارة، بأن كل مَنْ جادل الحق أنه مغلوب، وكل مَنْ تكبّر عليه فهو في نهايته ذليل.

﴿فاستعذ﴾ أي: اعتصم والجأ ﴿بالله﴾ ولم يذكر ما يستعيذ، إرادة للعموم. أي: استعذ بالله من الكِبْر الذي يوجب التكبُّر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور.

﴿إنه هو السميع﴾ لجميع الأصوات على اختلافها، ﴿البصير﴾ بجميع المرئيات، بأي: محل وموضع وزمان كانت.

﴿٥٧ ـ ٥٩﴾ ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون * إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يخبر تعالى بما تقرر في العقول، أن خلق السماوات والأرض ـ على عظمهما وسعتهما ـ أعظم وأكبر من خلق الناس، فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة بمجرد نظر العاقل إليها يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث.

وليس كل أحد يجعل فكره لذلك ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال، ثم قال تعالى:

﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي مَنْ آمن بالله وعمل الصالحات، ومَنْ كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مساخطه، ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ أي: تذكركم قليل[1]، وإلاّ، فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجّار، وكانت لكم همة عليّة، لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

﴿٥٩﴾ ﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق ونطقت بها الكتب السماوية، التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية. ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿٦٠﴾ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد مَن استكبر عنها فقال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب

(١) في النسختين (قليلاً).

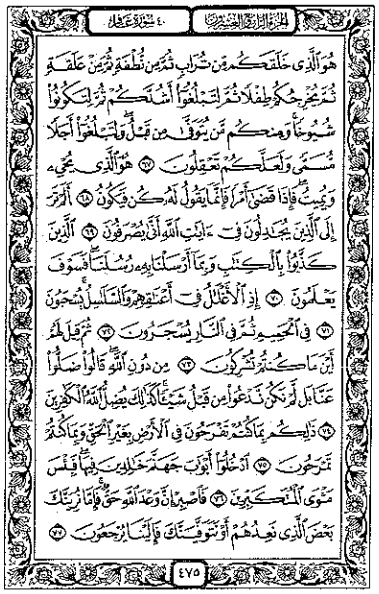
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

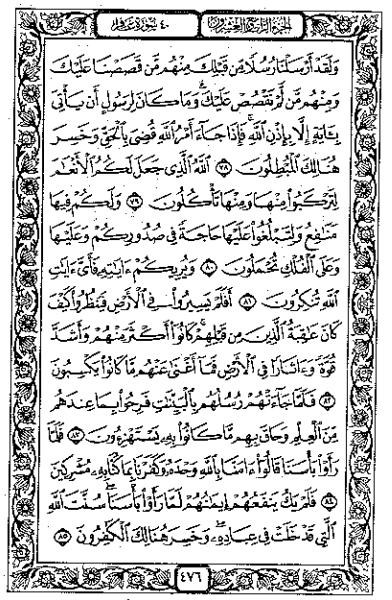
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ
اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم
مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ
﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
٤٧٦

والإهانة، جزاء على استكبارهم.

﴿ ٦١ ـ ٦٥ ﴾ ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك، أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبيه شيئاً، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران ـ وهما معرفته وعبادته ـ هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فات كل خير وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يخفيه نوال.

فقوله تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الليل﴾** أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، **﴿لتسكنوا فيه﴾** من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويُلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضاً، كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿و﴾ جعل تعالى **﴿النهار مبصراً﴾** منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته.

﴿إن الله لذو فضل﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير **﴿على الناس﴾**. حيث أنعم عليهم بهذه النِّعَم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره، **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** بسبب جهلهم وظلمهم. **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل **﴿الله ربكم﴾** أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النِّعَم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، **﴿لا إله إلا هو﴾** تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، **﴿خالق كل شيء﴾** تقرير لربوبيته.

ثم صرَّح بالأمر بعبادته فقال: **﴿فأنى تؤفكون﴾** أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل وأنار لكم السبيل؟!!

﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾**.

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي: قارة ساكنة، مهيأة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿والسماء بناء﴾ سقفاً للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات التي يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، **﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾** فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**.

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً، إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور.

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكل،

ومشرب، ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أسبابها، ومنعهم من الخبائث التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم، ﴿**ذلكم**﴾ الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿**الله ربكم**﴾ ﴿**فتبارك الله رب العالمين**﴾ أي: تعاظم وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

﴿**هو الحي**﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿**لا إله إلا هو**﴾ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم. ﴿**فادعوه**﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿**مخلصين له الدين**﴾ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء، بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

﴿٦٦ ـ ٦٨﴾ ﴿**قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين * هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون * هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبينات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿**قل**﴾ يا أيها النبي ﴿**إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله**﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عُبد من دون الله.

ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿**لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين**﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم مَنْهِيٍّ عنه على الإطلاق، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقتكم، فكما خلقكم وحده فاعبدوه وحده، فقال: ﴿**هو الذي خلقكم من تراب**﴾ وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿**ثم من نطفة**﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقة، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿**ثم يخرجكم طفلاً**﴾ ثم هكذا تتنقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدّكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة. ﴿**ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم مَنْ يتوفى من قبل**﴾ بلوغ الأشد ﴿**ولتبلغوا**﴾ بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم. ﴿**ولعلكم تعقلون**﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿**هو الذي يحيي ويميت**﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

﴿**فإذا قضى أمراً**﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿**فإنما يقول له كن فيكون**﴾ لا رد في ذلك، ولا مثنوية، ولا تمنع.

﴿٦٩ ـ ٧٦﴾ ﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون * الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون * ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ ﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله**﴾ الواضحة البينة متعجباً من حالهم الشنيعة. ﴿**أنى يُصْرَفُونَ**﴾ أي: كيف ينعدلون عنها؟ وإلى أي: شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بيِّنات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبهاً توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولاً، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿**فسوف يعلمون * إذ الأغلال في أعناقهم**﴾ التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿**والسلاسل**﴾ التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿**يسحبون * في الحميم**﴾ أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿**ثم في النار يسجرون**﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿**لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله**﴾ هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿**قالوا ضلوا عنا**﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿**بل لم نكن ندعو من قبل شيئا**﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل ـ وهو الأظهر ـ أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿**كذلك يضل الله**

الكافرين﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿**وما يتبع الذين** يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلاّ الظن﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**﴾ ﴿**ومَنْ أضل ممن يدعو من دون الله مَنْ لا يستجيب له إلى يوم القيامة**﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار ﴿**ذلكم**﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿**بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون**﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل وتمرحون على عباد الله، بغياً وعدواناً وظلماً وعصياناً، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾.

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿**ادخلوا أبواب جهنم**﴾ كل بطبقة من طبقاتها على قدر عمله. ﴿**خالدين فيها**﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿**فبئس مثوى المتكبرين**﴾ مثوى يخزون فيه ويهانون ويحبسون ويعذبون ويترددون بين حرها وزمهريرها.

﴿٧٧﴾ ﴿**فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون**﴾ أي: ﴿**فاصبر**﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿**إن وعد الله حق**﴾ سينصر دينه، ويُعْلي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضاً، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿**فإما نرينك بعض الذي نعدهم**﴾ في الدنيا فذاك ﴿**أو نتوفينك**﴾ قبل عقوبتهم ﴿**فإلينا يرجعون**﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿فلا تحسبن الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون﴾. ثم سلاّه وصبّره بذكر إخوانه المرسلين فقال:

﴿٧٨﴾ ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون**﴾ أي: ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً**﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعونهم ويصبرون على أذاهم. ﴿**منهم مَنْ قصصنا عليك**﴾ خبرهم ﴿**ومنهم مَنْ لم نقصص عليك**﴾. وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحدٍ منهم ﴿**أن يأتي بآية**﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿**إلاّ بإذن الله**﴾ أي: بمشيئته وأمره، فاقتراح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعنت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به. ﴿**فإذا جاء أمر الله**﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح. ﴿**قُضِي**﴾ بينهم ﴿**بالحق**﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿**وخسر هنالك**﴾ أي: وقت القضاء المذكور ﴿**المبطلون**﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة، فَلْيَحْذَر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿٧٩ ـ ٨١﴾ ﴿**الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأي**: آيات الله **تنكرون**﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام:

منها: منافع الركوب عليها والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع.

﴿**ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم**﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها. ﴿**وعليها وعلى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ أي: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهيأ لها ما هيأ من الأسباب التي لا تتم إلاّ بها.

﴿**ويريكم آياته**﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نِعَمِهِ، حيث أشهد عباده آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونِعَمَهِ الباهرة، وعدَّدَها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه.

﴿**فأيَّ آيات الله تنكرون**﴾ أي: أي: آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندكم، أن جميع الآيات والنعَمْ منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته والتبتل في خدمته والانقطاع إليه.

﴿٨٢ ـ ٨٥﴾ ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك**

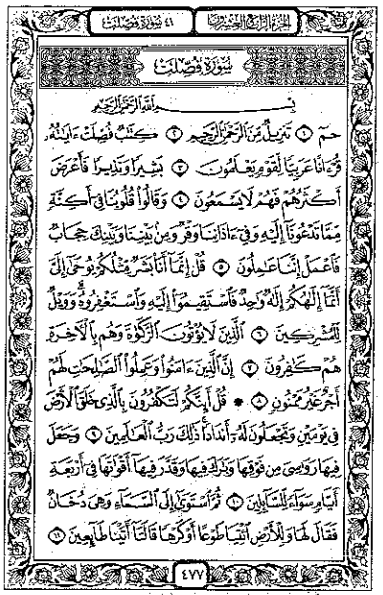
الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت — ٤٧٧
سورة فصلت
بسم الله الرحمن الرحيم
حم ① تنزيل من الرحمن الرحيم ② كتاب فصلت آياته ③ قرآنا عربيا لقوم يعلمون ④ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ⑤ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ⑥ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ⑦ الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ⑧ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ⑨ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ⑩ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ⑪ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ⑫

﴿الكافرون﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين. ﴿فينظروا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغنِ عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة فالله المستعان.

﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ من العذاب. ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل.

﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سُنَّة الله﴾ وعادته ﴿التي خلت في عباده﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وخسر هنالك﴾ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿الكافرون﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته، لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء

تفسير سورة فصلت[1] مكية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد * فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾ صادر ﴿من الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلّها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجلّ نِعَمِهِ على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فُصِّلَتْ آياته﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق. ﴿قرآناً عربياً﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فُصِّلت آياته وجُعل عربياً. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغيُّ من الرشاد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عَمىً فهؤلاء لم يُسَق الكلام لأجلهم، ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾.

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي: بشيراً بالثواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلقَّى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فهم

(١) كذا في الأصل والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت).

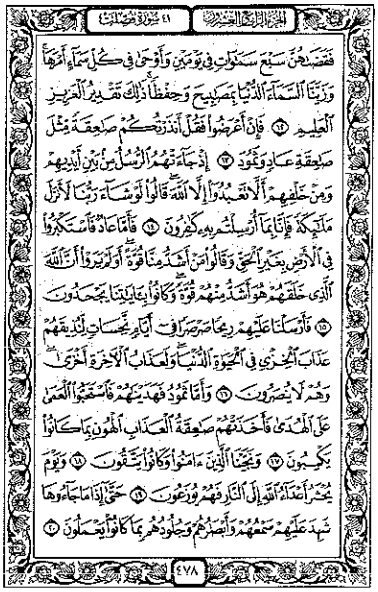
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

لا يسمعون له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

﴿**وقالوا**﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿**قلوبنا في أكنة**﴾ أي: أغطية مغشاة ﴿**مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر**﴾ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿**ومن بيننا وبينك حجاب**﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿**فاعمل إننا عاملون**﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿**قل**﴾ لهم يا أيها النبي: ﴿**إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ**﴾ أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشرٌ مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم وميَّزني وخصَّني بالوحي الذي أوحاه إليَّ وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

﴿**فاستقيموا إليه**﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿**إليه**﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد ـ ولو حرص على الاستقامة ـ لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿**واستغفروه**﴾ ثم توعَّد مَنْ ترك الاستقامة فقال: ﴿**وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة**﴾ أي: الذين عبدوا من دونه مَنْ لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ودنسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. ﴿**وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة. ﴿**لهم أجرٌ**﴾ أي: عظيم ﴿**غير ممنون**﴾ أي: غير مقطوع ولا نافد، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات.

﴿٩ ــ ١٢﴾ ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ ينكر تعالى ويعجِّب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمل خلقها، ودحاها، وإخراج أقواتها، وتوابع ذلك ﴿**في أربعة أيام سواء للسائلين**﴾ عن ذلك، فلا ينبئك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

﴿**ثم**﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿**استوى**﴾ أي: قصد ﴿**إلى**﴾ خلق ﴿**السماء وهي دخان**﴾ قد ثار على وجه الماء، ﴿**فقال لها**﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: ﴿**وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً**﴾ أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه. ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. ﴿**فقضاهن سبع سموات في يومين**﴾ فتَمَّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النازعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتها

متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾ متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها﴾ إلى آخره ولم يقل: «والأرض بعد ذلك خلقها».

وقوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. ﴿وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح﴾ هي النجوم يستنار بها ويُهتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً، وجمالاً لها باطناً، بجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذلك﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلاّ العقوبات الدنيوية والأخروية، فلهذا خوفهم بقوله:

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بيّن لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فقل أنذرتكم صاعقة﴾ أي: عذاباً يستأصلكم ويجتاحكم، ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحهم العذاب، وحلّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

حيث ﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة. ﴿ألا تعبدوا إلاّ الله﴾ أي: يأمرون بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم، و ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي: وأما أنتم فبشرٌ مثلنا ﴿فإنّا بما أرسلتم به كافرون﴾ وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين [من الأمم][1]، وهي من أوهى الشُّبَهِ، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل مَلَكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فَلْيَقْدَحُوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾ هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود. ﴿فأما عاد﴾ فكانوا ـ مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله ـ مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم. ﴿وقالوا مَنْ أشدُّ منا قوة﴾ قال تعالى رداً عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي: ريحاً عظيمة، من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿نحسات﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم. وقال هنا: ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة. ﴿ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا يمنعون أنفسهم.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أي:

(١) في النسختين (بالأمم).

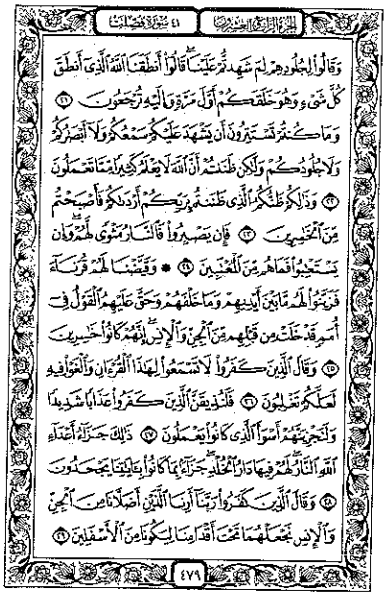
وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

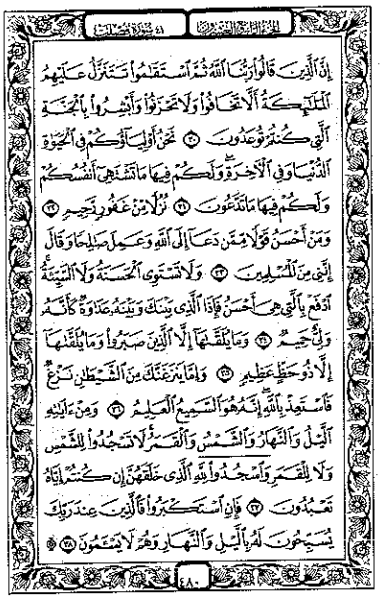
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ ٨٠

هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم ـ من ظلمهم وشرهم ـ استحبوا العمى ـ الذي هو الكفر والضلال ـ على الهدى ـ الذي هو العلم والإيمان ـ فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلماً من الله لهم. **﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** أي: نجّى الله صالحاً عليه السلام ومَن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿١٩ ـ ٢٤﴾ ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون. **﴿إلى النار فهم يوزعون﴾** [أي]: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، **﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾** أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، **﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾** عموم بعد خصوص. [**﴿بما كانوا يعملون﴾**] أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

فإذا شهدت عليهم عاتبوها، **﴿وقالوا لجلودهم﴾** هذا دليل على أنّ الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: **﴿لم شهدتم علينا﴾** ونحن ندافع عنكن؟ **﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾** فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحدٌ.

﴿وهو خلقكم أوّل مَرّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. **﴿وإليه ترجعون﴾** في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. **﴿ولكن ظننتم﴾** بإقدامكم على المعاصي **﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾** فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: **﴿وذلكم ظنُّكُمُ الذي ظننتم بربكم﴾** الظن السيّء حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله. **﴿أرداكم﴾** أي: أهلككم، **﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾** لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة:

﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: **﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾**.

﴿وإن يستعتبوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل. **﴿فما هم من المعتبين﴾** لأنه ذهب وقته، وعمروا ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم مع أن استعتابهم كذب منهم **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾**.

﴿٢٥﴾ ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي: وقيضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق **﴿قرناء﴾** من الشياطين، كما قال تعالى: **﴿ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾** أي: تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا **﴿لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاؤوا من محاربة الله ورسله، والآخرة بَعَدُوها

عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها، فترحَّل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبِدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿ومَنْ يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

﴿وحق عليهم القول﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿في﴾ جملة ﴿أمم قد خلت من قبلهم من الجنِّ والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومَنْ خسر، فلا بد أن يذل ويشقى ويُعذب.

﴿٢٦ ـ ٢٩﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون * فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون * ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذيْن أضلاّنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى مَنْ جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فـ ﴿الغوا فيه﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا ـ مع قدرتكم ـ أحداً يملك عليكم الكلام به وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لعلكم﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تغلبون﴾ [وهذه][1] شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلاّ في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون، فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

ولما كان هذا ظلماً منهم وعناداً، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كان يعملون﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشر[2]، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

﴿ذلك جزاء أعداء الله﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجالدة. ﴿النار لهم فيها دار الخلد﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها.

﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: الأتباع منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحنق على مَنْ أضلهم: ﴿ربنا أرنا اللذين أضلاّنا من الجنِّ والإنس﴾ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجنِّ وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم. ﴿نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ أي: الأذلين المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سبباً لنزولنا. ففي هذا، بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض.

﴿٣٠ ـ ٣٢﴾ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تنشيطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار. ﴿ألا تخافوا﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً، ويقولون لهم أيضاً مثبتين لهم ومبشرين: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون

(١) في النسختين (وهذا).

(٢) في (ب) (الشرك).

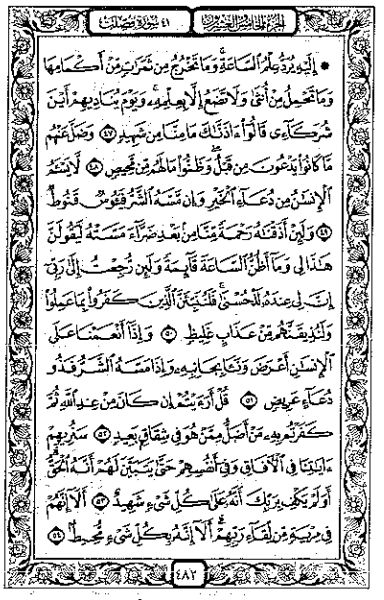

عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعْمَ عقبى الدار﴾ ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾ أي: في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ قد أعد وهيِّىء. ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نُزُلٌ وضيافة ﴿من غفور﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رحيم﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم. فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة ﴿ممن دعا إلى الله﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عمّا نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه، الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عمّا يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله، تحبيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسُنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم والعوارض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده، مما يشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وعمل صالحاً﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يُرْضِي ربه. ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل، كما أن من أشرّ الناس قولاً، مَنْ كان من دعاة الضالين[1] السالكين لسبله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلاّ الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿ولكلٍّ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عمّا يعملون﴾.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك، فقال ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخَلْق، خصوصاً مَنْ له حقٌّ كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك وترك خطابك فَطَيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وما يُلَقَّاها﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إلاّ الذين صبروا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟!!

فإذا صبّر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك متلذذاً مستحلياً له.

﴿وما يُلَقَّاها إلاّ ذو حظٍّ عظيم﴾

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب (من دعاة الضلال).

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿٣٥ ـ ٣٩﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم * ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون * ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاعتصام من شره، فقال: ﴿وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ أيّ: أيّ وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فاستعذ بالله﴾ أي: اسأله، مفتقراً إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿من آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿الليل والنهار﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظُلمَته، وسكون الخلق فيه. ﴿والشمس والقمر﴾ اللذان لا تستقيم معايش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلاّ بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ أي: اعبدوه وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فإن استكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فالذين عند ربك﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ أي: المطر ﴿اهتزت﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وربت﴾ ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إن الذي أحياها﴾ بعد موتها وهمودها، ﴿لمحيي الموتى﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم ﴿إنه على كل شيء قدير﴾ فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٠ ـ ٤٢﴾ ﴿إنّ الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير * إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي: وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب مَنْ جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معانٍ لها ما أرادها الله منها.

فتوعَّد تعالى مَنْ ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أفمن يُلقى في النار﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خيرٌ أم مَنْ يأتي آمناً يوم القيامة﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لمّا تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغيّ المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم الذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المُعْلي لقدر مَن اتبعه، ﴿لما جاءهم﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿و﴾ الحال ﴿إنه لكتاب﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عزيز﴾ أي: منيع من كل مَنْ أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجنّ، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل مَنْ أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾.

﴿تنزيل من حكيم﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. ﴿حميد﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة

وذو عقاب أليم﴾ أي: **﴿ما يقال لك﴾** أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك **﴿إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك﴾** أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلنا﴾.

واقتراحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر مَنْ قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإنابة بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغيّ فقال: **﴿إن ربك لذو مغفرة﴾** أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب **﴿وذو عقاب أليم﴾** لمن أصر واستكبر.

﴿٤٤﴾ ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: **﴿لولا فُصِّلت آياته﴾** أي: هلاّ بينت آياته، ووضحت وفسرت. **﴿أأعجمي وعربي﴾** أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾** أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزجر عن مساوىء الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب.

﴿والذين لا يؤمنون﴾ بالقرآن **﴿في آذانهم وقرٌ﴾** أي: صمم عن استماعه وإعراض، **﴿وهو عليهم عمىً﴾** أي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلاّ ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عماهم، وغيّاً إلى غيّهم.

﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾

يقول تعالى: **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾** كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم مَنْ آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم مَنْ كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمّى لا يتقدم عليه ولا يتأخر **﴿لقضي بينهم﴾** بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. **﴿وإنهم لفي شكٍ منه مريب﴾** أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿مَنْ عمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله **﴿فلنفسه﴾** نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، **﴿ومَنْ أساء فعليها﴾** ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. **﴿وما ربك بظلاّم للعبيد﴾** فَيُحمِّل أحداً فوق سيئاتهم.

﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد * وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: **﴿إليه يرد علم الساعة﴾** أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلاّ وهو يعلمها علماً تفصيلياً.

﴿وما تحمل من أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلاّ بعلمه **﴿ولا تضع﴾** أنثى حملها **﴿إلا بعلمه﴾**. فكيف سوَّى المشركون به تعالى مَنْ لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿ويوم يناديهم﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: **﴿أين شركائي﴾** الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتم على ذلك، وعاديتم الرسل لأجلهم؟ **﴿قالوا﴾** مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله: **﴿آذناك ما منا من شهيد﴾** أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال: **﴿وضلّ عنهم ما كانوا يدعون﴾** من دون الله، أي:

ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وظنوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة مَنْ أشرك بالله غيره، يبيّنها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿٤٩ ـ ٥١﴾ ﴿لا يسأم الانسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط * ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ * وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلاّ مَنْ نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يحب ويطلب.

إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نِعَم الله عليهم استدراجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة منا﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغي ويطغى، ويقول: ﴿هذا لي﴾ أي: أتاني لأني له أهلٌ وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفرٌ للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل [لي] في الآخرة وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلهذا توعده الله بقوله: ﴿فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما، ﴿أعرض﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ونأى﴾ أي: ترفع ﴿بجانبه﴾ عجباً وتكبراً. وإن ﴿مسه الشر﴾ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فذو دُعاءٍ عريض﴾ أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلاّ مَنْ هداه الله ومنَّ عليه.

﴿٥٢ ـ ٥٤﴾ ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد * سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتم به مَنْ أضلُّ ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي: معاندة لله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذاً تكونون أضلّ الناس وأظلمهم.

فإن قلتم، أو شككتم بصحته وحقيقته، فسيقيم الله لكم ويريكم من آياته في الآفاق، كالآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق.

﴿وفي أنفسهم﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان مَنْ شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكْفِ بربِّكَ أنه على كل شيءٍ شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومَنْ جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند مَنْ شك فيها.

﴿ألا إنَّهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنَّهُ بكُلِّ شيءٍ محيط﴾ علماً وقدرة وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

ـ بمنّه تعالى ـ

تفسير سورة الشُّورى مكيـــة

﴿١ ـ ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * عسق * كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم * له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم * تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم * والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

بوكيل * وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير * ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى مَنْ قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة مَنْ قبله، وأحواله تناسب أحوال مَنْ قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل مَن اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي.

وأنه ﴿العلي﴾ بذاته، وقدره، وقهره. ﴿العظيم﴾ الذي من عظمته ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ على عظمها وكونها جماداً، ﴿والملائكة﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته. ﴿يُسبِّحون بحمد ربهم﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ عمّا يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الغفور الرحيم﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد ــ صلى الله عليهم أجمعين ــ خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قرآناً عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومَنْ حولها﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. ﴿وتنذر﴾ الناس ﴿يوم الجَمْع﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لا ريب فيه﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فريق في الجنة﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وفريق في السعير﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لو شاء الله﴾ لجعل الناس، أي: جعل الناس ﴿أمة واحدة﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته مَنْ شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فـ ﴿ما لهم﴾ من دون الله ﴿من ولي﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه.

والذين ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿١٠ ــ ١٢﴾ ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب * فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾ يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سُنّة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسُنّة رسوله.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿وإليه أُنيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته

الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾.

﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته. ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكراً وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي: يبثكم ويكثركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً.

﴿ليس كمثله شيء﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة[1] كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه. ﴿وهو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾ يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وهو السميع البصير﴾.

وقوله: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة. فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿ويقدر﴾ أي: يضيق على مَنْ يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فلهذا قال: ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فيعلم أحوال عباده، فيعطي كلاً ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

﴿١٣﴾ ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿أن أقيموا الدين﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. ﴿ولا تتفرقوا فيه﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجُمَع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ وقولهم: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب: (صفات).

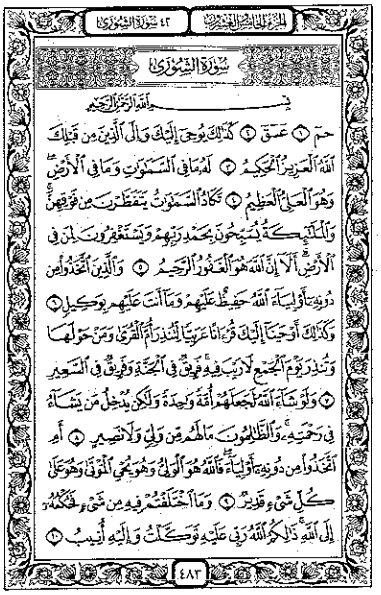

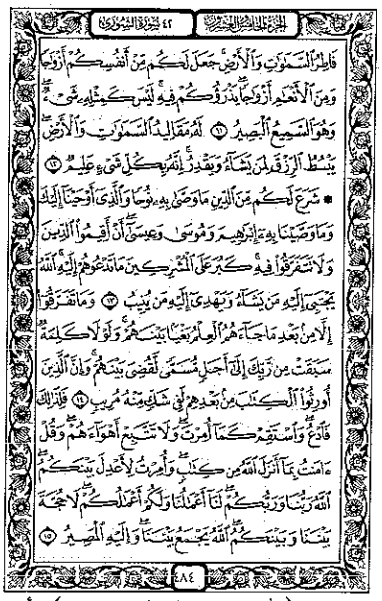
فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴿١١﴾ له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴿١٢﴾ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴿١٣﴾ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴿١٤﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿١٥﴾

﴿الله يجتبي إليه مَن يشاء﴾ أي. يختار من خليقته مَنْ يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿ويهدي إليه مَن يُنيب﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾.

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يهدي إليه مَن يُنيب﴾ مع قوله: ﴿واتبع سبيل مَنْ أناب إليَّ﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أنَّ قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب * فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾

﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: بتأخير العذاب القاضي ﴿إلى أجل مسمّى لقضي بينهم﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم.

﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ أي: الذين ورثوهم وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لفي شكٍّ منه مريب﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبله، ﴿واستقم﴾ بنفسك ﴿كما أمرت﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين، ولم يقل: «ولا تتبع دينهم» لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلاّ بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر ﴿لا حُجّة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

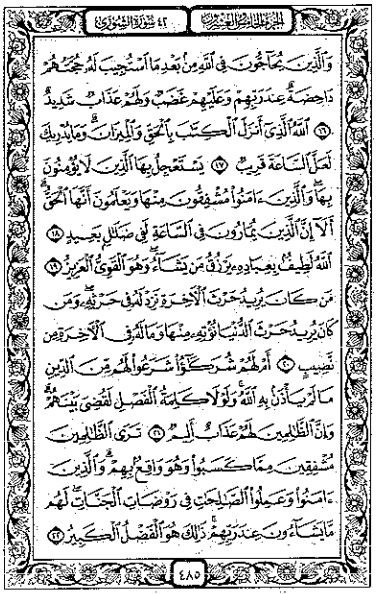
وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ يوم القيامة، فيجزي كلاً بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿١٦﴾ ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم، فأخبر هنا أن ﴿الذين يحاجون في الله﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿من بعد ما استجيب له﴾ أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول، لما بيّن لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حجتهم داحضة﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عند ربهم﴾ لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿وعليهم غضب﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها. ﴿ولهم عذاب شديد﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب * يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل مَنْ فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما أشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها. ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ عناداً وتكذيباً، وتعجيزاً لربهم. ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البُعد عن الحق، وأيُّ بعد أبعد ممن كذّب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنةً وفهماً.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز * من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده ـ وخصوصاً المؤمنين ـ إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى للملائكة الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث هممهم، ويحصل منهم التنافس

على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿**يرزق مَنْ يشاء**﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿**وهو القوي العزيز**﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلاّ به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿**مَنْ كان يريد حرث الآخرة**﴾ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿**نزد له في حرثه**﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿ومَنْ أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿**ومَنْ كان يريد حرث الدنيا**﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها. ﴿**نؤته منها**﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿**وما له في الآخرة من نصيب**﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾. إلى آخر الآيات.

﴿٢١ ــ ٢٣﴾ ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم * ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير * ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إنّ الله غفورٌ شكور**﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿**شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرّم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلاّ ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿**ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم**﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿**ترى الظالمين**﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿**مشفقين**﴾ أي: خائفين وجلين ﴿**مما كسبوا**﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿**واقع بهم**﴾ العقاب الذي خافوه، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿**والذين آمنوا**﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وما جاؤوا به، ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿**في روضات الجنات**﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلاّ حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً، ﴿**لهم ما يشاؤون**﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿**ذلك هو الفضل الكبير**﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿**ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشّر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجلّ الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿**قل لا أسألكم عليه**﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿**أجراً**﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿**إلاّ المودة في القربى**﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجراً إلا أجراً واحداً هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني

في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿**إلا المودة في القربى**﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقولهم: «ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك».

﴿**ومَنْ يقترف حسنة**﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿**نزد له فيها حسناً**﴾ بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿**إن الله غفور شكور**﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿**أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور**﴾ يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿**افترى على الله كذباً**﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرؤون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكّنك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة ـ على موجب زعمهم ـ أكبر الفساد في الأرض، حيث مكّنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على مَنْ خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسُنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿**ويحق الحق بكلماته**﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبته في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يُقيِّض له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبياناته، فظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبيرٌ بصير * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد**﴾ هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتمام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سبباً للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿**ويعفو عن السيئات**﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبه ويوفقه لما يقرّبه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿**ويعلم ما تفعلون**﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا ـ بحسب الاستجابة له ـ إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿**ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، فـ ﴿**لهم عذاب شديد**﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**﴾ أي: لغفلوا

عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إنه بعباده خبير بصير﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي مَنْ لا يصلح إيمانه إلاّ الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي مَنْ لا يصلح إيمانه إلاّ الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي مَنْ لا يصلح إيمانه إلاّ المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، ﴿من بعد ما قنطوا﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالاً، فينزل الله الغيث ﴿وينشر﴾ به ﴿رحمته﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الوليُّ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بَثَّ فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، ﴿خلق﴾ هذه ﴿السماوات والأرض﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلٰهية ما سواه باطلة.

﴿وما بث فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إذا يشاء قدير﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠ ـ ٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلاّ بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وليس إهمالاً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عمّا ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢ ـ ٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير * ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الجوار في البحر﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها ﴿كالأعلام﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

ثم نبّه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار ﴿رواكد﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير.

﴿إن في ذلك لآيات لكل صَبَّارٍ شكُورٍ﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شكور﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نِعَم الله، فإنه مُعْرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا﴾ ليبطلوها بباطلهم. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿٣٦ ـ ٣٩﴾ ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خير﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وأبقى﴾

لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿**للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل، الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿**والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ والفرق بين الكبائر والفواحش ـ مع أن جميعهما كبائر ـ أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

﴿**وإذا ما غضبوا هم يغفرون**﴾ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلاّ بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلاّ الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظّ عظيم﴾.

﴿**والذين استجابوا لربهم**﴾ أي: انقادوا لطاعته، ولبّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها. ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ من النفقات الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

﴿**وأمرهم**﴾ الديني والدنيوي ﴿**شورى بينهم**﴾ أي: لا يستبد أحدٌ منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلاّ فرعاً عن اجتماعهم وتوالفهم وتواددهم وتحابهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي: فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي: في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿**والذين إذا أصابهم البغي**﴾ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿**هم ينتصرون**﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم، فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

﴿٤٠ ـ ٤٣﴾ ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾ يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿**إنه لا يحب الظالمين**﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه**﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿**فأولئك ما عليهم من سبيل**﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودلّ قوله: ﴿**والذين إذا أصابهم البغي**﴾ وقوله: ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه**﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة

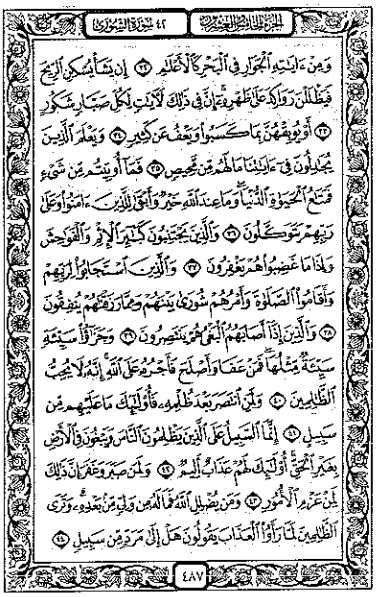

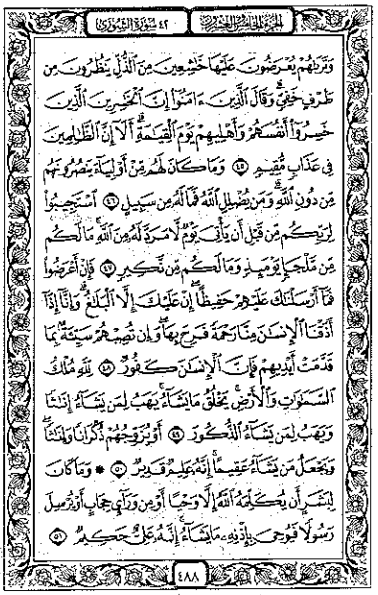
وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن
طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟
لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ مَا لَكُم
مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟
فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ
أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَٰنًا وَإِنَٰثًا ۖ
وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾
١٨٨

ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قولٍ أو فعل صدر منه.

﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أولئك لهم عذابٌ أليم﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿ولمن صبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم، بأن سمح لهم عمّا يصدرُ منهم، ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على مَنْ يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

﴿٤٤ ـ ٤٦﴾ ﴿ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل * وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿من يضلل الله﴾ بسبب ظلمه ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيعاً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، و﴿يقولون هل إلى مردٍ من سبيل﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنّا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيبتها وخوفها.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إن الخاسرين﴾ على الحقيقة ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرّق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿ألا إنَّ الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذابٍ مقيم﴾ أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير * فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإنَّ الإنسان كفور﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا ﴿يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فإن أعرضوا﴾ عمّا جئتهم به بعد البيان التام ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فإذا أديت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فرح بها﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المُنعِم.

﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿٤٩ ـ ٥٠﴾ ﴿لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومه، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق مَنْ يهب له إناثاً، ومنهم مَنْ يهب له ذكوراً، ومنهم مَنْ يزوجه، أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم مَنْ يجعله عقيماً لا يُولد له.

﴿إنه عليم﴾ بكل شيء ﴿قدير﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١ ـ ٥٣﴾ ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ لما قال المكذبون لرسل الله، الكافرون بالله: ﴿لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

إما ﴿أن يكلمه الله وحياً﴾ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً.

﴿أو﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿من وراء حجاب﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كليم الرحمن.

﴿أو﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، فـ ﴿يرسل رسولاً﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فيوحي بإذنه﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إنه﴾ تعالى علي الذات، علي الأوصاف، عظيمها، علي الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وكذلك﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿ما كنت تدري﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جعلناه نوراً نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسَّر الصراط المستقيم فقال:

﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلاً بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. تم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف
مكية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ هذا المقسم عليه، أنه جُعِل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لعلكم تعقلون﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وإنه﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لدينا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لعليٌّ حكيم﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أفنضرب عنكم الذِّكر صفحاً﴾ أي: أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بيّنة من أمركم.

﴿٦ ـ ٨﴾ ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا

كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، فكم **﴿أرسلنا من نبيٍّ في الأولين﴾** يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

﴿وما يأتيهم من نبي إلاّ كانوا به يستهزؤون﴾ جحداً لما جاء به، وتكبراً على الحق.

﴿فأهلكنا أشد﴾ من هؤلاء **﴿بطشاً﴾** أي: قوة وأفعالاً وآثاراً في الأرض، **﴿ومضى مثل الأولين﴾** أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبينا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

﴿٩ ـ ١٤﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدرٍ فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو **﴿سألتهم مَنْ خلق السماوات والأرض ليقولنَّ﴾** الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به مَنْ لا يخلق ولا يرزق، ولا يُميت ولا يُحيي؟!

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار. **﴿لعلكم تهتدون﴾** في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: **﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾** أي: أحييناها بعد موتها، **﴿كذلك تخرجون﴾** أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي: الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك. **﴿وجعل لكم من الفُلك﴾** أي: السفن البحرية، الشراعية والنارية، ما تركبون **﴿و﴾** من **﴿الأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره﴾** وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، **﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾** بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: **﴿وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾** أي: لولا تسخيره لنا ما سخّر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذللها ويسر أسبابها.

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد.

﴿١٥ ـ ٢٥﴾ ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين * أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * أَوَمن يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون * وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهم **بالبنين**، ويفضلهم بها؟! فإذاً يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك **﴿إذا بُشِّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً﴾** من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في

وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي: يجمل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وهو في الخصام﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غير مبين﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عمّا احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبونهن لله تعالى؟

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناثاً، فتجرؤوا على الملائكة، العباد المقربين، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثية، فسبحان مَنْ أظهر تناقض مَنْ كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ أي: يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.

ثم قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران، فلا ثَمَّ إلاّ الباطل.

نعم، لهم شبهة من أوهى الشُّبه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي: على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها﴾ أي: منعموها، وملؤها الذين أطغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق. ﴿إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول مَنْ قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فانتقمنا منهم﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة. ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿٢٦ ـ ٣٢﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون * بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون * وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾

يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقه، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم:

﴿إنني براء مما تعبدون﴾ أي: مبغضٌ له، مجتنبٌ معادٍ لأهله، ﴿إلاّ الذي فطرني﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي، فـ ﴿سيهدين﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿وجعلها﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبرّي من عبادة ما سواه.

﴿كلمة باقية في عقبه﴾ أي: ذريته ﴿لعلهم﴾ إليها ﴿يرجعون﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه ـ كإسحاق ويعقوب ـ لبعض، كما قال تعالى: ﴿ومَنْ يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ مَنْ سفه نفسه﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

فقال تعالى: ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿ورسول مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على مَنْ له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلاَّ أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي: معظَّم عندهم، مبجَّل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله رداً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة مَنْ يشاؤون، ويمنعونها ممن يشاؤون؟

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿و﴾ الحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا.

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على مَنْ يشاء، ويضيقه على مَنْ يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينها ودنيويها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزرهم علماً، وأجلهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون مَنْ لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهى حمقه، أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كلٌّ على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلاَّ منْ فعل السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحِرَف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خيرٌ من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾.

﴿٣٣ ـ ٣٥﴾ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تساوي عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره

واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!!

﴿٣٦ ـ ٣٩﴾ ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين * ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة، لمن أعرض عن ذكره، فقال: **﴿ومَنْ يعشُ﴾** أي: يعرض ويصد **﴿عن ذكر الرحمن﴾** الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمَنْ قبلها، فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومَنْ أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبداً، وقيَّض له الرحمن شيطاناً مريداً، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزاً، **﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾** أي: الصراط المستقيم، والدين القويم. **﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾** بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المُعْرِض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرّي من قرينه، ولهذا قال تعالى **﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾**.

كما في قوله تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾.

وقوله تعالى: **﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾** أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضاً، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

﴿٤٠ ـ ٤٥﴾ ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين * فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون * واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: **﴿أفأنت تُسمعُ الصُّمَّ﴾** أي: الذين لا يسمعون **﴿أو تهدي العُمْيَ﴾** الذين لا يبصرون، أو تهدي **﴿مَنْ كان في ضلال مبين﴾** أي: بيِّن واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضلالاً مبيناً لا يهتدي، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم، بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى، فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: **﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون﴾** أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أنَّا منهم منتقمون.

﴿أو نرينك الذي وعدناهم﴾ من العذاب **﴿فإنَّا عليهم مقتدرون﴾** ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

وأما أنت **﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾** فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك. **﴿إنك على صراط مستقيم﴾** موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بانياً على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام، والظلم والجور.

﴿وإنه﴾ أي: هذا القرآن الكريم **﴿لذِكْرٌ لك ولقومك﴾** أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم

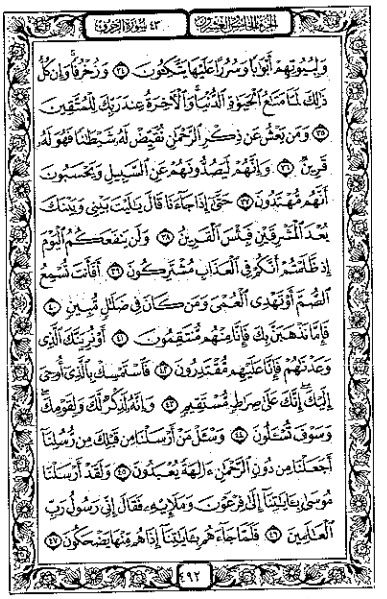

عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه، ﴿وسوف تسألون﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة؟

﴿واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله، وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. فدل هذا، أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦ ـ ٥٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ إلى آخر القصة[1] لما قال تعالى:

﴿واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ بيَّن تعالى حال موسى ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات.

﴿إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه، ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزؤوا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى الإسلام، ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

﴿وقالوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يا أيها الساحر﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به مَنْ يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يا أيها الساحر ادعُ لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي: بما خصك الله به، وفضّلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنّا العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ إن كشف الله عنا ذلك، ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾.

﴿ونادى فرعون في قومه قال﴾ مستعلياً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يا قوم أليس لي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي: ألست المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين. ﴿أفلا تبصرون﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ﴾ يعني ـ قبحه الله ـ بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجيه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المُهان المحتقر، فأينا خير؟ ﴿و﴾ مع هذا فلا ﴿يكاد يُبِينُ﴾ عمّا في ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقيلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فلولا ألقي عليه أسورةٌ من ذهب﴾ أي: فهلا كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً مجملاً بالحلي والأساور؟ ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي: دليل يدل على أن فرعون محق، لكون مُلْك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى، لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملأ لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل. ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فبسبب فسقهم، قيض لهم

(١) وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخرها.

فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

﴿فلما آسفونا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿٥٧ ـ ٦٥﴾ ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾

يقول تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ أي: نُبِّي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إذا قومك﴾ المكذبون لك ﴿منه﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يصدون﴾ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.

﴿وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو﴾ يعني: عيسى، حيث نهى عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على مَنْ عبدهم، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾.

ووجه حجتهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فَلِمَ سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض.

ولِمَ قُلْتَ: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. وهذا لفظٌ بزعمهم، يعم الأصنام، وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها، هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة [الذي][1] فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي ـ ولله الحمد ـ من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا مَنْ سواهم من الخلق، فأي: شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟

وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقرباً عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

﴿وإنه لعلمٌ للساعة﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام، لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فلا تمترنَّ بها﴾ أي: لا تشكنَّ في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر. ﴿واتبعون﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله عز وجل، ﴿ولا يصدنكم الشيطان﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿لكم عدوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به،

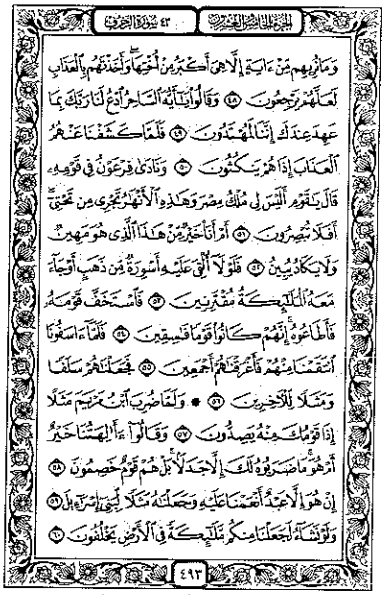

(١) في النسختين (الذي) ولعل الصواب (التي).

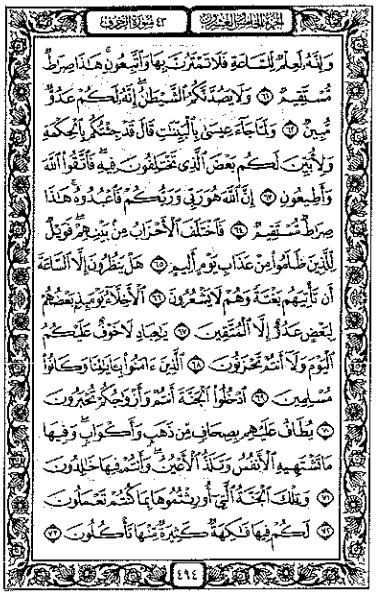
وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾
٤٤٤

من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات.

﴿قال﴾ لبني إسرائيل: ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملاً ومتمماً لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعون.

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: «إنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة»، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿اختلف الأحزاب﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿من بينهم﴾ كلٌّ قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا مَنْ هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

﴿٦٦ ـ ٧٣﴾ ﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون﴾ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال مَنْ كذّب بها، واستهزأ بمن جاء بها، وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالّين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، ﴿بعضهم لبعض عدو﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة. ﴿إلا المتقين﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام مَنْ كانت المحبة لأجله، ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يا عباد لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها.

﴿وكانوا مسلمين﴾ لله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادخلوا الجنة﴾ التي هي دار القرار ﴿أنتم وأزواجكم﴾ أي: مَنْ كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. ﴿تحبرون﴾ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبِّر الألسن عن وصفه.

﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ أي: تدور عليهم خدامهم، من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وفيها﴾ أي: الجنة ﴿ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعَم مونقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وتلك الجنة﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿التي أورثتموها بمَا كنتم تعملون﴾ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

[﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ كما في الآية الأخرى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾. ﴿منها تأكلون﴾ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية،

والثمار اللذيذة تأكلون][1].

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤ ـ ٧٨﴾ **﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين * ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾**.

﴿إن المجرمين﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿في عذاب جهنم﴾ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خالدون﴾ فيه، لا يخرجون منه أبداً، و ﴿لا يفتر عنهم﴾ العذاب ساعة، بإزالته، ولا بتهوين عذابه، ﴿وهم فيه مبلسون﴾ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿ونادوا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، ﴿يا مالك ليقض علينا ربك﴾ أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غمٍّ شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جَلَد. فـ ﴿قال﴾ لهم مالك خازن النار ـ حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم ـ: ﴿إنكم ماكثون﴾ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفزتم وسعدتم، ﴿ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿٧٩ ـ ٨٠﴾ **﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾** يقول تعالى: أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أمراً﴾ أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فإنا مبرمون﴾ أي: محكمون أمراً، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما قيّضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾.

﴿أم يحسبون﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أنا لا نسمع سرَّهم﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿ونجواهم﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بلى﴾ أي: إنّا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿ورسلنا﴾ الملائكة الكرام، ﴿لديهم يكتبون﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٨١ ـ ٨٣﴾ **﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون * فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾** أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند مَنْ عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أوّل الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر فهم أوّل الناس تركاً له وإنكاراً له وبُعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أوّل مَنْ عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أوّل العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أوّل مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. **﴿سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عمّا يصفون﴾** من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك، مما نسبه إليه المشركون. **﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾** أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: **﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾** فسيعلمون فيه ماذا حصّلوا، وما حَصَلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿٨٤ ـ ٨٩﴾ **﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم * وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون * ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون * وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾** يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومَنْ فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿ولله يسجد مَنْ في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبته فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفرد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحداً من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل مَنْ دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا مَنْ شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيله يا ربِّ إنَّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقُلْ سَلامٌ﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقَابِلُ به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل.

فصلوات الله وسلامه على مَنْ خصه الله بالخلق العظيم، الذي فَضَلَ به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غِبَّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان مكيـــة

﴿١ ــ ١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلمٌ مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾

هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الأخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين * فيها﴾ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،

الذي يكون في ليلة القدر، أحد[1] الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكّل به كراماً كاتبين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه، وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتنائه تعالى بخلقه ﴿أمراً من عندنا﴾ أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا، ﴿إنا كنا مرسلين﴾ للرسل، ومنزلين للكتب، والرسل تبلغ أوامر المرسل، وتخبر بأقداره، ﴿رحمة من ربك﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنَّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يحيي ويميت﴾ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي: رب الأولين والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿في شك يلعبون﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر، ﴿فارتقب﴾ أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وآن أوانه، ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هذا عذاب أليم﴾

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون - على هذا - قوله: ﴿يوم تأتي السماء بدخان﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم وتوعُّدٌ لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوقع، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشراط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾ أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى

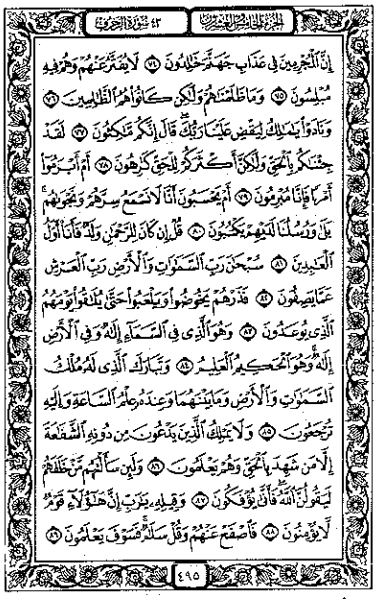

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).

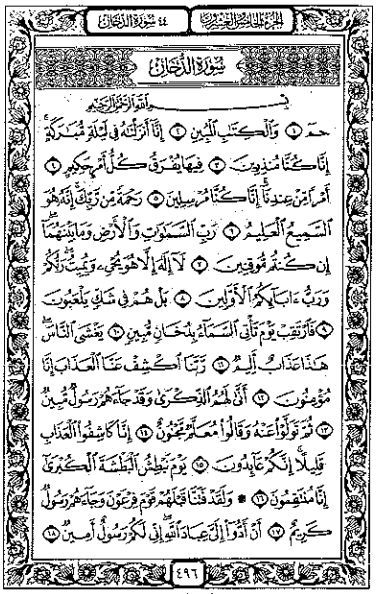
سورة الدخان
بسم الله الرحمن الرحيم
حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ
⑨ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا
مُؤْمِنُونَ ⑫ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ
⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ
قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ
إِنَّا مُنتَقِمُونَ ⑯ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ
كَرِيمٌ ⑰ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ⑱
٤٩٦

إنا منتقمون﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك.

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

﴿١٧ ـ ٣٣﴾ ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة[1] لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ، ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم، ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: **﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾** أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم، الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره، **﴿أن أدوا إليَّ عباد الله﴾** أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إليَّ عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي، وأفضل العالمين في زمانهم.

وأنتم قد ظلمتموهم، واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، **﴿إني لكم رسول أمين﴾** أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، **﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾** أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة القاهرات، فكذبوه وهموا بقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: **﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون﴾** أي: تقتلوني أشر القتلات، بالرجم بالحجارة.

﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا عليَّ ولا لي، فاكفوني شركم، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين لنبيه موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل، **﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾** أي: قد أجرموا جرماً، يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال، التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، **﴿واترك البحر رهواً﴾** أي: بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهواً، أي: بحاله، ليسلكه فرعون وجنوده **﴿إنهم جند مغرقون﴾** فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: **﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها﴾** أي: هذه النعمة المذكورة **﴿قوماً آخرين﴾** وفي الآية الأخرى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾.

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم، لم تبك عليهم السماء والأرض، أي: لم يُحزن عليهم، ولم يُؤسَ على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين.

﴿وما كانوا منظرين﴾ أي: مهلين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.

ثم امتنَّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: **﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾** الذي كانوا فيه **﴿من فرعون﴾** إذ يذبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

﴿إنَّه كان عالياً﴾ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق، **﴿من المسرفين﴾** المتجاوزين لحدود الله، المتجرئين على محارمه.

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم **﴿على علم﴾** منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل **﴿على العالمين﴾** أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ، فَفَضَلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتنَّ عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

﴿وآتيناهم﴾ أي: بني إسرائيل **﴿من الآيات﴾** الباهرة، والمعجزات الظاهرة، **﴿ما فيه بلاء مبين﴾** أي:

(١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة.

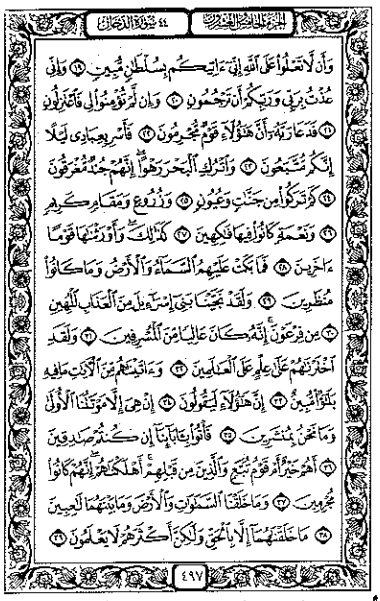

إحسان كثير، ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم، على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام.

﴿٣٤ ـ ٣٧﴾ ﴿إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين * فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾ يخبر تعالى ﴿إن هؤلاء﴾ المكذبين يقولون مستبعدين للبعث والنشور: ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار، ثم قالوا ـ متجرئين على ربهم، معجزين له ـ: ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأي: ملازمة بين صدق الرسول ﷺ، وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به، وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه.

قال تعالى: ﴿أهم خير﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أم قوم تُبَّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾ فإنهم ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجرام، فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿٣٨ ـ ٤٢﴾ ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون * إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون * إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ يخبر تعالى، عن كمال قدرته، وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً أو سدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

﴿إن يوم الفصل﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين ﴿ميقاتهم﴾ أي: الخلائق ﴿أجمعين﴾

كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي: يمنعون من عذاب الله عز وجل، لأن أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً.

﴿إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى، التي تسبب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالى:

﴿٤٣ ـ ٥٠﴾ ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم: الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، وأن طعامهم ﴿شجرة الزقوم﴾ شر الأشجار وأفظعها، وأن طعامها ﴿كالمهل﴾ أي: كالصديد المنتن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة، يغلي في بطونهم ﴿كغلي الحميم﴾ ويقال للمعذب: ﴿ذق﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم، ﴿إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي: بزعمك أنك عزيز، ستمتنع من عذاب الله، وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فاليوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس، ﴿إن هذا﴾ العذاب العظيم ﴿ما كنتم به تمترون﴾ أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿٥١ ـ ٥٩﴾ ﴿إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس واستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم * فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون﴾ هذا جزاء المتقين لله الذين اتقوا سخطه وعذابه، بتركهم المعاصي، وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله، والثواب العظيم، في ظلال ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه، وعيون سارحة، تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم.

فأضاف الجنات إلى النعيم، لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه.

ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشتهيه أنفسهم، ﴿متقابلين﴾ في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة، والطمأنينة، والمحبة، والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة.

﴿كذلك﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ أي: نساء جميلات، من جمالهن وحسنهن أنه

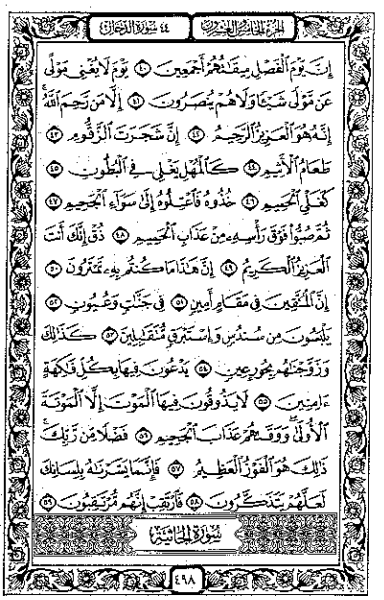
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾
كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ
ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ
ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾
سُورَةُ الْجَاثِيَةِ
٤٩٨

يحار الطرف في حسنهن، وينبهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن، ﴿عين﴾ أي: ضخام الأعين حسانها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة ﴿بكل فاكهة﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿آمنين﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك﴾ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسر به لفظه، وتيسر معناه.

﴿لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان،
ولله الحمد والمنة

تفسير سورة الجاثية
مكيـــة

﴿١ ـ ١١﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم**﴾ يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ ﴿من الله﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تزك قلبه، ولا طهّرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿**ويل لكل أفاك أثيم**﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعاله.

وأخبر أنّ له عذاباً أليماً، وأن ﴿**من ورائهم جهنم**﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه ﴿**لا يغني عنهم ما كسبوا**﴾ من الأموال ﴿**ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء**﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

فلما بيّن آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أنّ القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿**هذا هدى**﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿**والذين كفروا**

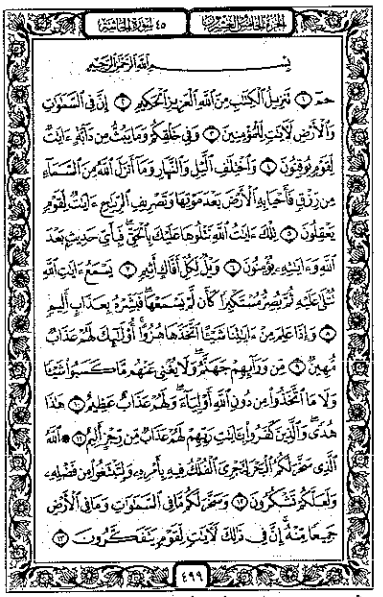

﴿بآيات ربهم﴾ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، **﴿لهم عذاب من رجز أليم﴾**

﴿١٢ ـ ١٣﴾ ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى بفضله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، **﴿لتبتغوا من فضله﴾** بأنواع التجارات والمكاسب، **﴿ولعلكم تشكرون﴾** الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معدٌّ لصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: **﴿إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** وجملة ذلك أنَّ خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دالٌّ على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلقة، دالٌّ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعَّال لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاؤوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يَحِلُّ بكم[1] ما حلَّ بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾**.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ثم قال تعالى: **﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم **﴿الكتاب﴾** أي: التوراة والإنجيل، و **﴿الحكم﴾** بين الناس، و **﴿النبوة﴾** التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، **﴿ورزقناهم من الطيبات﴾** من المآكل والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، **﴿وفضلناهم على العالمين﴾** أي: على الخلق بهذه النِّعَم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، وميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعوت، قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

﴿وآتيناهم﴾ أي: آتينا بني إسرائيل **﴿بينات﴾** أي: دلالات تبين الحق من الباطل **﴿من الأمر﴾** القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: **﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾** أي: الموجب لعدم

(١) في أ: هذه الجملة غير واضحة وفيها شطب وتصويبه من: ب.

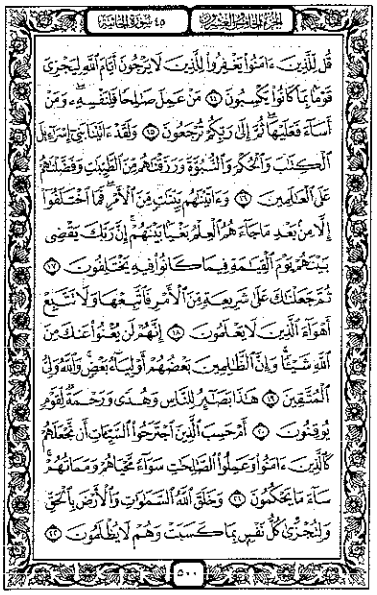

الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فاتبعها﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي: لا ينفعونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿والله ولي المتقين﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿٢٠﴾ ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي: ﴿هذا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر للناس﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لقوم يوقنون﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ أي: أم حسب المسيؤون، المكثرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣ ـ ٢٦﴾ ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون * وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله أو يسخطه. ﴿وأضله الله على علم﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها. ﴿وختم على سمعه﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبه﴾ فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أفلا تذكرون﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وقالوا﴾ أي: منكرو البعث ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجزيٌ على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، وما مات فليس براجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إن هم إلا يظنون﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستبعادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿**قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتهيؤوا له.

﴿٢٧ ـ ٣٧﴾ ﴿**ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون * وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون * فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿**يوم تقوم الساعة**﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب.

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العِباد، ويستعد له العُبّاد، فقال: ﴿**وترى**﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿**كل أمة جاثية**﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿**كل أمة تدعى إلى كتابها**﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿**كل أمة تدعى إلى كتابها**﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿**إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات، ﴿**فيدخلهم ربهم في رحمته**﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿**ذلك هو الفوز المبين**﴾ أي: المفاز والنجاة والربح، والفلاح الواضح البيّن، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

﴿**وأما الذين كفروا**﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿**أفلم تكن آياتي تتلى عليكم**﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿**وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم**﴾ منكرين لذلك: ﴿**ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين**﴾.

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردّ قول من جاء به. قال تعالى: ﴿**وبدا لهم سيئات ما عملوا**﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿**وحاق بهم**﴾ أي: نزل ﴿**ما كانوا به يستهزؤون**﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به. ﴿**وقيل اليوم ننساكم**﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿**كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿**ومأواكم النار**﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿**وما لكم من ناصرين**﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿**ذلكم**﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنكم اتخذتم آيات الله هزواً**﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿**وغرتكم الحياة الدنيا**﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأننتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿**فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون**﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿**فلله الحمد**﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿**رب السماوات ورب الأرض رب العالمين**﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿**وله الكبرياء في السماوات والأرض**﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحبته تعالى وإكرامه،

والكبرياء فيها عظمته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله، والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد والنعمة والفضل

تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾ وكما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون * خلق السماوات والأرض بالحق﴾ فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار، سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: **﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾** أي: لا عبثاً ولا سدىً، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى **﴿أجل مسمى﴾**.

فلما أخبر بذلك ـ وهو أصدق القائلين وأقام الدليل، وأنار السبيل أخبر ـ مع ذلك ـ أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: **﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾** وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿٤ ـ ٦﴾ ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي: **﴿قل﴾** لهؤلاء الذين أشركوا بالله، أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم ـ مبيناً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة ـ: **﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾**. هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل أنبتوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي، فقال: **﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾** الكتاب يدعو إلى الشرك، **﴿أو أثارة من علم﴾** موروث عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول قال لقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة.

يدلُّك على فسادها استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾** أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمثقال ذرة، **﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾** لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم. **﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾** يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض **﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾**.

﴿٧ ـ ١٠﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين * أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم * قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

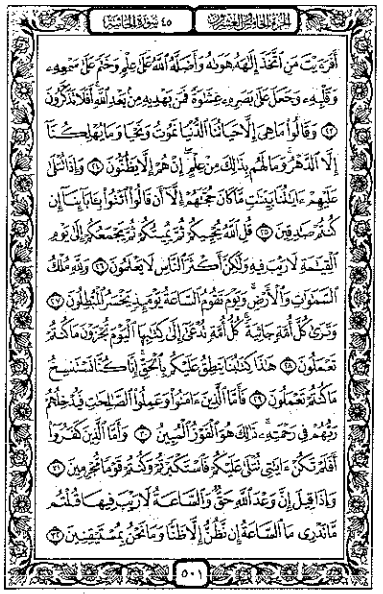

يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: وإذا تتلى على المكذبين ﴿**آياتنا بينات**﴾ بحيث تكون على وجه لا يمترى بها، ولا يشك في وقوعها وحقها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافترائهم ﴿**للحق لما جاءهم هذا سحر مبين**﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهرجة؟

﴿**أم يقولون افتراه**﴾ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

﴿**قل**﴾ لهم: ﴿**إن افتريته**﴾ فالله عليَّ قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟

فهلَّ ﴿**تملكون لي من الله شيئاً**﴾ إن أرادني الله بضر، أو أرادني برحمة ﴿**كفى به شهيداً بيني وبينكم**﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويثيبكم جزيل الأجر.

﴿**قل ما كنت بدعاً من الرسل**﴾ أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلأي: شيء تنكر رسالتي؟ ﴿**وما أدري ما يفعل بي ولا بكم**﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم عليَّ وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿**وما أنا إلا نذير مبين**﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتم دعوتي، فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليَّ فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم**﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿**١١ - ١٢**﴾ ﴿**وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم * ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين**﴾ أي: قال الكفار بالحق معاندين له، ورادِّين لدعوته: ﴿**لو كان خيراً ما سبقونا إليه**﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكنا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهرجة في مكان، فأيُّ دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أزكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعَزُّون به أنفسهم بمنزلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿**وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم**﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿**إماماً ورحمة**﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿**وهذا**﴾ القرآن ﴿**كتاب مصدق**﴾ للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدَّقها، بموافقته لها، وجعله الله ﴿**لساناً عربياً**﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكُّره، ﴿**لينذر الذين ظلموا**﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل، ويبشر المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي يبشر بها.

﴿**١٣ - ١٤**﴾ ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون**﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته

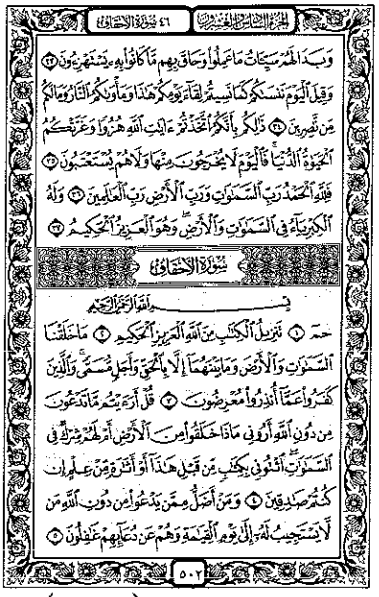

وداموا على ذلك، و ﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ من كل شر أمامهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلّفوا وراءهم، ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، ﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبَّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع ـ وهي سنتان ـ إذا سقطت منها السنتان، بقي ستة أشهر، مدة للحمل، ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها ومواليها، ومقابلته مِنَّتَهُ، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نِعَم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويثيب عليه. ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وأصلح لي﴾.

﴿إني تبت إليك﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وإني من المسلمين﴾.

﴿أولئك﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً غيرها. ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ في جملة ﴿أصحاب الجنة﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادقٌ من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ ـ ١٩﴾ ﴿والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين * أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾ إذ دعواه[1] إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أف لكما﴾ أي: تباً لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وهما﴾ أي: والداه ﴿يستغيثان الله﴾ عليه، ويقولان له: ﴿ويلك آمن﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما ـ من حرصهما عليه ـ أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إن وعد الله حق﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد

(١) في النسختين: دعياه.

إلا عتواً ونفوراً، واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، ﴿**فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين**﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أُمِّيٌّ لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلَّمه؟ وأنَّى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

﴿**أولئك الذين**﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿**حقَّ عليهم القول**﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿**في**﴾ جملة ﴿**أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس**﴾ على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم.

﴿**إنهم كانوا خاسرين**﴾ والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم ﴿**ولكل**﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿**درجات مما عملوا**﴾ أي: كلٌّ على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿**وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**﴾ بأن لا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٢٠﴾ ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون**﴾

يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿**أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا**﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من آخرتكم، ﴿**فاليوم تجزون عذاب الهون**﴾ أي: العذاب العظيم، وهي الريح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿**فلما رأوه**﴾ أي: العذاب ﴿**عارضاً مستقبل أوديتهم**﴾ أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل، فتسقي نوابتهم، ويشربون من آبارها وغُدرانها.

﴿**قالوا**﴾ مستبشرين: ﴿**هذا عارض ممطرنا**﴾ أي: هذا السحاب سيمطرنا.

قال تعالى: ﴿**بل هو ما استعجلتم به**﴾ أي: هذا الذي جئتم به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿**فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾. ﴿**ريح فيها عذاب أليم**﴾ ﴿**تدمر كل شيء**﴾ تمر عليه من شدتها ونحسها.

فسلطها الله عليهم ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [﴿**بأمر ربها**﴾ أي: بإذنه ومشيئته]. ﴿**فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم**﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿**كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هذا مع أن الله تعالى قد أدرَّ عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿**ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه**﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

﴿٢١ ـ ٢٦﴾ ﴿**واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف**﴾ إلى آخر القصة[1] أي: ﴿**واذكر**﴾ بالثناء الجميل ﴿**أخا عاد**﴾ وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه.

﴿**إذ أنذر قومه**﴾ وهم عاد ﴿**بالأحقاف**﴾ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن.

﴿**وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه**﴾ فلم يكن بدعاً منهم ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿**ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾

فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوَّفهم ـ إن لم يطيعوه ـ العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة. ﴿**قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا**﴾ أي: ليس لك من القصد، ولا معك من الحق، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها.

﴿**فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾ وهذا غاية الجهل والعناد. ﴿**قال إنما العلم عند الله**﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء. ﴿**وأبلغكم ما أرسلت به**﴾ أي: ليس عليَّ إلا البلاغ المبين، ﴿**ولكني أراكم قوماً تجهلون**﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿ورحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

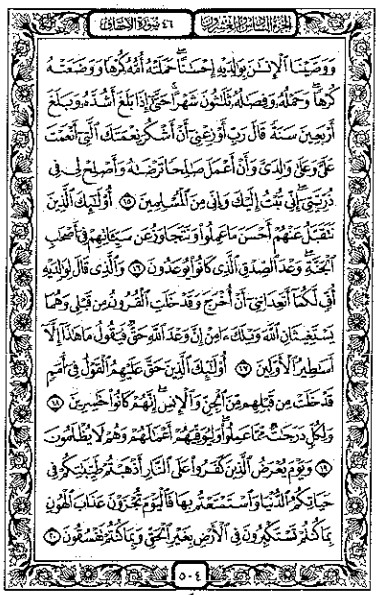
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾
٥٠٤

وعمرناهم عمراً، يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله. **﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾** لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم **﴿يجحدون بآيات الله﴾** الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة.

﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزؤون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرَّف لهم الآيات، أي: نوَّعها من كل وجه، **﴿لعلهم يرجعون﴾** عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: **﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾** أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بل ضلوا عنهم﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، **﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾** من الكذب، الذي يمنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت.

﴿٢٩ ـ ٣٢﴾ ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه **﴿نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾** أي: وصَّى بعضهم بعضاً بذلك، **﴿فلما قضي﴾** وقد وعوه، وأثَّر ذلك فيهم **﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾** نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه **﴿إلى الحق﴾** وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، **﴿وإلى طريق مستقيم﴾** موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: **﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾** أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم، ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: **﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾** وإذا أجارهم من العذاب الأليم، فما ثَمَّ بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. **﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾** وأيُّ ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر؟!!

﴿٣٣﴾ ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكترث بذلك، ولم يَعْيَ بخلقهن فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير؟!!

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * فاصبر كما صبر أولو العزم

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: **﴿أليس هذا بالحق﴾** فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ **﴿قالوا بلى وربنا﴾** فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم **﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: **﴿ولا تستعجل لهم﴾** أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يَسْتَخِفُّنَّك بجهلهم، ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و **﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا﴾** في الدنيا **﴿إلا ساعة من نهار﴾** فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل.

﴿بلاغ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.

أوهذا القرآن العظيم، الذي بَيَّنَّا لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق، وأجلّ نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿فهل يهلك﴾ بالعقوبات **﴿إلا القوم الفاسقون﴾** أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ هذه الآيات مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾** وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.

فهؤلاء **﴿أضل﴾** اللهَ **﴿أعمالهم﴾** أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان، والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

وأما **﴿والذين آمنوا﴾** بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، **﴿وعملوا الصالحات﴾** بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

﴿كفّر﴾ الله **﴿عنهم سيئاتهم﴾** صغارها وكبارها، وإذا كُفّرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة. **﴿وأصلح بالهم﴾** أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: **﴿اتبعوا الحق﴾** الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر **﴿من ربهم﴾** الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ حيث بيَّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة﴾**.

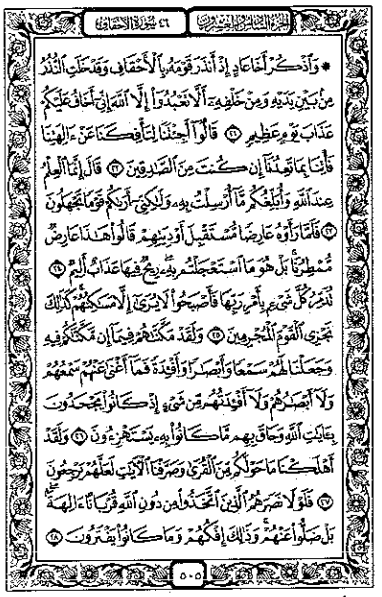

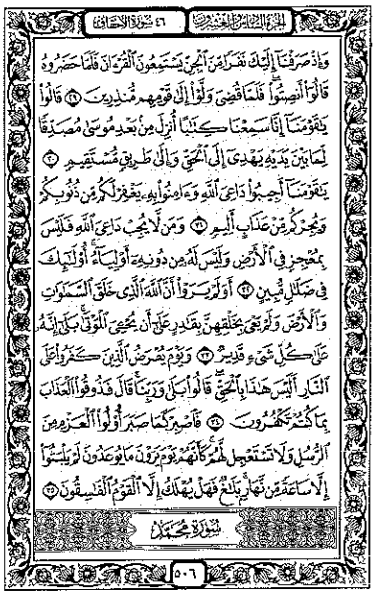

﴿٤ ـ ٦﴾ **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعضٍ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يُضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرّفها لهم﴾** يقول تعالى ـ مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم ـ: **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾** في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حتى تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرتهم، فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولى وأصلح، **﴿فشدوا الوثاق﴾** أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شدّ منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المنّ عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر **﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾** أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا كان قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض **﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾** فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة.

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، **﴿ويصلح بالهم﴾** أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوّقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيله، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغّبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿٧ ـ ٩﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾** هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبّت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وأضلّ أعمالهم﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم **﴿كرهوا ما أنزل الله﴾** من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، **﴿فأحبط أعمالهم﴾**

﴿١٠ ـ ١١﴾ **﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها * ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم﴾** أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، **﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا، ودمّر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾

فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم، ﴿**وأن الكافرين**﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿**لا مولى لهم**﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿١٢﴾ ﴿**إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم**﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناظرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم، ذكر أنهم وُكِلُوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل، بل جُلُّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوى لهم، أي: منزلاً معداً، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها.

﴿١٣﴾ ﴿**وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم**﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين، هي أشد قوة من قريتك، في الأموال والأولاد والأعوان، والأبنية والآلات.

﴿**أهلكناهم**﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ، فلم نجد لهم[1] ناصراً، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً.

فكيف حال هؤلاء الضعفاء، أهل قريتك، إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين؟!

أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأني بكل كافر وجاحد؟

﴿١٤﴾ ﴿**أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم**﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه، علماً وعملاً، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك، يرى أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغيّ![2]

﴿١٥﴾ ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة.

﴿**فيها أنهار من ماء غير آسن**﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحاً، وألذها شرباً.

﴿**وأنهار من لبن لم يتغير طعمه**﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿**وأنهار من خمر لذة للشاربين**﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل.

﴿**وأنهار من عسل مصفى**﴾ من شمعه وسائر أوساخه.

﴿**ولهم فيها من كل الثمرات**﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

ثم قال: ﴿**ومغفرة من ربهم**﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فأي: هؤلاء خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها، ﴿**وسقوا**﴾ فيها ﴿**ماء حميماً**﴾ أي: حاراً جداً، ﴿**فقطع أمعاءهم**﴾.

فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿**ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم * والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم**﴾ يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿**من يستمع إليك**﴾ ما تقول استماعاً، لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿**حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم**﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿**ماذا قال آنفاً**﴾ أي: قريباً، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه

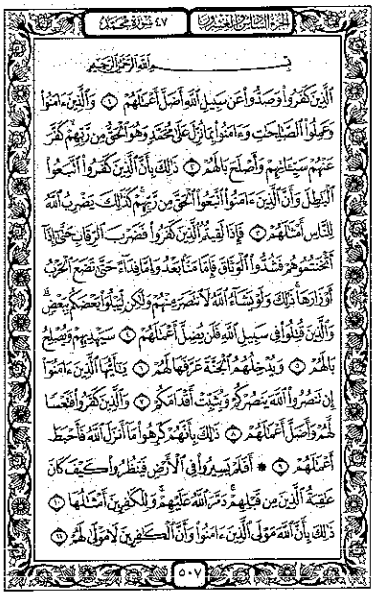

(١) في ب فلا تجد لهم ناصراً.

(٢) زيادة من هامش ب بخط المؤلف ـ رحمه الله ـ.

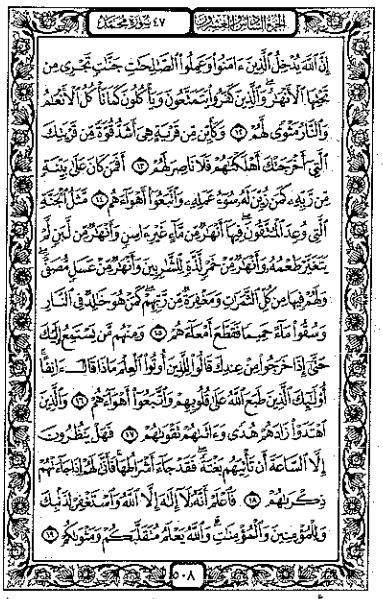
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ
وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ
الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ
الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ
يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى
وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ
وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ
اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ
ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾
٥٠٨

أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿**أولئك الذين طبع الله على قلوبهم**﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿**والذين اهتدوا**﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿**زادهم هدى**﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك، ﴿**وآتاهم تقواهم**﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿**فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿**إلا الساعة أن تأتيهم بغتة**﴾ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿**فقد جاء أشراطها**﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿**فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم**﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم**﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به ـ وهو العلم بتوحيد الله ـ فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كلٌّ مضطرٌ إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته[1]، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولاً، ورأياً وصواباً، وعلماً ـ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون ـ قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد ـ على تكرر الباطل والشبه ـ إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير ـ وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته ـ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿**واستغفر لذنبك**﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿**و**﴾ استغفر أيضاً ﴿**للمؤمنين والمؤمنات**﴾ فإنهم ـ بسبب إيمانهم ـ كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما

(١) في ب: وجلاله.

يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم، ﴿ومثواكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يَعْلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠ ـ ٢٣﴾ ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾

يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ من كراهتهم لذلك، وشدته عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم نذبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم * طاعة وقول معروف﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هَمَّ به ووطن نفسه[1] عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حريٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثَمَّ الخير والرشد والفلاح، وإما إعراضٌ عن ذلك، وتولٍّ عن طاعة الله، فما ثَمَّ إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لعنهم الله﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات.

﴿٢٤﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي: فهلا يتدبر هؤلاء المُعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدَلَّهم على كل خير، ولحَذَّرهُم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي: شيء تحذر، ولعرَّفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل.

﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

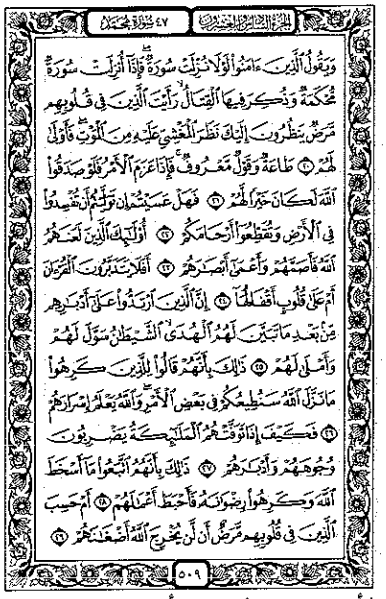

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ ـ رحمه الله ـ وعدّلها إلى: وطن نفسه.

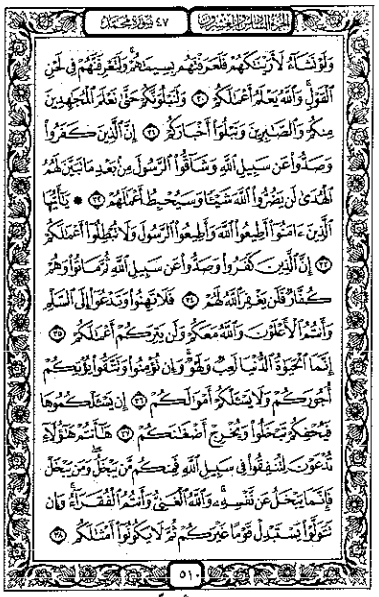
وَلَوْنَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ
ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ
مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ
﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا
فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن
تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُمْ ﴿٣٨﴾
٥١٠

فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾.

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و **﴿قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾** من المبارزين العداوة لله ولرسوله **﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾** أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿والله يعلم إسرارهم﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فكيف﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة **﴿إذا توفتهم الملائكة﴾** الموكلون بقبض أرواحهم، **﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾** بالمقامع الشديدة؟!

﴿ذلك﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه **﴿بـ﴾** سبب **﴿أنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾** من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وكرهوا رضوانه﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه، **﴿فأحبط أعمالهم﴾** أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

﴿٢٩ ـ ٣١﴾ ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو شاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ يقول تعالى: **﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾** من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن ردته على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: **﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾** أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم.

﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر **﴿والله يعلم أعمالكم﴾** فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال: **﴿ولنبلونكم﴾** أي: نختبر إيمانكم وصبركم، **﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾** فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿٣٢﴾ ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم **﴿لن يضروا الله شيئاً﴾** فلا ينقص به ملكه.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿٣٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة.

وقوله: **﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾** يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من مَنٍّ بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخلة في هذا، ومنهيٌّ عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع

النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفارٌ فلن يغفر الله لهم * فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: **﴿إن الذين كفروا﴾** بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر **﴿وصدوا﴾** الخلق **﴿عن سبيل الله﴾** بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وتزيينه، **﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾** لم يتوبوا منه، **﴿فلن يغفر الله لهم﴾** لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: **﴿فلا تهنوا﴾** أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام، وإغضاباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة، **﴿و﴾** الحال أنكم **﴿أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم﴾** أي: ينقصكم **﴿أعمالكم﴾**.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وعُدداً، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى:

﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿٣٦ ـ ٣٨﴾ ﴿إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعباً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولّت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: **﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾** بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: **﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾** أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم، وبقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: **﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾** أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم **﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾** على هذا الوجه، الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فمنكم من يبخل﴾ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

ثم قال: ﴿**ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه**﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿**الغني وأنتم الفقراء**﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم.

﴿**وإن تتولوا**﴾ عن الإيمان بالله، وامتثال ما يأمركم به ﴿**يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحبُّون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

تم تفسير سورة القتال،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١ ــ ٣﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي: محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجاً، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك[1] الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ وذلك ــ والله أعلم ــ بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمَّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿**ويتم نعمته عليك**﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿**ويهديك صراطاً مستقيماً**﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

﴿**وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾ أي: قوياً لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال:

﴿٤ ــ ٦﴾ ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوءِ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً**﴾.

يخبر تعالى عن مِنَّتِهِ على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطَّنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿**ولله جنود السماوات والأرض**﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم**﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات. ﴿**وكان ذلك**﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿**عند الله فوزاً عظيماً**﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظنّ السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يُعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿**وغضب الله عليهم**﴾ بما اقترفوه من المحادَّة لله ولرسوله، ﴿**ولعنهم**﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿**وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً**﴾.

﴿٧﴾ ﴿**ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ كرر

(١) في ب: به.

الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ ﴿وكان الله عزيزاً﴾ أي: قوياً غالباً، قاهراً لكل شيء، ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي: ﴿إنا أرسلناك﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شاهداً﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿ومبشراً﴾ من أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذراً من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور.

﴿وتعزروه وتوقروه﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم، ﴿وتسبحوه﴾ أي: تسبحوا لله ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أول النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

﴿١٠﴾ ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين بايعوك حقيقة الأمر أنهم ﴿يبايعون الله﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فمن نكث﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له، ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله﴾ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

﴿١١ ـ ١٣﴾ ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفاً يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

فظنوا ﴿أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي: إنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكم، وسببُ ذلك أمران:

أحدها: أنهم كانوا ﴿قوماً بوراً﴾ أي: هلكى، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾.

﴿١٤﴾ ﴿ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكمُ الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ وهو من قام

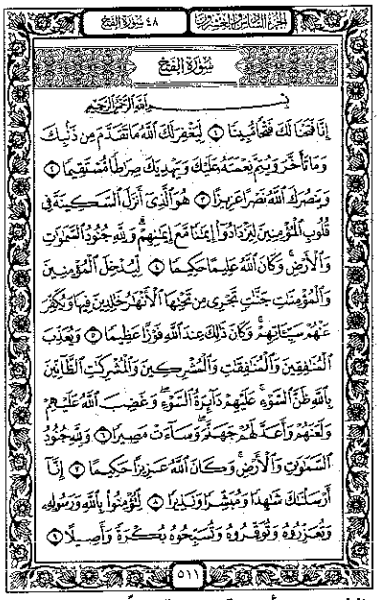
الجزء الثامن والعشرون ٤٨ سورة الفتح
سورة الفتح
بسم الله الرحمن الرحيم
إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢
وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۖ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩
٥١١

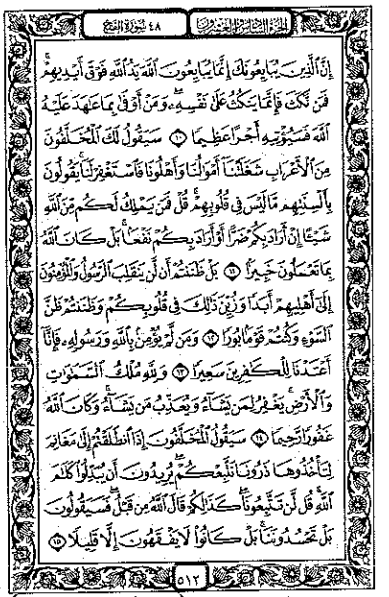
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾
٥١٢

بما أمره الله به ﴿ويعذب من يشاء﴾ ممن تهاون بأمر الله، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل والنهار.

﴿١٥﴾ ﴿**سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً**﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿**ذرونا نتبعكم يُريدون**﴾ بذلك ﴿**أن يبدلوا كلام الله**﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً وقدراً. ﴿**قل**﴾ لهم ﴿**لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل**﴾ إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة.

﴿**فسيقولون**﴾ مجيبين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: ﴿**بل تحسدوننا**﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿**بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً**﴾.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿**قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرجٌ ومن يطع الله ورسوله يدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً**﴾ لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة، قال تعالى ممتحناً لهم: ﴿**قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد**﴾ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم. ﴿**تقاتلونهم أو يسلمون**﴾ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمون، وضعفوا وذلّوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية، ﴿**فإن تطيعوا**﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿**يؤتكم الله أجراً حسناً**﴾ وهو الأجر الذي رتبه الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿**وإن تتولوا كما توليتم من قبل**﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿**يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

ثم ذكر الأعذار التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿**ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج**﴾ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿**ومن يطع الله ورسوله**﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما ﴿**يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ﴿**ومن يتول**﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿**يعذبه عذاباً أليماً**﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿١٨ ـ ٢١﴾ ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكفّ أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا**﴾ يخبر تعالى بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة ـ التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» ـ أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت، معظماً له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف وخمس مئة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجلّ القربات، ﴿**فعلم ما في قلوبهم**﴾ من الإيمان، ﴿**فأنزل**

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

السكينة عليهم شكراً لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم، **﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾** وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصُّوا بخيبر وغنائمها، جزاءاً لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غَنَمها المسلمين إلى يوم القيامة، **﴿فعجَّل لكم هذه﴾** أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوها وحدها، بل ثَمَّ شيء كثير من الغنائم سيتبعها، **﴿و﴾** احمدوا الله إذ **﴿كفَّ أيدي الناس﴾** القادرين على قتالكم، الحريصين عليه **﴿عنكم﴾** فهي نعمة، وتخفيف عنكم.

﴿ولتكون﴾ هذه الغنيمة **﴿آية للمؤمنين﴾** يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعده الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، **﴿ويهديكم﴾** بما يقيض لكم من الأسباب **﴿صراطاً مستقيماً﴾** من العلم والإيمان والعمل.

﴿وأخرى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى **﴿لم تقدروا عليها﴾** وقت هذا الخطاب، **﴿قد أحاط الله بها﴾** أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به، لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: **﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾**.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم **﴿لولوا الأدبار، ثم لا يجدون ولياً﴾** يتولى أمرهم، **﴿ولا نصيراً﴾** ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾**.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً * هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: **﴿وهو الذي كف أيديهم﴾** أي: أهل مكة **﴿عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾** أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهين فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، **﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾** فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضاً صدوا **﴿الهدي معكوفاً﴾** أي: محبوساً **﴿أن يبلغ محله﴾** وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثَمَّ مانع وهو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون أن تطؤوهم أي: خشية أن تطؤوهم **﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾** والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكروه، وفائدة أخروية، وهو: أنه **ليدخل** في رحمته من يشاء فيَمُنُّ عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لو تزيلوا﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم **﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾** بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً﴾ يقول تعالى: **﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾** حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش»، وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت

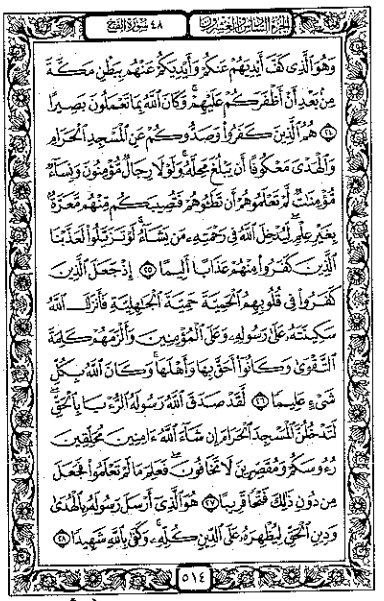
وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ
مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمًا لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ
لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ
مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ
وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا
٥١٤

من كثير من المعاصي، ﴿**فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين.

﴿**وألزمهم كلمة التقوى**﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿**وكانوا أحق بها**﴾ من غيرهم ﴿**و**﴾ كانوا ﴿**أهلها**﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿**وكان الله بكل شيء عليماً**﴾

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً**﴾ يقول تعالى: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به»، قال الله هنا: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق**﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين**﴾ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير، وعدم الخوف، ﴿**فعلم**﴾ من المصلحة والمنافع ﴿**ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك**﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿**فتحاً قريباً**﴾

ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام، فقال: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى**﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿**ودين الحق**﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُزَكٍّ للقلوب، مطهِّر للنفوس، مُربٍّ للأخلاق، مُعْلٍ للأقدار.

﴿**ليظهره**﴾ بما بعثه الله به ﴿**على الدين كله**﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿٢٩﴾ ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿**أشداء على الكفار**﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، ﴿**رحماء بينهم**﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿**تراهم ركعاً سجداً**﴾ أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿**يبتغون**﴾ بتلك العبادة ﴿**فضلاً من الله ورضواناً**﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه.

﴿**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ أي: قد أثرت العبادة ـ من كثرتها وحسنها ـ في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت [بالجلال] ظواهرهم.

﴿**ذلك**﴾ المذكور ﴿**مثلهم في التوراة**﴾ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿**كزرع أخرج شطأه فآزره**﴾ أي: أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء.

﴿**فاستغلظ**﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ ﴿**فاستوى**﴾ ﴿**على سوقه**﴾ جمع ساق، ﴿**يعجب الزراع**﴾ من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنه، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه،

كالزرع الذي أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿**ليغيظ بهم الكفار**﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال.

﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدي النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها، قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مئة، قال: يرحمه الله وهِمَ، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أَمْيَل، وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلط غلطاً بيّناً من قال: كانوا سبع مئة، وعذره[1] أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

فصل

فلما كانوا بذي الحليفة، قلد رسول الله ﷺ الهَدْيَ وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عُسْفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذاً»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهموها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحدٌ من بني كعب يغضب لي، إن أُوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمَّاراً، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان، فانطلق

(١) في ب: وعذرهم.

عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمّاراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وترامُوا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غُدَر، أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها جلده ووجهه.

وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ، كادوا يقتتلون على وَضُوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت.

فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

حفص، وقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينا هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترده، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألست نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ حتى بلغ ﴿بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين**﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح ولله الحمد والمنة

[وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات][1].

المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان منّ به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

(١) زيادة من ب.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ۝٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن
تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ
إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧
فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ وَإِن طَائِفَتَانِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝
٥١٦

تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إنَّ الله سميع عليم * يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، و[أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائناً ما كان[1].

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إن الله سميع﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عليم﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات[2].

وفي ذكر الاسمين الكريمين ـ بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه ـ حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال[3].

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب[4]، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير، ولهذا قال: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

---

(١) في ب: من كان.
(٢) في ب: والجائزات.
(٣) في ب: عن ضده.
(٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقاً.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ أي: ليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكرّه إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب[1]، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له[2].

﴿أولئك﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هم الراشدون﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم.

وضدهم الغاوون، الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما ﴿زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿٩ ـ ١٠﴾ ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل[3] بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فبها ونعمت، وإن ﴿بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، [وقوله] ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي: شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمراً بحقوق الأخوة الإيمانية: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،

---

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.

لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره)[١].

وقال ﷺ[٢]: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة [فقال: ﴿لعلكم ترحمون﴾]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن **الإيمان** والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن **﴿لا يسخر قوم من قوم﴾** بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو[٣] الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلىء من مساوىء الأخلاق، مُتَحَلٍّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾** أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهيٌّ عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾ الآية، وسمى الأخ المؤمن[٤] نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه[٥]، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلة [على] ذمه.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثَمَّ قسم ثالث غيرهما.

﴿١٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ نهى تعالى عن كثير من الظن السوء[٦] بالمؤمنين، فـ ﴿إن بعض الظن إثم﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿ولا تجسسوا﴾ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا[٧] المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله[٨]، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

---

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تناحشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيهما عن النبي ﷺ.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: السيء.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك [فلتكرهوا] غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلاً بما يستحق.

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤ ـ ١٨﴾ ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمانُ في قلوبكم * وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنَّ الله غفورٌ رحيم * إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون * قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم * يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدَّعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإنما آمنتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، مَنَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ بفعل خير، أو ترك شر ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي: لا ينقصكم منها مثقال ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً. ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض * والله بكل شيء عليم﴾ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادَّعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنَّة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمُّل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به[1]، فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن[2] عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم[3] من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾.

﴿**إن الله يعلم غيب السماوات والأرض**﴾ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنَّه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبَّات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

﴿**والله بصير بما تعملون**﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات،

بعون الله ومنه وجوده وكرمه،

فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأعمه[4]

تفسير سورة قّ وهي مكية

﴿**١ ــ ٤**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قّ والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ**﴾

يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه و[سرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿**بل عجبوا**﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿**أن جاءهم منذر منهم**﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿**فقال الكافرون**﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم[5].

﴿**هذا شيء عجيب**﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادقون في [استغرابهم و] تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم، وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأي: ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿**أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد**﴾ فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى.

﴿**٥**﴾ ﴿**بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج**﴾ أي: ﴿**بل**﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿**لما جاءهم فهم في أمر مريج**﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدري له وجهة[6] ولا قرار، [فتري أموره متناقضة مؤتفكة] كما أن من اتبع الحق

---

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو المانّ.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: بعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم.

(٦) في ب: وجه.

وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قيله.

﴿٦ ـ ١١﴾ **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب * ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد * والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾** لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته[1] الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾** أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون **﴿كيف بنيناها﴾** قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً، ولا فروجاً، ولا خلالاً، ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿و﴾ إلى **﴿الأرض كيف مددناها﴾** ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار[2]، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من التزلزل والتموج، **﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾** أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين رامقها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال، التي يطول[3] نفعها وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء **﴿تبصرة﴾** يتبصر بها من عمى الجهل، **﴿وذكرى﴾** يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل **﴿لكل عبد منيب﴾** إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة[4]، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: **﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾**.

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية، خوَّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢ ـ ١٥﴾ **﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقومُ تبع كل كذّب الرسل فحقّ وعيد * أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾** أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، كـ «نوح» كذبه قومه [وثمود كذبوا صالحاً][5]، وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب الأيكة كذبوا «شعيباً»، وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام[6] فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي: تُبَّع من التبابعة، لأنه ـ والله أعلم ـ كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل، الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا

---

(١) كذا في ب، وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلقة.

(٥) زيادة من هامش ب.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع.

رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول ـ وهو المنشأ الأول[1] ـ على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما[2] أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى [الرفات و] الرمم، فقال: ﴿أفعيينا﴾ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بالخلق الأول﴾؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونَعْيَ عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

﴿١٦ ـ ١٨﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق[3] جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسرُّه، ويوسوس في صدره[4]، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق[5] المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه[6] في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عن اليمين﴾ يكتب الحسنات، ﴿و﴾ الآخر ﴿عن الشمال﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قعيد﴾ بذلك متهيىء لعمله الذي أعد له، ملازم له[7] ﴿ما يلفظ من قول﴾ خير أو شر ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾.

﴿١٩ ـ ٢٢﴾ ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد * ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي: ﴿وجاءت﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سكرة الموت بالحق﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي: تتأخر وتنكص[8] عنه، ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ﴿وجاءت كل نفس معها سائق﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وشهيد﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾ الذي غطى قلبك، فكثر نومك، واستمر[9] إعراضك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة[10] عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣ ـ ٢٩﴾ ﴿وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد * ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد * مناع للخير معتدٍ مريب * الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد * قال لا تختصموا لديَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لديَّ وما أنا بظلام للعبيد﴾ يقول تعالى: ﴿وقال قرينه﴾ أي: قرين هذا المكذب

---

(١) في ب: النشأة الأولى.
(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.
(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.
(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.
(٥) في ب: العظم.
(٦) في ب: إليه.
(٧) في ب: لذلك.
(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.
(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.
(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

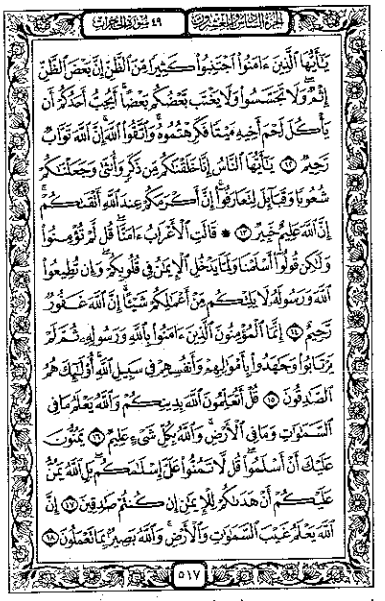

المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المجتريء على المحارم والمآثم.

﴿مناع للخير﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده[1]، الذي أعظمه الإيمان بالله [وملائكته][2] وكتبه ورسله مناع، لنفع ماله وبدنه، ﴿معتد﴾ على عباد الله، وعلى حدوده[3]، ﴿مريب﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فألقياه﴾ أيها الملكان القرينان ﴿في العذاب الشديد﴾ الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها.

﴿قال قرينه﴾ الشيطان، متبرئاً منه، حاملاً عليه إثمه: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ لأني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم...﴾ الآية[4].

قال الله تعالى مجيباً لاختصامهم: ﴿لا تختصموا لدي﴾ أي: لا فائدة في اختصامكم[5] عندي، ﴿و﴾ الحال أني ﴿قد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي: جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجتكم، وقدمتم عليّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿ما يبدل القول لدي﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزاد[6] في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٣٠ ـ ٣٥﴾ ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد * وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ وذلك من كثرة ما ألقي فيها، ﴿وتقول هل من مزيد﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضباً لربها، وغيظاً على الكافرين.

وقد وعدها الله ملأها، كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فينزوي بعضها على بعض، وتقول. قط قط، قد اكتفيت وامتلأت، ﴿وأزلفت الجنة﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له، ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أواب أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه ورجائه.

﴿حفيظ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل[7] الوجوه، حفيظ لحدوده، ﴿من خشي الرحمن﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على

---

(١) في ب: قِبَلَهُ.
(٢) زيادة من هامش ب.
(٣) في أ زيادة هنا هي (أثيم) أي كثير الإثم) ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب.
(٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم).
(٥) كذا في ب، وفي أ: خصاصكم.
(٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد.
(٧) في ب: أتم.

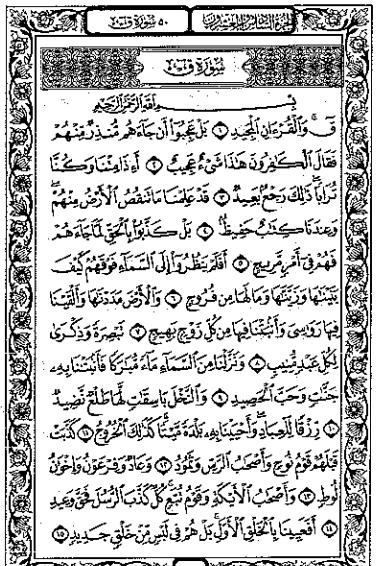

خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابلٌ للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر[1].

﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشرور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذلك يوم الخلود﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات، ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك ﴿مزيد﴾ أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجلُّه وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص * إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد﴾** يقول تعالى ـ مخوفاً للمشركين المكذبين للرسول ـ: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾** أي: أمماً كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي: قوة وآثاراً في الأرض.

ولهذا قال: **﴿فنقبوا في البلاد﴾** أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ **﴿هل من محيص﴾** أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾** أي: قلب عظيم حيٌّ ذكيٌّ زكيٌّ، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع فارتفع[2]، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه **﴿شهيد﴾** أي: حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض، الذي لم يلق[3] سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ **﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾** وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات **﴿السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾** أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها ـ على كبرها وعظمتها ـ قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى، **﴿فاصبر على ما يقولون﴾** من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم والهِ بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى مُسلٍّ للنفس، مؤنس لها، مُهوِّنٌ للصبر.

﴿٤١ ـ ٤٥﴾ **﴿واستمع يوم ينادِ المناد من مكانٍ قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسير * نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾** أي: **﴿واستمع﴾** بقلبك نداء المنادي وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور **﴿من مكان قريب﴾** من الخلق[4] **﴿يوم يسمعون الصيحة﴾** أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة **﴿بالحق﴾** الذي لا شك فيه ولا امتراء.

﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال: **﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض﴾**

---

(١) من قوله: ويحتمل إلى: هذا هو الظاهر ليس في ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وارتفع.

(٣) في ب: لم يصغ.

(٤) في ب: من الأرض.

عنهم﴾ أي: عن الأموات[1].

﴿سراعاً﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي: هين[2] على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ ولهذا قال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾.

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات مكية

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع﴾ هذا قسم من الله الصادق في قيله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذروا في هبوبها ﴿ذروا﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿والحاملات وقرا﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، و﴿الجاريات يسرا﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، ﴿والمقسمات أمرا﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدّر له وما حُدّ ورسم، ولا ينقص منه.

﴿٧ ـ ٩﴾ ﴿والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك﴾ أي: والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم، ﴿إنكم﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لفي قول مختلف﴾ منكم من يقول ساحر، ومنكم من يقول كاهن، ومنكم من يقول مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل، ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ ﴿قتل الخراصون * الذين هم في غمرة ساهون * يسألون أيان يوم الدين * يوم هم على النار يفتنون * ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ يقول تعالى: ﴿قتل الخراصون﴾ أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ﴿الذين هم في غمرة﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾ ﴿يسألون﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون أي: متى يبعثون، مستبعدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿هذا﴾ العذاب، الذي وصلتم إليه، [هو] ﴿الذي كنتم به تستعجلون﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿١٥ ـ ١٩﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم[3] إلى

(١) في ب: عن الخلائق.

(٢) في ب: سهل.

(٣) في ب: وصلوا بها.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾
سورة الذاريات
بسم الله الرحمن الرحيم
وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾
٥٢٠

ذلك الجزاء: ﴿**إن المتقين**﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دثارهم، ﴿**في جنات**﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلوب العباد[1]، ﴿**وعيون**﴾ سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيراً، ﴿**آخذين ما آتاهم ربهم**﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه، بالانزجار عنه لله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقى بالشكر [لله] عليها والانقياد.

والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿**إنهم كانوا قبل ذلك**﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿**محسنين**﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان[2]، وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلى المماليك، والبهائم المملوكة وغير المملوكة[3]، ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿**كانوا**﴾ أي: المحسنون ﴿**قليلاً من الليل ما يهجعون**﴾ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع، ﴿**وبالأسحار**﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿**هم يستغفرون**﴾ الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ ﴿**وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم[4].

﴿٢٠ ـ ٢٣﴾ ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾ يقول تعالى ـ داعياً عباده إلى التفكر والاعتبار ـ: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين**﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد[5] الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي، ﴿**وما توعدون**﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهاً ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا] وهو النطق، فقال: ﴿**فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾ فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت[6].

﴿٢٤ ـ ٣٧﴾ ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه**

(١) في ب: قلب بشر.
(٢) في ب: من وجوه البر.
(٣) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.
(٤) في ب: والذين لا يسألونهم.
(٥) في ب: أن الله واحدٌ أحدٌ.
(٦) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتريكم الشك في البعث والجزاء.

فقالوا سلاماً قال سلام قومٌ منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صرّة فصكت وجهها وقالت عجوزٌ عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم * [قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم]﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ مجيباً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين * فقرَّبه إليهم﴾ وعرض عليهم الأكل، فـ ﴿قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿قالوا لا تخف﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي: أنَّى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً، فَثَمَّ مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر[1] أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين * مسوَّمة عند ربك للمسرفين﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه[2]، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم[3]، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي[4] وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلاً، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام[5]، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: «أنكرتكم» [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِرَى أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

---

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(٤) أمر الله محمداً وأمته.

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

قد أعدت لغير الضيف الحاضر[١]، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده[٢]، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به[٣] من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير[٤] من ضيَّف الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا، أو ائتوا إليه» لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿**ألا تأكلون**﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿**ألا تأكلون**﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: «ألا تأكلون» أو: «ألا تتفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا»، ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان[٥] لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿**لا تخف**﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرَّتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليم.

﴿٣٨ ــ ٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿**وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم**﴾ أي: ﴿**وفي موسى**﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى[٦] بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿**بركنه**﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿**ساحر أو مجنون**﴾ أي: إن موسى، لا يخلو إما إن يكون ساحراً وما أتى به شعبذة[٧] ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم [ظلماً وعُلُواً]﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض [بصائر﴾ الآية]، ﴿**فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمِّ وهو مليم**﴾ أي: مذنب طاغ، عاتٍ على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ ــ ٤٢﴾ ﴿**وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم**﴾ أي: ﴿**وفي عاد**﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة[٨] ﴿**إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿**ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم**﴾ أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه.

﴿٤٣ ــ ٤٥﴾ ﴿**وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين**﴾ أي: ﴿**وفي ثمود**﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً ونفوراً.

فقيل ﴿**لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة**﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿**وهم ينظرون**﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿**فما استطاعوا من قيام**﴾ ينجون به من العذاب، ﴿**وما كانوا منتصرين**﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وسنته فيمن عصاه.

﴿٤٧ ــ ٥١﴾ ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين**﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿**والسماء بنيناها**﴾ أي: خلقناها وأتقنَّاها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها.

﴿**بأيد**﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة

---

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص.
(٢) في ب: لديه.
(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه.
(٤) في ب: وسيد.
(٥) في ب: من أحد.
(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أُتي فرعون.
(٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.
(٨) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام.

﴿وإنا لموسعون﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فنعم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكمته و] رحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [أي: صنفين]، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم][1] في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد[2] والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفوز، فيفرّ العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلاّ الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة، ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿٥٢ ـ ٥٣﴾ ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون * أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون﴾ يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسل، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم ـ الأولين والآخرين ـ هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب ـ بسبب ذلك ـ اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿٥٤ ـ ٥٥﴾ ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يقول تعالى آمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت، وبلّغت ما أرسلت به.

﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول[3]، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في المأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو[4] معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيُذكَّرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكّر إن نفعت الذكرى * سيذّكر من يخشى * ويتجنبها

---

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما.

الأشقى﴾ وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦ ـ ٥٨﴾ **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾** هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، وذلك يتضمن[1] معرفته تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿**إن الله هو الرزاق**﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿**ذو القوة المتين**﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم[2] الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩ ـ ٦٠﴾ **﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون * فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾** أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا[3] محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿**ذنوباً**﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿**فلا يستعجلون**﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿**فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة والطور، مكية

﴿١ ـ ١٦﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور * وكتاب مسطور * في رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إنّ عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً * فويلٌ يومئذٍ للمكذبين * الذين هم في خوضٍ يلعبون * يوم يدعّون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾** يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتملة على الحكم الجليلة، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عَدٍّ ولا ثمن.

﴿**وكتاب مسطور**﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب[4]، أنزله الله محتوياً على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿**في رقٍّ**﴾ أي: ورقٍّ ﴿**منشور**﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿**والبيت المعمور**﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعبدون فيه لربهم ثم]، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقيق ببيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمناً، أن يقسم الله به، ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿**والسقف المرفوع**﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنارها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿**والبحر المسجور**﴾ أي: المملوء

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٣) في ب: بتكذيبهم.

(٤) في ب: الكتب.

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تلظى، ممتلئاً على عظمته وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿**إن عذاب ربك لواقع**﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿**ما له من دافع**﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه[1] العذاب، فقال: ﴿**يوم تمور السماء موراً**﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون، ﴿**وتسير الجبال سيراً**﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟!

﴿**فويل يومئذ للمكذبين**﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿**الذين هم في خوض يلعبون**﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

﴿**يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعا**﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿**هذه النار التي كنتم بها تكذبون**﴾ فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿**أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون**﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟

والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف[2] للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجليّة.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: (**أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون**)] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمدٌ ﷺ سحرٌ أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق، وأن حجة الله قامت عليهم[3].

﴿**اصلوها**﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم[4]، وتطلع على أفئدتكم.

﴿**فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم**﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست[5] من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] ﴿**إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾.

﴿**١٧ ـ ٢٠**﴾ ﴿**إن المتقين في جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سُرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين**﴾ لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿**إن المتقين**﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿**في جنات**﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة، والأنهار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة، ﴿**ونعيم**﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿**فاكهين بما آتاهم ربهم**﴾ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

---

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصراط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عمّا في أ، وهذا نصُّ ما في: ب: (أي: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحرٌ، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

ونجاهم من المرهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: مما تشتهيه أنفسكم، من [أصناف] المآكل والمشارب اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: متهنئين بتلك المآكل والمشارب[1] على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور.

﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض[2]، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المآكل والمشارب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن[3]، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش[4] شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعِين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢١ ـ ٢٨﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله [بهم] ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاءً لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ أي: مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بفاكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها.

﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم].

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه[5]، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إنا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمنَّ الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات[6]، وندعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البَرُّ الرحيم﴾ فمن برِّه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩ ـ ٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإني معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون *

(١) في ب: متهنئين بذلك على وجه.
(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.
(٣) في ب: إلا بهن.
(٤) في ب: تطير.
(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.
(٦) في ب: العبادات.

أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون * أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين * أم له البناتُ ولكم البنون * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون * أم لهم إله غير الله سبحان الله عمّا يشركون يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به، فقال: **﴿فما أنت بنعمة ربك﴾** أي: منّه ولطفه، **﴿بكاهن﴾** أي: له رَئِيٌّ من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مئة كذبة، **﴿ولا مجنون﴾** فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم، وتارة **﴿يقولون﴾** فيه: إنه **﴿شاعر﴾** يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: **﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾**.

﴿نتربص به ريب المنون﴾ أي: ننتظر به الموت[1]، فسيبطل أمره، [ونستريح منه]، **﴿قل﴾** لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: **﴿تربصوا﴾** أي: انتظروا بي الموت، **﴿فإني معكم من المتربصين﴾** نتربص بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا، **﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾** أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام، التي أثرت ما أثرت، وصدر منها ما صدر[2].

فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً، وأصدق الصدق[3] وأحق الحق كذباً وباطلاً، لَهِيَ العقول التي ينزه المجانين عنها، أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد[4] يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

﴿أم يقولون تقوله﴾ أي: تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟ **﴿بل لا يؤمنون﴾** فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله، فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجِدوا أنفسهم[5].

فإذا بطل [هذان] الأمران، وبان

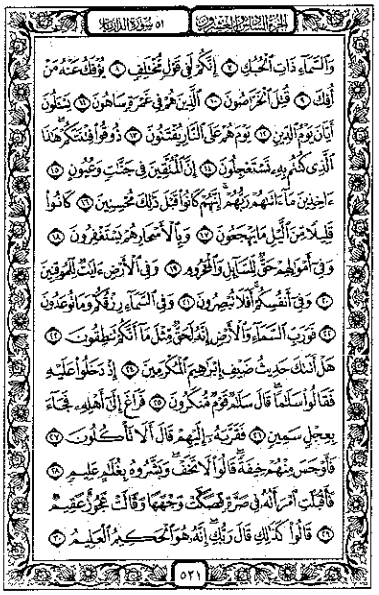

استحالتهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: **﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾** وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين **﴿لا يوقنون﴾** أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاؤون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

---

(١) كذا في ب، وفي أ: نتربص به الموت، وننتظره فيه.

(٢) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها.

(٣) في ب: وجعلت أصدق الصدق.

(٤) كذا في ب، وفي أ: لا حدّ له.

(٥) في ب: أن يوجد أحدٌ نفسه.

﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿أم هم المصيطرون﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فليأت مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿بسلطان مبين﴾ وأنَّى له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحداً][1] إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعده، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأيُّ المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره[2] عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أم تسألهم﴾ يا أيها الرسول ﴿أجراً﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك و] دعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يُطْلِعْ عليه أحداً من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أم يريدون﴾ بقدحهم فيك وفيما جئتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك ـ ولله الحمد ـ فلم يُبْقِ الكفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم[3]، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أم لهم إله غير الله﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ ـ ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم * فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون * يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطعٌ كبارٌ من العذاب ﴿يقولوا سحاب مركوم﴾ أي: هذا سحاب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم.

يصعقون وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله **﴿ولا هم ينصرون﴾**

﴿٤٧ ـ ٤٩﴾ ﴿وإنَّ للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون * واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة[1]، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعده الله بالكفاية بقوله: **﴿فإنك بأعيننا﴾** أي: بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: **﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾** أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: **﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾** أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة والطور والحمد لله

تفسير سورة النجم [وهي] مكية

﴿١ ـ ١٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هُوِيِّه أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغيِّ في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً، حسن القصد، ناصحاً للأمة[2]، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد[3]، وقال **﴿صاحبكم﴾** لينبههم على ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره، **﴿وما ينطق عن الهوى﴾** أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه، **﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾** أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾** وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحي، ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل [عليه السلام]، أفضل الملائكة [الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال: **﴿علمه [شديد القوى]﴾** أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام، **﴿شديد القوى﴾** أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿ذو مِرَّة﴾ أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

﴿فاستوى﴾ جبريل عليه السلام

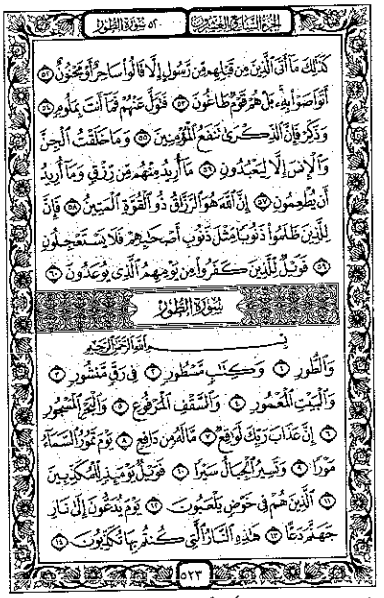

(١) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب...

(٢) في ب: للخلق.

(٣) في ب: وسوء.

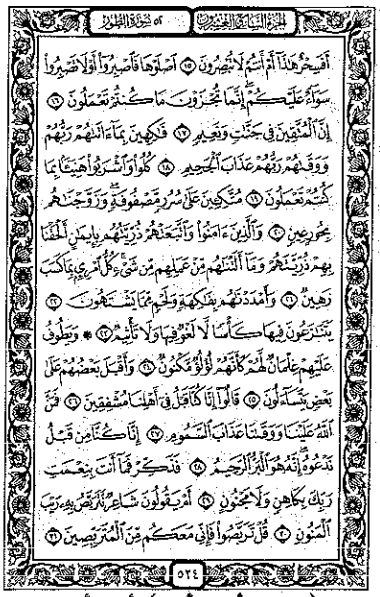
أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾
سُورَةُ القَمَرِ
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾
الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾
الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاع

عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ أي: ظالمة جائرة، [وأيُّ ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمُّون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ يعني ان المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله، قائمون بخدمته ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ والمشركون[1] إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو[2] الظن الذي لا يُغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم[3] لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصّلوها، وبأي: طريق سنحت ابتدروها، ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

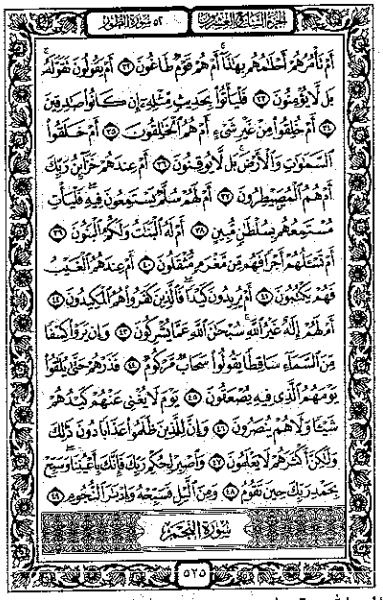

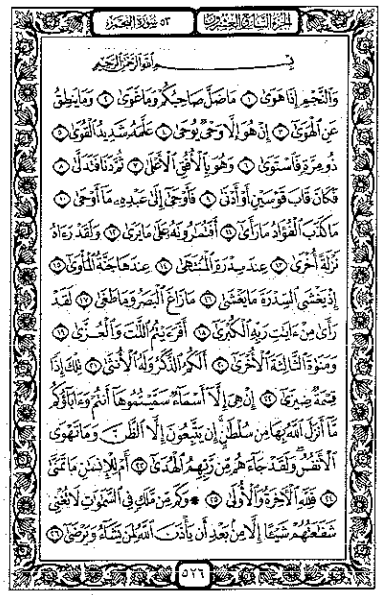

ذلك فيكله إلى نفسه، ويخذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى**﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١ ــ ٣٢﴾ ﴿**ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساؤوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة البليغة[1].

﴿**ويجزي الذين أحسنوا**﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿**بالحسنى**﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة[2].

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿**إلا اللمم**﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿**إن ربك واسع المغفرة**﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله:] ﴿**هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم**﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والقصور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض[3] المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشاكم[4] الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين[5]، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح[6].

﴿**هو أعلم بمن اتقى**﴾ [فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من برّ وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

﴿٣٣ ــ ٦٢﴾ ﴿**أفرأيت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن**

---

(١) في ب: الفظيعة.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

عليه النشأة الأخرى﴾ إلى آخر السورة يقول تعالى: **﴿أفرأيت﴾** قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدى ويمنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة[1]، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجرىء على الجمع بين الإساءة والتزكية[2]، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قُدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أم لم ينبأ﴾ هذا المدعي **﴿بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى﴾** أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** أي: كل عامل له عمله الحسن والسيِّىء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحدٍ ذنباً، **﴿وأن سعيه سوف يرى﴾** في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، **﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾** أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيىء الخالص بالسُّوأى، والمشوب بحسبه، جزاءً تقرّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** من يرى أن القُرَبَ لا يفيد[3] إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: **﴿وأن ليس للإنسان ما سعى﴾** فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: **﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾** أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، **﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾** أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم [والحزن]، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، **﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾** أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا، **﴿وأنه خلق الزوجين﴾** فسر الزوجين[4] بقوله: **﴿الذكر والأنثى﴾** وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها، **﴿من نطفة إذا تمنى﴾** وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نطفةٍ ضعيفة[5] من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة، فقال: **﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾** فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، **﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾** أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى[6]، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، **﴿وأنه هو رب الشعرى﴾** وهي النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبده المشركون مربوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله[7]، **﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾** وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

---

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً.

(٢) فتجرىء عليه جامعٌ بين المحذورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلةٍ.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم[١] الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم[٢]، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفكة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟[٣]

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين؟

﴿أزفت الآزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن[٤] العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً ويقيناً والذي[٥] ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله[٦]، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله[٧] والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد[٨]، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١ ــ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

---

(١) في ب: لهم.
(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.
(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.
(٤) في ب: القرآن.
(٥) في ب: بل الذي.
(٦) في ب: يدل على فضله.
(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.
(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به و] صدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى[1] الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم[2] إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا[3] يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿**سحر مستمر**﴾ سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل[4] والرد لها، ولهذا قال: ﴿**وإن يروا آية يعرضوا**﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها بل قال: ﴿**وإن يروا آية يعرضوا**﴾ وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿**وكذبوا واتبعوا أهواءهم**﴾ كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لآمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه[5] من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، ﴿**وكل أمر مستقر**﴾ أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى ـ مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى ـ: ﴿**ولقد جاءهم من الأنباء**﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿**ما فيه مزدجر**﴾ أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿**حكمة**﴾ منه تعالى ﴿**بالغة**﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين[6]، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿**فما تغن النذر**﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿٦ ـ ٨﴾ ﴿**فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر * خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال:] ﴿فتول عنهم﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهَوْلاً جسيماً، وذلك حين ﴿**يدعو الداع**﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿**إلى شيء نكر**﴾ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، ﴿**خشعاً أبصارهم**﴾ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿**يخرجون من الأجداث**﴾ وهي القبور، ﴿**كأنهم**﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿**جراد منتشر**﴾ أي: مبثوث في الأرض، متكاثر جداً، ﴿**مهطعين إلى الداع**﴾ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي[7]، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، ﴿**يقول الكافرون**﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿**هذا يوم عسر**﴾ كما قال تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾

(١) في ب: العظيمة.
(٢) في ب: من ورد.
(٣) في ب: لم.
(٤) في ب: بالتكذيب.
(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.
(٦) في ب: العالمين.
(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.

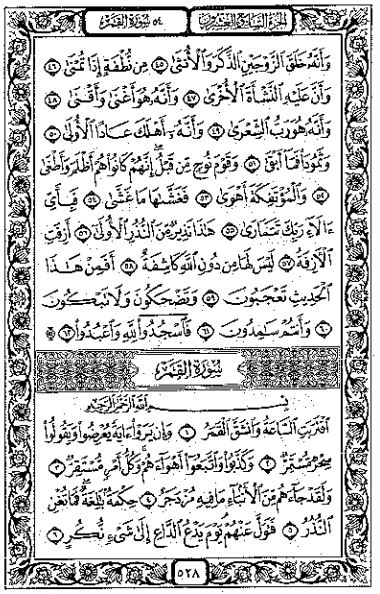

[مفهوم ذلك أنه يسيرٌ سهلٌ على المؤمنين][1].

﴿٩ ــ ١٧﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوَّفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحلَّ بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً * ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾.

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: **﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون﴾** لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله:] **﴿وازدجر﴾** أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم ـ قبحهم الله ـ عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال:] **﴿أني مغلوب﴾** لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، **﴿فانتصر﴾** اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾** أي: كثير جداً متتابع، **﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾** فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض **﴿على أمر﴾** من الله له بذلك، **﴿قد قُدر﴾** أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، **﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾** أي: ونجينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدسر أي: المسامير [التي] قد سمرت [بها] ألواحها وشدبها أسرها[2]، **﴿تجري بأعيننا﴾** أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظٍ [منه] لها عن الغرق [ونظر]، وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، **﴿جزاء لمن كان كفر﴾** أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرده عنه راد، ولا صدّه عنه[3] صاد، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد: أنا أهلكنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، **﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾** أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده[4] نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته، **﴿فهل من مدكر﴾**؟ أي: فهل متذكر[5] للآيات، مُلقٍ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾** أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يُبْقي لأحد عليه حجة.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

---

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاد.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلّها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيُعان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فهل من مدكر﴾.

﴿١٨ ـ ٢٢﴾ ﴿كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ «وعاد» هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾ أي: شديدة جداً، ﴿في يوم نحس﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم، ﴿مستمر﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ﴿تنزع الناس﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته[1] الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره، ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

﴿٢٣ ـ ٣٢﴾ ﴿كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر * أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبيهم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا ـ كِبْراً وتيهاً ـ: ﴿أبشراً منّا واحداً نتبعه﴾ أي: كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إنّا إذاً﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لفي ضلال وسعر﴾ أي: إنا لضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿أألقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي: مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فالرسل مَنَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لعاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشر﴾ أي: كثير الكذب والشر، فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات الله، ونعمة يحتلبون من ضرعها[2] ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنة لهم﴾ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً ﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي: اصبر على دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟ ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: أخبرهم أن الماء أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم، ﴿كل شرب محتضر﴾ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من

(١) في ب: اقتلعته.

(٢) في ب: درها.

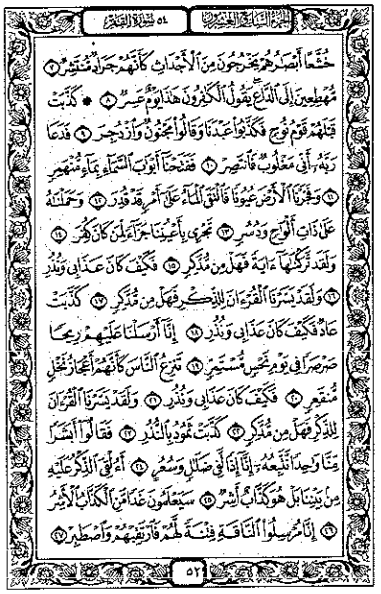

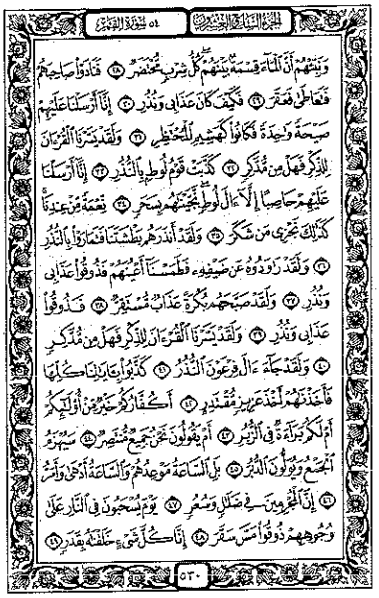

ليس بقسمة له.

﴿فنادوا صاحبهم﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فتعاطى﴾ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها ﴿فعقر﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿٣٣ ـ ٤٠﴾ ﴿كذبت قوم لوط بالنذر * إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر * نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ﴿كذبت قوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤوهم[1] مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فتماروا بالنذر﴾ ﴿ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿٤١ ـ ٥٥﴾ ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر * إن المجرمين في ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر * ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر * وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر * إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ أي: ﴿ولقد جاء آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النذر﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرات[2]، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحداً غيرهم[3]، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده[4].

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس و] المكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميع منتصر﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من[5] صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به[6]، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ أي:

---

(١) في ب: جاءوا.

(٢) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

(٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.

(٤) في ب: فأغرقه وجنوده في اليم.

(٥) في ب: وقتلت.

(٦) في ب: فأذلوا.

أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال[1].

﴿إن المجرمين﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿في ضلال وسعر﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضُلالٌ عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم، ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها[2]، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم ﴿فهل من مدكر﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين. ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿إن المتقين﴾ لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر.

﴿في جنات ونهر﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشرّ ما عندنا.

تم تفسير سورة اقتربت،
ولله الحمد والشكر

تفسير سورة الرحمن
[وهي] مكية

﴿١ ـ ١٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية [والآخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾].

فذكر أنه ﴿علم القرآن﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البديع تعالى[3] خلقه أيّ اتقان، وميّزه على سائر الحيوانات، بأن ﴿علمه البيان﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجلّ نعمه، وأكبرها عليه، ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر،

(١) في ب: في الخيال.

(٢) في ب: خلقه.

(٣) في ب: قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه.

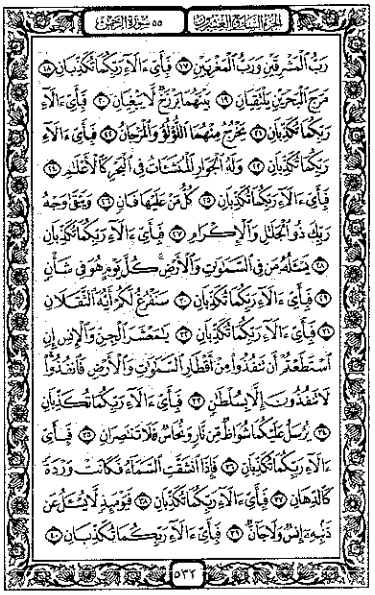

رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب، ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخشع[1]، وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، ﴿**والسماء رفعها**﴾ سقفها للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿**ألا تطغوا في الميزان**﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

﴿**وأقيموا الوزن بالقسط**﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿**ولا تخسروا الميزان**﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان، ﴿**والأرض وضعها**﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿**للأنام**﴾ أي: للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفراشاً يبنون بها، ويحرثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجاً، وينتفعون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿**فيها فاكهة**﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿**والنخل ذات الأكمام**﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يستزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه، ﴿**والحب ذو العصف**﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، ﴿**والريحان**﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتنَّ على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتنَّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح، وتنشرح لها النفوس.

ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ أي: فبأي: نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ إلا قالوا[2]: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي[3] للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يقرّ بها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿١٤ ـ ١٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿**خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿**خلق**﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿**من صلصال كالفخار**﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار[4]، ﴿**وخلق الجان**﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين[5] ﴿**من مارج من نار**﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك[6]، وكان ذلك منةً منه [تعالى]

(١) في ب: وتخضع.
(٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا.
(٣) في ب: فهكذا ينبغي.
(٤) في ب: وهو الطين المشوي.
(٥) في ب: لعنه الله.
(٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

على عباده[1]، قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿رب المشرقين ورب المغربين * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كانا فيه] فهي تحت[2] تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك[3].

﴿١٩ ـ ٢١﴾ ﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من كبرها وعظمها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٢٦ ـ ٢٨﴾ ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبيد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه، [ويعظمونه] ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٠﴾ ﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليقة وأفناهم الله تعالى[4]، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض﴾ أي: تجدون منفذاً مسلكاً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنّى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء.

---

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت..

(٣) في ب: وثناهما هنا باعتبار مشارقها شتاء وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأفنى الله الخلق.

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم[1]، فقال: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار [ونحاسٌ فلا تنظران فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يرسل عليكما] لهب صاف من النار.

﴿ونحاس﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم[2]، فقال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فإذا انشقت السماء﴾ [أي] يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها، ﴿فكانت﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه﴾.

﴿٤١﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣ ـ ٤٥﴾ ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم[3]، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وبين حميم آن﴾ أي: ماء حار جداً قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقره، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿٤٦ ـ ٦٥﴾ ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ إلى آخر السورة.

أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ [أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر][4] أن[5] فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة، أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف.

وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنوع الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، [أي:] جلوس تمكن واستقرار [وراحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟![6]

﴿وجنى الجنتين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهن لهم، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي: لم ينلهن قبلهم أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحببات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانهما وآنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

---

(١) في ب: في ذلك اليوم.

(٢) في ب: ذكر منته بذلك.

(٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

(٦) في ب: التي يباشرون.

الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخَلْق والخُلُق، ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفرات، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر﴾ أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق[1] المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وعبقري حسان﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس، وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وفي الأخريين: ﴿عينان نضاختان﴾. ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة.

وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنان﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين.

وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وفي الأخريين: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ وقال في الأخريين: ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين[2]: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فدلَّ ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين.

ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين، يدل على فضلهما.

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدّتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلاً[3] منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه]. ولما ذكر سعة فضله وإحسانه، قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي: تعاظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن،

ولله الحمد والشكر

والثناء الحسن

تفسير سورة الواقعة [وهي] مكية

﴿١ ـ ١٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً * وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون

السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي: لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى، ﴿خافضة رافعة﴾ أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. ﴿إذا رجت الأرض رجاً﴾ أي: حركت واضطربت، ﴿وبست الجبال بساً﴾ أي: فتتت، ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ﴿وكنتم﴾ أيها الخلق ﴿أزواجاً ثلاثة﴾ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم، ﴿وأصحاب المشأمة﴾ أي: الشمال، ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ تهويل لحالهم.

﴿والسابقون السابقون * أولئك

(١) في ب: تحت.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين ويبدو أنه سبق قلم.

(٣) في ب: كل واحدٍ منهم.

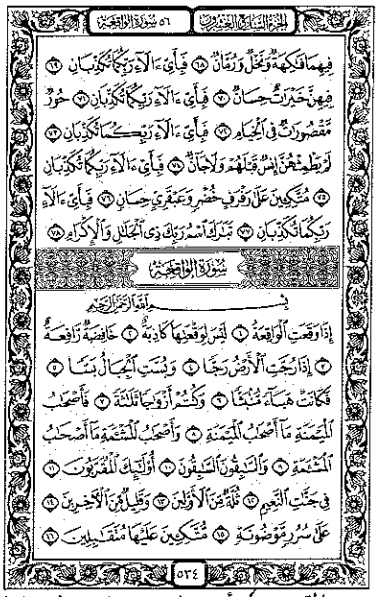
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾
سُورَةُ الواقعة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
٥٣٤

المقربون﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون **﴿ثلة من الأولين﴾** أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، **﴿على سرر موضونة﴾** أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الحلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، **﴿متكئين عليها﴾** أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار. **﴿متقابلين﴾** وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، **﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾** أي: مستور، لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم **﴿بأكواب﴾** وهي التي لا عرى لها، **﴿وأباريق﴾**: الأواني التي لها عرى، **﴿وكأس من معين﴾** أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها، **﴿لا يصدعون عنها﴾** أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمر الدنيا.

والحاصل: أن جميع[1] ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، **﴿ولحم طير مما يشتهون﴾** أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شاؤوا مشوياً، أو طبيخاً، أو غير ذلك.

﴿وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها[2]، وحسن العين في الأنثى، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت.

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر[3] ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم **﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾** فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، **﴿إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾** أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسره للنفوس[4]، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين[5]، فقال: **﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾** أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، **﴿في سدر مخضود﴾** أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، **﴿وطلح منضود﴾** والطلح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، **﴿وماء مسكوب﴾** أي: كثير

---

(١) في ب: كل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام الأعين.

(٣) في ب: القلب.

(٤) في ب: للقلوب.

(٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة، ﴿وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممتنعة [أي: متعسرة] على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي: حال يكون، ﴿وفرش مرفوعة﴾ أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله. ﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء، ﴿فجعلناهن أبكاراً﴾ صغارهن وكبارهن، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن ﴿عرباً أتراباً﴾ ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً، وإن برزت[1] من محل إلى آخر، امتلأ ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنساؤهم عرب أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يَحْزَنَّ ولا يُحْزِنَّ، بل هن أفراح النفوس، وقرة العيون، وجلاء الأبصار، ﴿لأصحاب اليمين﴾ أي: معدات لهم مهيئات، ﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾ أي: هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين، وعدد كثير من الآخرين.

﴿٤١ - ٤٨﴾ ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون﴾.

المراد بأصحاب الشمال [هم:] أصحاب النار، والأعمال المشؤومة، فذكر [الله] لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿في سموم﴾ أي: ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، ﴿وحميم﴾ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، ﴿وظل من يحموم﴾ أي: لهب نار يختلط بدخان، ﴿لا بارد ولا كريم﴾ أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أن هنالك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده. ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ أي: قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه، ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون﴾ أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من المحال] ﴿أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم[2]: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، أي: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

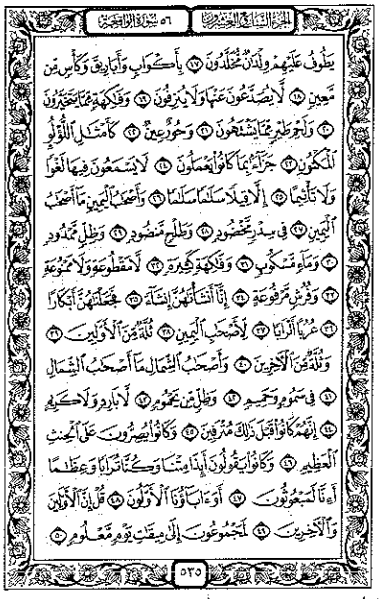

﴿ثم إنكم أيها الضالون﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، ﴿المكذبون﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، ﴿لآكلون من شجر من زقوم﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظراً، ﴿فمالئون منها البطون﴾ والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجرع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

وأما شرابهم، فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

﴿هذا﴾ الطعام والشراب ﴿نزلهم﴾ أي: ضيافتهم ﴿يوم الدين﴾ وهي

(١) في ب: وإن انتقلت.

(٢) في ب: قال تعالى في جوابهم.

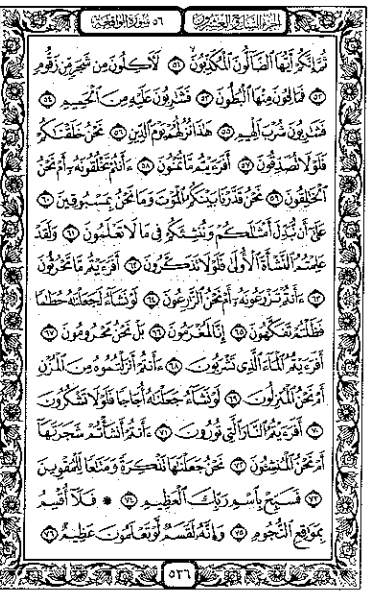

الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾.

ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، ولهذا وبَّخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٨ ـ ٦٢﴾ ﴿أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي: أفرأيتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدى كلاً منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال[1] بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

﴿٦٣ ـ ٦٧﴾ ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون﴾ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته، فقال: ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ أي: أأنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثمراً نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال ﴿لو نشاء لجعلناه﴾ أي: الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلتم﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهون﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إنا لمغرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا.

ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي: سبب دهيتم، فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾ فاحدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿٦٨ ـ ٧٠﴾ ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذباً فراتاً تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس. لا ينتفع به ﴿فلولا تشكرون﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿٧١ ـ ٧٤﴾ ﴿أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشؤوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفؤوها وأخمدوها.

﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي: [المنتفعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره، ولعل

(١) في ب: بالاستدلال.

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده[1]، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى.

﴿٧٥ ـ ٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغاربها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبراً لا يمكن حصرها، وأما المقسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله[2]، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم[3] على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتنبيهها[4]، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خبرٌ بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهرٌ.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجلّ تربية ربى بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، ومما يجب عليهم أن يقوموا به[5] ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تختفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يختفى، بل يصدع به ويعلن.

وقوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومولياها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿٨٨ ـ ٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

(١) في ب: وتعظيمه.

(٢) في ب: لوحيه ورسالته.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لها.

(٤) في ب: تنبيهاً.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن يقوموا به.

المحرمات والمكروهات[1] وفضول المباحات، ﴿فـ﴾ لهم ﴿روح﴾ أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وريحان﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام[2].

﴿وجنة نعيم﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم﴾.

وقد أول قوله[3] تبارك تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أن هذه البشارة المذكورة، هي البشرى في الحياة الدنيا.

[وقوله:] ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و [إن] حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم، ﴿فـ﴾ يقال لأحدهم: ﴿سلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى، ﴿فنزل من حميم * وتصلية جحيم﴾ أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لهو حق اليقين﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له[4]، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

تفسير سورة الحديد [وهي] مدنية

﴿١ ــ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور﴾ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، [والجوامد] تسبّح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره، ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وهو على كل شيء قدير﴾.

﴿هو الأول﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿والآخر﴾ الذي ليس بعده شيء ﴿والظاهر﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿والباطن﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وهو بكل شيء عليم﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ من حب وحيوان ومطر،

---

(١) في ب: ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

(٢) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

(٣) في ب: فسر.

(٤) في ب: مشاهدون لحقيقته.

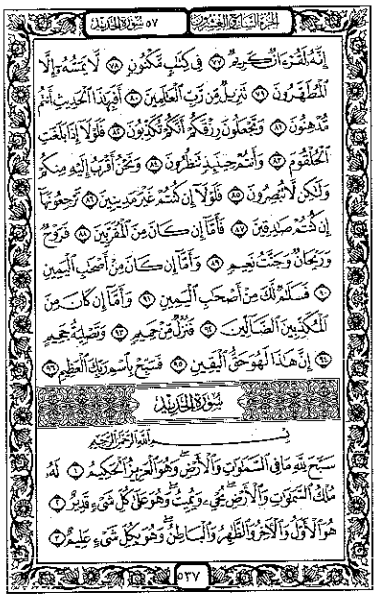
الجزء السابع والعشرون ٥٧ سورة الحديد
إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ
﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾
سورة الحديد
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
٥٧٣

وغير ذلك.

﴿وما يخرج منها﴾ من نباتٍ وشجر وحيوان وغير ذلك، **﴿وما ينزل من السماء﴾** من الملائكة والأقدار والأرزاق.

﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك.

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾.

وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: **﴿والله بما تعملون بصير﴾** أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم، **﴿له ملك السماوات والأرض﴾** ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية، **﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾** من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، **﴿وهو عليم بذات الصدور﴾** أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته[1].

﴿٧ - ١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير * وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم * وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير * من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون، ثم لما أمرهم بذلك، رغَّبهم وحثَّهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال: **﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾** أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله، لهم أجر كبير، أعظمه [وأجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه، فقال: **﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾** أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين، ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلَّكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات، فلهذا قال: **﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾** أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به[2]، وأنه حق اليقين، **﴿ليخرجكم﴾** بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة.

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها **﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾**

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، **﴿و﴾** الحال أنه ليس لكم شيء، بل **﴿لله ميراث السماوات والأرض﴾** فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون

(١) كذا في ب، وفي أ ونخذل من يعلمه لا يصلح.

(٢) في ب: على صحة جميع ما جاء به.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
﴿٦﴾ ۞ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ
أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
٥٣٨

عنها، ثم يعود المُلْك إلى مالكه تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا**﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجاً، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجراً وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿**وكلاً وعد الله الحسنى**﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ فيجازي كُلاً منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً**﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ ــ ١٥﴾ ﴿**يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير**﴾ يقول تعالى ـ مبيناً لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة ـ: ﴿**يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم**﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿**بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم**﴾ فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به[1]، وهم قد طفىء نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿**قيل**﴾ لهم: ﴿**ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**﴾ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿**فضرب**﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿**بسور**﴾ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿**له باب باطنه فيه الرحمة**﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿**وظاهره من قبله العذاب**﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحماً: ﴿**ألم نكن معكم**﴾ في الدنيا نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

﴿**قالوا بلى**﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿**فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم**﴾ أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿**وغرتكم الأماني**﴾ الباطلة، حيث[2] تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿**حتى**

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.

﴿جاء أمر الله﴾ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة.

﴿وغركم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره، **﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾** فلو افتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه، لما تقبل منكم، **﴿مأواكم النار﴾** أي: مستقركم، **﴿هي مولاكم﴾** التي تتولاكم وتضمكم إليها، **﴿وبئس المصير﴾** النار.

[قال تعالى:] ﴿وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾**.

أي: ألم يجيء[1] الوقت الذي تلين به قلوبهم[2] وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، **﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾** أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، **﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾** فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك[3] سبب لقسوة القلب وجمود العين.

﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله و[لم] ينقد لشرائع الله.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم * والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ ﴿إن المصَّدِّقين والمصَّدِّقات﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، **﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾** بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم[4] عند ربهم، **﴿يضاعف لهم﴾** الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، **﴿ولهم أجر كريم﴾** وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصدِّيقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله:] **﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾** كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين[5] كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»، وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم إلى الله تعالى.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً

(١) في ب: ألم يأت.

(٢) في ب: الذي به تلين قلوبكم.

(٣) في ب: فإنه.

(٤) في ب: ذخراً.

(٥) في ب: ما بين كل درجتين.

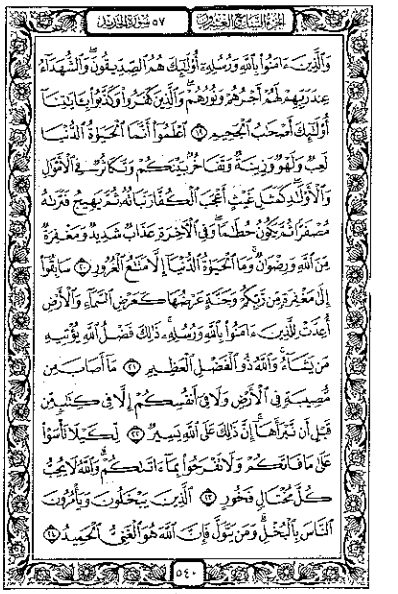

بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢٠ ــ ٢١﴾ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله[1]، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعُمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله:] **﴿وزينة﴾** أي: تزيّنٌ في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] **﴿وتفاخر بينكم﴾** أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، **﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾** أي: كلّ يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من مُحبّي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله[2]، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا[3] جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رُؤيَ لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها[4] من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذُهِب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: **﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾** أي: حال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله[5] به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: **﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾** أي: إلا متاع يتمتع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: **﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾** والإيمان بالله ورسله[6]، يدخل فيه أصول الدين وفروعها، **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾** أي: هذا

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.
(٢) في ب: إلى ذلك.
(٣) في ب: همهم ونظرهم.
(٤) في ب: فأذهبها.
(٥) في ب: من أحله عليه.
(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم[1]، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ **الذي لا يُحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده**[2].

﴿٢٢ ـ ٢٤﴾ ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد**﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم**﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومَنِّه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿**والله لا يحب كل مختال فخور**﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**ثم إذا خوَّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة**﴾.

﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل**﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثُّوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿**ومن يتول**﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿**فإن الله هو الغني الحميد**﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم.

﴿٢٥ ـ ٢٧﴾ ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز * ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون**﴾ يقول تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات**﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيته.

﴿**وأنزلنا معهم الكتاب**﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿**والميزان**﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود [والمواريث وغير ذلك]، وذلك ﴿**ليقوم الناس بالقسط**﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد**﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿**ومنافع للناس**﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قَلَّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿**وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب**﴾ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿**إن الله قوي عزيز**﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا[3] الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

---

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحدٌ من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب**﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿**فمنهم**﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿**مهتد**﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء[1]، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿**ثم قفينا**﴾ أي: أتبعنا ﴿**على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم**﴾ خصَّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿**وآتيناه الإنجيل**﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة**﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات.

ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿**ورهبانية ابتدعوها**﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿**فما رعوها حق رعايتها**﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿**فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كلٌّ أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾.

﴿٢٨ ــ ٢٩﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿**كفلين من رحمته**﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿**كفلين من رحمته**﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجرٌ على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى.

﴿**ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ أي: يعطيكم علماً وهدىً ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات.

﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ فلا يستكثر[2] هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

[وقوله] ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله**﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم[3] بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى أنَّ المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونورٌ، ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿**أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ [الذي لا يقادر قدره].

تم تفسير سورة الحديد،
ولله الحمد والمنة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ ــ ٤﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير**

(١) في ب: طاعة رسله.

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم.

رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته [إلى الله، وجادلته][1] إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾** أي: تخاطبكما فيما بينكما، **﴿إن الله سميع﴾** لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات.

﴿بصير﴾ يبصر دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها[2] على وجه العموم، فقال: **﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾**. المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليَّ كظهر أمي»، أو غيرها من محارمه، أو: «أنت عليَّ حرام»، وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهاراً» فقال: **﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم﴾** أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم[3] أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: **﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾** أي: قولاً شنيعاً، **﴿وزوراً﴾** أي: كذباً.

﴿وإن الله لعفو غفور﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها[4] تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: **﴿ثم يعودون لما قالوا﴾** والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين **﴿ف﴾** إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم **﴿تحرير رقبة﴾** مؤمنة كما قيدت في آية أخرى[5]، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة[6] بالعمل.

﴿من قبل أن يتماسا﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقبة.

﴿ذلكم﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم، **﴿توعظون به﴾** أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظاهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة كف نفسه عنه، **﴿والله بما تعملون خبير﴾** فيجازي كل عامل بعمله.

﴿فمن لم يجد﴾ رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو[لم] يجد ثمنها **﴿ف﴾** عليه **﴿صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾** **﴿فمن لم يستطع﴾** الصيام **﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾** إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم، ووضحناه لكم **﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾** وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به، فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان، [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان[7] ويكمل وينمو.

﴿وتلك حدود الله﴾ التي تمنع من

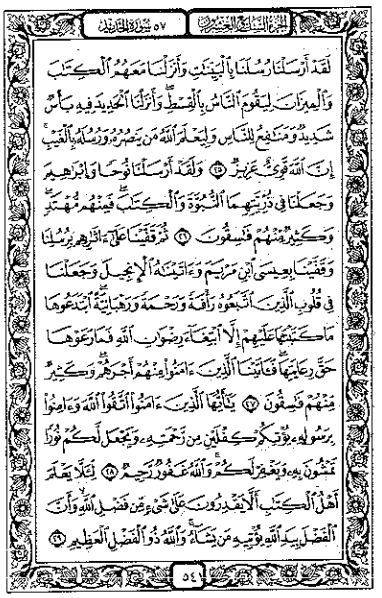

---

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره.

(٣) في ب: يعلمون.

(٤) كذا في ب، وفي أ: أن.

(٥) في ب: آية القتال.

(٦) في ب: الضارة.

(٧) في ب: ويزداد به الإيمان.

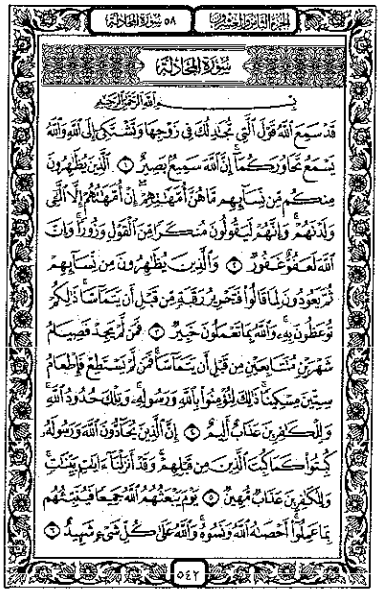
سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ① الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ② والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ③ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ④ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ⑤ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ⑥

٥٤٢

الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وللكافرين عذاب أليم﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسائهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علّقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميها[1] باسم محارمه، كقوله: «يا أمي»، «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقبة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن[2] كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمحادة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿وللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم.

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾

يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق ﴿جميعاً﴾ فيقومون من أجداثهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر[3] والسرائر، والخبايا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذ جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير * يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(١) في ب: ويدعوها.

(٢) في ب: إذا.

(٣) في ب: على الظواهر.

وقيام بحق الله ولعباده[١]، والتقوى، وهي [هنا]: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله**﴾ أي: يسيئون الأدب معك في تحيتهم لك، ﴿**ويقولون في أنفسهم**﴾ أي: يسرون في أنفسهم[٢] ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿**لولا يعذبنا الله بما نقول**﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿**حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير**﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم]، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿**فبئس المصير**﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً[٣]، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي ﷺ، قالوا: «السام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

﴿١٠﴾ ﴿**إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ يقول تعالى: ﴿**إنما النجوى**﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿**ليحزن الذين آمنوا**﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿**وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله**﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا، فإن ضرر ذلك[٤] عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه، ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ أي: ليعتمدوا[٥] عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه[٦].

﴿١١﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**﴾ هذا تأديب[٧] من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للجالس[٨] شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿**وإذا قيل انشزوا**﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض،

﴿**فانشزوا**﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان.

﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم * أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقاتٍ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما**

---

(١) في ب: بحق الله وحق عباده.

(٢) في ب: يسرون فيها.

(٣) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيراً.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن ضررهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.

(٦) في ب: وكفاه أمر دينه ودنياه.

(٧) في ب: هذا أدب.

(٨) في ب: للفاسح.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾
٥٤٤

تعملون﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: **﴿فإذ لم تفعلوا﴾** أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: **﴿وتاب الله عليكم﴾** أي: عفا لكم عن ذلك، **﴿فأقيموا الصلاة﴾** بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، **﴿وآتوا الزكاة﴾** المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقيها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، [ولهذا قال بعده:] **﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾** وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله[1].

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: **﴿والله خبير بما تعملون﴾** فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤ ـ ١٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، **﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾**.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون[2] أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله[3]، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، **﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾** أي: ترساً ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدَّ عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، **﴿فلهم عذاب مهين﴾** حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي، الذي لا يُفتَّر عنهم ساعة ولا هُم يُنظرون، **﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾** فلا تدفع[4] عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب، **﴿أولئك أصحاب النار﴾** الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و **﴿هم فيها خالدون﴾** ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على

(١) في ب: حدود الشرع.
(٢) في ب: والحال.
(٣) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُه.
(٤) في ب: أي لا تدفع.

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهليهم.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين * كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة.

ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة. وهذا وعد لا يُخلف ولا يُغيَّر، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون﴾ يقول تعالى: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾** أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان[1] ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبّته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية[2].

وأمّا من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُوَادٌّ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان[3] وراء ظهره، فإن هذا إيمان زَعْمِيٌّ لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله،

بحمد الله وعونه وتسديده،

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله

على محمد وسلم تسليماً

(١) في ب: إيمانه.

(٢) في ب: ولا وراءه.

(٣) في ب: لمن نبذ.

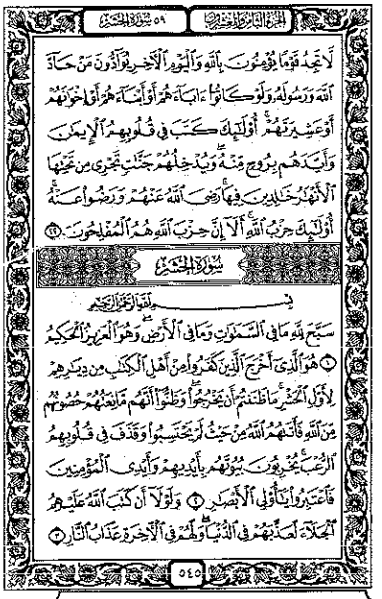

تفسير سورة الحشر
[وهي] مدنية

﴿١ ـ ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

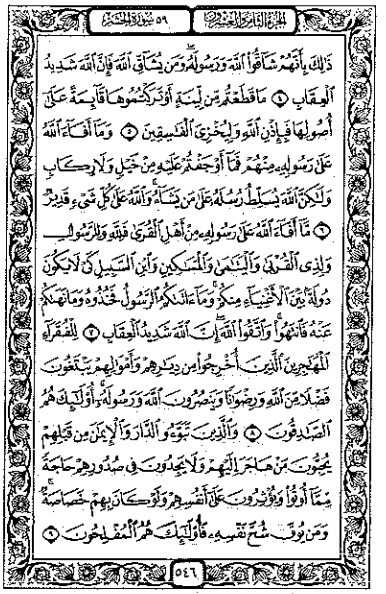
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبيّ [بن سلول]: (أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان).

وطمع رئيسهم حُيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبَّر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أُبيّ وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حُيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله[1]، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي[2]، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خيبر، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ من خيبر، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقيتهم منها].

﴿**ما ظننتم**﴾ أيها المسلمون ﴿**أن يخرجوا**﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها.

﴿**وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله**﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا يُنالُون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تُجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿**فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا**﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم[3] يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿**قذف في قلوبهم الرعب**﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عَدَدٌ ولا عُدَّة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبالٌ[4]، فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه[5]، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿**يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين**﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

(١) في ب: لعظمته.

(٢) في ب: عسير.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالاً عليه.

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار.

عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ[1] لا بخصوص السبب، فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد[2] العقل، وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقي، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى، فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعدّ الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطمّ، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعادوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وسنته فيمن شاقه ﴿**ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب**﴾.

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك[3] إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى، وأمره ﴿**وليخزي الفاسقين**﴾ حيث سلطكم على قطع نخلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالاً لهم، وخزياً في الدنيا، وذلاً يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم الذي هو مادة قوتهم. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا، ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم، فقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم**﴾ أي: من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير.

﴿**فـ**﴾ إنكم يا معشر المسلمين ﴿**ما أوجفتم**﴾ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم، ﴿**عليه من خيل ولا ركاب**﴾ أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأتتكم صَفْواً عَفْواً، ولهذا قال: ﴿**ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه[4] ممتنع، ولا يتعزز من دونه قَويٌّ. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي فَرُّوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيئاً، لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذي لهم الحق الأوفر فيه، وحكمه العام، كما ذكره الله في قوله: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ عموماً، سواء أفاء الله في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من بعده أمته[5].

﴿**فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال، في[6] قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾.

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام:

خمسٌ لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامة]، وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يُسوَّى [فيه] بين ذكورهم وإناثهم، وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم[7]، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخُمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ، وخُمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء

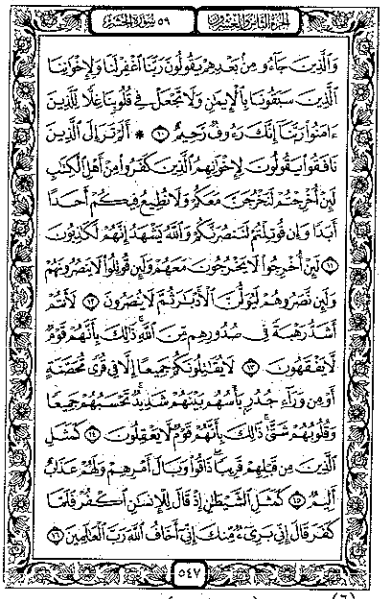

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى.
(٢) في ب: يكمل العقل.
(٣) كذا في ب، وفي أ: به.
(٤) في ب: عليه.
(٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته.
(٦) في ب: وهي.
(٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقد على هجرهم قريش وعداوتهم.

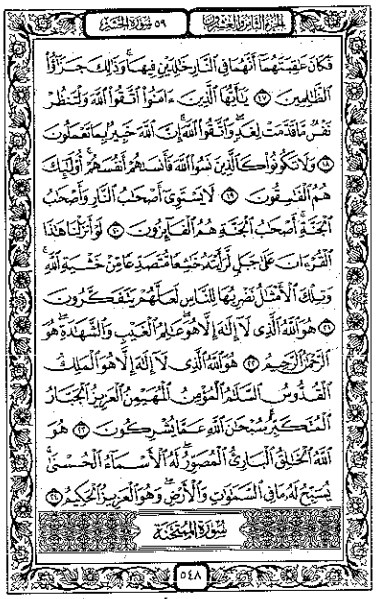
فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاؤا الظالمين ﴿١٧﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴿١٨﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴿١٩﴾ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴿٢٠﴾ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴿٢١﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴿٢٢﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴿٢٣﴾ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٢٤﴾
سورة الممتحنة
٥١٨

المنقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كي لا يكون دولة﴾ أي: مداولة واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح مالا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال، رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه.

﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي: لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين آثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جياعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزق الإيثار فقد وُقي شح نفسه ﴿ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقِيَ العبد شُحَّ نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان[1] الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين[2].

وحَسْبُ من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتمّ بهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

والأنصار ﴿يقولون﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين[١]، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نَفْيَ الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره[٢]، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سبقونا بالإيمان﴾ دليل على المشاركة في الإيمان[٣]، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالّين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجلّه، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهله الذين هم أهله، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طَمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا، ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم[الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لئن أخرجوا﴾ من ديارهم جلاء ونفياً ﴿لا يخرجون معهم﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم[٤].

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿ولئن نصروهم﴾ على الفرض والتقدير[٥] ﴿ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ أي: ليحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك[٦]، أنكم ـ أيها المؤمنون ـ ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ أي: في حال الاجتماع ﴿إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ أي: لا يثبتون لقتالكم[٧] ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تحسبهم جميعاً﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قلوبهم شتى﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة.

﴿ذلك﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

---

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.
(٢) في ب: لقليله وكثيره.
(٣) في ب: المشاركة فيه.
(٤) في ب: بالوعد.
(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.
(٦) في ب: حملهم على ذلك.
(٧) في ب: على قتالكم.

كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة **﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾** وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه [وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون]﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بَدْراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفرّ من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، **﴿ولهم﴾** في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾** أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و **﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾** أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير، **﴿فكان عاقبتهما﴾** أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه **﴿أنهما في النار خالدين فيها﴾** كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ **﴿وذلك جزاء الظالمين﴾** الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلى عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ ــ ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سراً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم ـ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم[1] ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف[1] لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوىء الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿٢٢ ـ ٢٤﴾ ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه[2] فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك لله، فقراء مدبرون.

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الجبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿المتكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده، ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارىء﴾ للمبروءات ﴿المصور﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

(١) كذا في ب وفي أ: وأقلها تكلفاً.
(٢) في ب: غيره.

الجزء الثامن والعشرون ٦٠ سورة الممتحنة
بسم الله الرحمن الرحيم
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥
٥٤٩

ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر،
فلله الحمد على ذلك،
والمنة والإحسان

تفسير سورة الممتحنة [وهي] مدنية

﴿١ ـ ٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون * لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير * قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
٥٥٠

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش[1] يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله **﴿وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾** أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! ومما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضُلاَّل على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق[2]، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم **﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾** أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمتم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأيُّ دين، وأيُّ مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟!! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله[3]، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله[4]، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويبتغون به رضاه.

﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، **﴿ومن يفعله منكم﴾** أي: موالاة الكافرين بعدما حذركم الله منها **﴿فقد ضل سواء السبيل﴾** لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم، **﴿إن يثقفوكم﴾** أي: يجدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، **﴿يكونوا لكم**

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

أعداء﴾ ظاهرين **﴿ويبسطوا إليكم أيديهم﴾** بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

﴿وألسنتهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، **﴿وودوا لو تكفرون﴾** فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. **﴿والله بما تعملون بصير﴾** فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين **﴿أسوة حسنة﴾** أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم، **﴿في إبراهيم والذين معه﴾** من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، **﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾** أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: **﴿كفرنا بكم وبدا﴾** أي: ظهر وبان **﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾** أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك **﴿أبداً﴾** ما دمتم مستمرين على كفركم **﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾** أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، **﴿إلا﴾** في خصلة واحدة وهي **﴿قول إبراهيم لأبيه﴾** آزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: **﴿لأستغفرن لك﴾** الحال أني لا **﴿أملك لك من الله من شيء﴾** لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: **﴿ربنا عليك توكلنا﴾** أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وإليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك[1]، **﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾** أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، **﴿واغفر لنا﴾** ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، **﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾** القاهر لكل شيء، **﴿الحكيم﴾** الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك[2] وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: **﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾** وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من **﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾** فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، **﴿فإن الله هو الغني﴾** الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، **﴿الحميد﴾** في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة[3] الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، فـ **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾** بسببها رجوعهم إلى الإيمان، **﴿والله قدير﴾** على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، **﴿والله غفور رحيم﴾** لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب**

(١) في ب: ما يزلفنا إليك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

(٣) في ب: والمودة.

المقسطين﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة[1]، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله:] ﴿**إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين**﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، ﴿**وأخرجوكم من دياركم وظاهروا**﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿**على إخراجكم**﴾ نهاكم الله ﴿**أن تولوهم**﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتَوَلٍّ للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين، وغيرهم.

﴿**ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً، صار[2] ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠ ــ ١١﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم * وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم يئْهَ رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح **الذي** هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفاسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، **أن** يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، ﴿**لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن**﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهنّ راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها[3]، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿**واسألوا ما أنفقتم**﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم[4] إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم[5]، ﴿**والله عليم حكيم**﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة[6].

وقوله: ﴿**وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار**﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿**فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا**﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق[7].

﴿**واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

﴿١٢﴾ ﴿**يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم**﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتي [كن] يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

---

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعصمها.

(٤) في ب: زوجاتهم.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق.

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمتثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير[١]، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن[٢] يفردن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.

﴿ولا يزنين﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن[٣]، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن [لك] في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعاء[٤] الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطييباً لخواطرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقونهم على شرهم وكفرهم[٥]، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله:] ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر[٦]، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يئسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف
[وهي] مدنية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذل جميع الخلق[٧] له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليمٌ لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي [لهم] أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع[٨] في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

---

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.
(٢) في ب: بل.
(٣) في ب: مع أزواجهن.
(٤) في ب: بدعوى.
(٥) في ب: وشركهم.
(٦) في ب: وشاهدوا.
(٧) في ب: الخلق له.
(٨) في ب: يحصل.

لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي:] **﴿وإذ قال موسى لقومه﴾** موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيته، وهم يعلمون أنه رسول الله: **﴿لم تؤذونني﴾** بالأقوال والأفعال **﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾**

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد[1] بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: **﴿فلما زاغوا﴾** أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم **﴿أزاغ الله قلوبهم﴾** عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا[2] لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال[3] والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٦ ــ ٩﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: **﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾** أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، ومما يدل على صدقي، كوني **﴿مصدقاً لما بين يديّ من التوراة﴾** أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها **﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾** وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء[4]، يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي **﴿فلما جاءهم﴾** محمد ﷺ الذي بشر به عيسى **﴿بالبينات﴾** أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له **﴿هذا سحر مبين﴾** وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أبْيَنَ من شمس النهار، يجعل ساحراً بَيِّناً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم[5] من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه **﴿يدعى إلى الإسلام﴾** ويبين له ببراهينه وبيناته، **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾** أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردُّون بها الحق، وهي[6] لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، **﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾** أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة[7] نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون[8] به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عين

---

(١) في ب: والقيام.
(٢) في ب: ليس.
(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.
(٤) في ب: كسائر الأنبياء.
(٥) في ب: أبلغ.
(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.
(٧) في ب: وإظهار.
(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

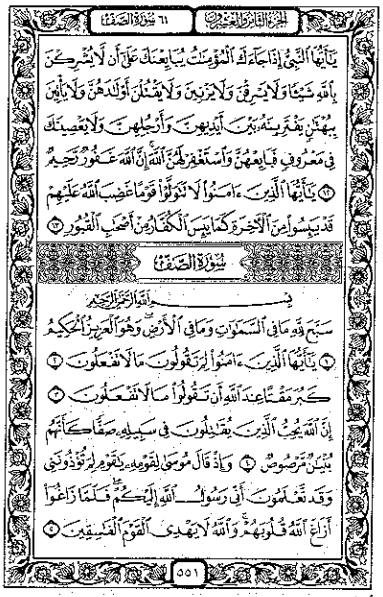
الجزء الثامن والعشرون ٦١ سورة الصف
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾
سُورَةُ الصَّفِّ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾
٥٥١

الشمس بفيه[1] ليطفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها.

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي، فقال، ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق**﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

﴿**ودين الحق**﴾ أي: الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه سلامة من الشر والفساد[2] فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكراً، ازداد به فرحاً وتبصراً.

﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان، بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم إلا فلجه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستناروا بنوره، واهتدوا بهديه، في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين * يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجلّ مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال ﴿**تؤمنون بالله ورسوله**﴾

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله[3]، فلهذا قال: ﴿**وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو[4] كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه ﴿**خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.

وفي الآخرة الفوز[5] بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: ﴿**يغفر لكم ذنوبكم**﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

﴿**ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها، أنهارٌ من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، ﴿**ومساكن طيبة في جنات عدن**﴾ أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل

(١) في ب: ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس.
(٢) كذا في ب، وفي أ: وُترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد.
(٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله.
(٤) في ب: وإن كان.
(٥) في ب: والخير الأخروي بالفوز.

عليين، يتراءآهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقرّ أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده[1]، وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها[2]، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وسرورها[3] بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿**وأخرى تحبونها**﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿**نصر من الله**﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿**وفتح قريب**﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد][4] فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿**وبشر المؤمنين**﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إنّ في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»[5].

ثم قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله**﴾ [أي:] بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته[6] تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده ونابذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تَعَلُّمُ كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].

ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿**كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله**﴾ أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً[7]: من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: ﴿**نحن أنصار الله**﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿**فآمنت طائفة من بني إسرائيل**﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿**وكفرت طائفة**﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿**فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم**﴾ أي: قويناهم ونصرناهم عليهم.

﴿**فأصبحوا ظاهرين**﴾ عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد

---

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري ـ راوي الحديث ـ فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منبهاً.

كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.

تمت ولله الحمد[1]

تفسير سورة الجمعة [وهي] مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾ أي: يسبح لله وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تدبيره، ﴿القدوس﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿العزيز﴾ القاهر للأشياء كلها، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢ ـ ٤﴾ ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يتلو عليهم آياته﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكيهم﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي: علم القرآن[2] وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين[3]، فلله عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجلّ منحة، وقوله: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم أي: فيمن باشر[4] دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكلا المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

﴿٥ ـ ٨﴾ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين * قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر الله منته على هذه الأمة، الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها ويعملوا بما فيها[5]، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً

(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.
(٢) في ب: علم الكتاب.
(٣) في ب: وقادة المتقين.
(٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.
(٥) في ب: ويعملوا بها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟
إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
۝١٠ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ
مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١
سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ
جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤
٥٥٤

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم[٢] إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿**ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم**﴾ من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿**والله عليم بالظالمين**﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون[٣] منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿٩ ـ ١١﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين**﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العَدْوُ الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿**وذروا البيع**﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من آكد الفروض.

﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض**﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿**واذكروا الله كثيراً**﴾ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها**﴾ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، ﴿**وتركوك قائماً**﴾ تخطب الناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، ﴿**قل ما عند الله**﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿**خيرٌ من اللهو ومن التجارة**﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان[٤] يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود[١]، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء لله: ﴿**فتمنوا الموت**﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين[1] يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،
ولله الحمد والثناء[2]

تفسير سورة المنافقين[3] مدنية

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها[4]، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا﴾** على وجه الكذب: **﴿نشهد إنك لرسول الله﴾** وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن **﴿الله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾** في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم، **﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾** حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، **﴿ذلك﴾** الذي زين لهم النفاق **﴿بـ﴾** سبب **﴿أنهم﴾** لا يثبتون على الإيمان.

بل **﴿آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم﴾** بحيث لا يدخلها الخير أبداً، **﴿فهم لا يفقهون﴾** ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم، **﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾** من روائها ونضارتها، **﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾** أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح، شيء، ولهذا قال: **﴿كأنهم خشب مسندة﴾** لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، **﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾** وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم[5] يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء **﴿هم العدو﴾** على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه وَلِي، وهو العدو المبين، **﴿فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾** أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبينت أدلته واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء **﴿وإذا قيل﴾** لهؤلاء المنافقين **﴿تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾** عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و **﴿لووا رؤوسهم﴾** امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، **﴿ورأيتهم يصدون﴾** عن الحق بغضاً له **﴿وهم مستكبرون﴾** عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه

---

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.

(٢) في ب: بمن الله وعونه والحمد لله رب العالمين.

(٣) كذا في النسختين.

(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

(٥) وفي ب: وضعف قلوبهم وريبها.

سواء أستغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ **﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾

وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد:

﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ فإنهم ـ بزعمهم ـ لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور[1]، ولهذا قال الله رداً لقولهم: **﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾** فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء، **﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾** فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم[2].

وقال كبيرهم عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء ـ يعني المهاجرين ـ إلا كما قال القائل: «غذ كلبك يأكلك»[3].

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة **﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾** بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه[4] هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال [تعالى:] **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾** فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. **﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾** [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩ ـ ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: **﴿ومن يفعل ذلك﴾** أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله **﴿فأولئك هم الخاسرون﴾** للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ وقوله: **﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾** يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات[5]، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: **﴿مما رزقناكم﴾** ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء[6] مما رزقهم الله الذي يسره لهم[7] ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكّن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: **﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول﴾** متحسراً على ما فرّط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: **﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾** أي: لأتدارك ما فرّطت فيه، **﴿فأصّدّق﴾** من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، **﴿وأكن من الصالحين﴾** بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: **﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾** المحتوم لها **﴿والله**

---

(١) في ب: بالحقائق.

(٢) في ب: وتبيّن ما في قلوبهم.

(٣) في ب: سمّن كلبك.

(٤) في ب: ومن اتبعه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.

(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

(٧) في ب، مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه.

خبير بما تعملون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،

ولله الحمد

تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١ ـ ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير * خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير * يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسداه من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، **﴿والله بما تعملون بصير﴾** فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: **﴿خلق السماوات والأرض﴾** أي: أجرامهما، [وجميع] ما فيهما فأحسن خلقهما، **﴿بالحق﴾** أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾** كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً. **﴿وإليه المصير﴾** أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه[1]، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: **﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾** أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. **﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾** أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليماً بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥ ـ ٦﴾ ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته، وتجتنب مساخطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضين، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل[2] بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها، **﴿ولهم عذاب أليم﴾** في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: **﴿ذلك﴾** النكال والوبال، الذي أحللناه بهم بأنهم **﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾** أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: **﴿أبشر يهدوننا﴾** أي: فليس لهم فضل علينا، ولأي: شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها **﴿فكفروا﴾** بالله **﴿وتولوا﴾** عن طاعة الله، **﴿واستغنى الله﴾** عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً، **﴿والله غني حميد﴾** أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، **﴿وذلك على الله يسير﴾** فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت[3] على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

﴿٨﴾ ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

(١) في ب: أولاكم.

(٢) في ب: رسلهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا.

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه[١]، وسماه الله نوراً، فإن النور[٢] ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي[٣]، **﴿والله بما تعملون خبير﴾** فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿٩ ــ ١٠﴾ ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾

يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويُرْفعُ أقوامٌ إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوامٌ إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: **﴿ذلك يوم التغابن﴾**.

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي: شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: **﴿ومن يؤمن بالله﴾** [أي:] إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، **﴿ويعمل صالحاً﴾** من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، **﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾** **﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾** أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿١١ ــ ١٣﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين * الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾

يقول تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾** وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن[٤] لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها[٥] والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب[٦]، كما قال تعالى: **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾** وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾** في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من[٧] الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله[٨]، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله[٩] في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾** فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله:] **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا**

(١) في ب: الإيمان به، وبرسوله، وبكتابه.
(٢) في ب: لأن النور.
(٣) في ب: النواهي.
(٤) في ب: ممن.
(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.
(٦) في ب: من الأجر العظيم.
(٧) في ب: وهو.
(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.
(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين.

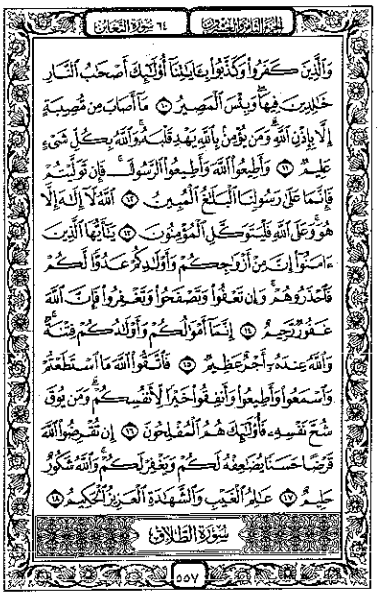
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ
وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾
سُورَةُ الطَّلَاقِ
٥٥٧
٦٤ سورة التغابن

الرسول﴾ أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح، ﴿**فإن توليتم**﴾ [أي] عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿**فإنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح وتقوم[1] به عليكم الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿**الله لا إله إلا هو**﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل، ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ أي: فليعتمدوا[2] عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك[3] إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل[4].

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذا وصفه[5]، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي[6]، ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿**وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم**﴾ لأن الجزاء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

﴿١٦ ـ ١٨﴾ ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم**﴾ يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد[7] ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله: ﴿**واسمعوا**﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿**وأطيعوا**﴾ الله ورسوله في جميع أموركم، ﴿**وأنفقوا**﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.

ولكن ثمَّ آفة تمنع كثيراً من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿**فأولئك هم المفلحون**﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مُرضٍ لله

(١) في ب: بلاغاً بيناً واضحاً فتقوم.
(٢) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.
(٣) كذا في ب، وفي أ: لذلك.
(٤) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً.
(٥) في ب: هذه صفته.
(٦) في ب: التي فيها محذور شرعي.
(٧) في ب: وقيّد.

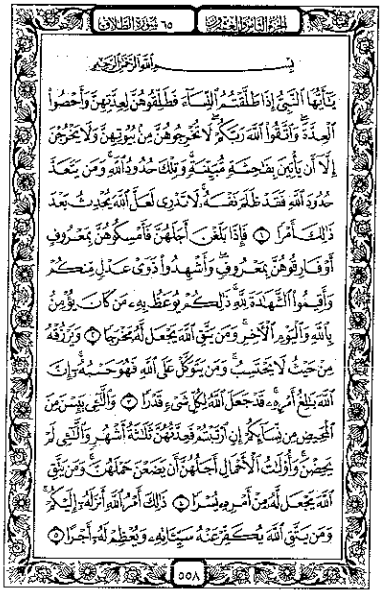
الجزء الثامن والعشرون ٦٥ سورة الطلاق
بسم الله الرحمن الرحيم
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ۙ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾
٥٥٨

تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغّب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يضاعفه لكم﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يغفر لكم﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

﴿والله شكور حليم﴾ حليم لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾. والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، ونأى[1] بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

(١) في ب: وأنواع التكاليف.
(٢) زيادة من هامش: ب.
(٣) في ب: بل تلزم بيتها.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، ﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير التغابن [ولله الحمد]

تفسير سورة الطلاق [وهي] مدنية

﴿١ ــ ٣﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ وللمؤمنين:

﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾ أي: أردتم طلاقهن ﴿**ف**﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿**طلقوهن لعدتهن**﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بيّنة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين و [لا] يتضح بأي: عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بَعْدُ، [وحقها في النفقة ونحوها] فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج][2]، وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوَليّها، وقوله: ﴿**واتقوا الله ربكم**﴾ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، فـ ﴿**لا تخرجوهن من بيوتهن**﴾ مدة العدة، بل يلزمن بيوتهن[3] الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿**ولا يخرجن**﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن[4] المسكن يجب على الزوج للزوجة[5]، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها[6]، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن.
(٥) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه.
(٦) في ب: عليها.

للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، ﴿وتلك حدود الله﴾ [أي:] التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها.

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفراق. ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ أي: على وجه المعاشرة [الحسنة]، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وأشهدوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذوي عدل منكم﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وأقيموا﴾ أيها الشهداء ﴿الشهادة لله﴾ أي: ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده[1]، ولا تراعوا بها قريباً لقرابته، ولا صاحباً لمحبته، ﴿ذلكم﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك[2] أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما تمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن[3] من اتقاه في الطلاق وغيره، فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطىء فيه[4]، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن فيها من مراجعة النكاح[5]، إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يمكنه استدراكها[6] والخروج منها.

وقوله: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فهو حسبه﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزيز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿والائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن

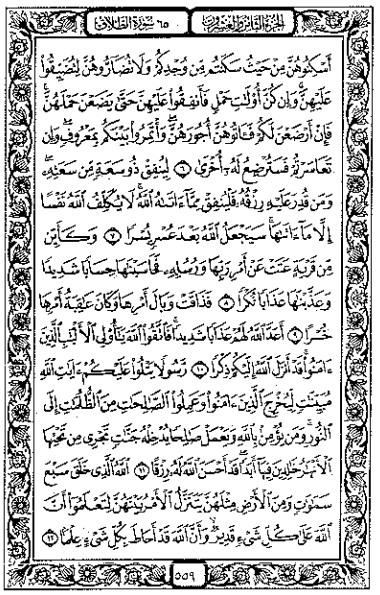

(١) في ب: وجه الله تعالى.

(٢) في ب: فإنَّ الإيمان بالله، واليوم الآخر يوجب لصاحبه.

(٣) في ب: ووعد من.

(٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه.

(٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح.

(٦) في ب: لا يتمكن من استدراكها.

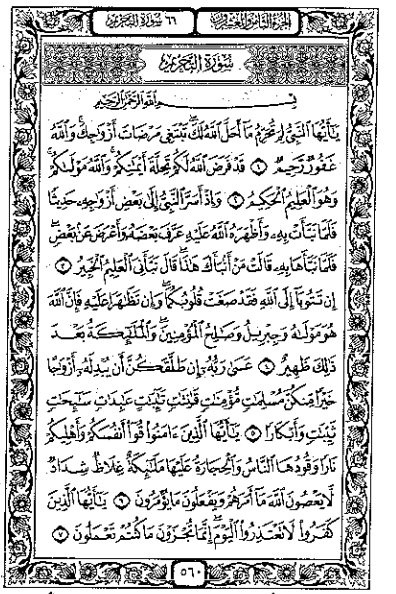
سورة التحريم
بسم الله الرحمن الرحيم
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ
وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ② وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا
فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③
إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ
ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ④ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا
خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ
ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ⑤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ
لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ⑥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑦
٥٦٠

ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿**واللائي يئسن من المحيض من نسائكم**﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يُرْجَ رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿**واللائي لم يحضن**﴾ أي: الصغار اللائي لم يأتهن الحيض بَعْدُ، والبالغات[1] اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾. [وقوله:] ﴿**وأولات الأحمال أجلهن**﴾ أي: عدتهن ﴿**أن يضعن حملهن**﴾ أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها، ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً**﴾ أي: من اتقى الله تعالى، يسّر له الأمور، وسهّل عليه كل عسير. ﴿**ذلك**﴾ [أي:] الحكم الذي بيّنه الله لكم ﴿**أمر الله أنزله إليكم**﴾ لتمشوا عليه، [وتأتموا] وتقوموا به وتعظموه.

﴿**ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً**﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿٦ ــ ٧﴾ ﴿**اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى * لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً**﴾ تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان[2] بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وُجد الزوج وعسره، ﴿**ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن**﴾ أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملّلن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن، على وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف، ﴿**وإن كن**﴾ أي: المطلقات ﴿**أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن**﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت باثناً، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن[3]، فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا، ﴿**فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن**﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل، ﴿**وائتمروا بينكم بمعروف**﴾ أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه[4] من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما[5] ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير[6].

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة[7]، وينصح على ذلك.

﴿**وإن تعاسرتم**﴾ بأن لم تتفقوا[8] على إرضاعها لولدها، فلترضع[9] له أخرى غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ وهذا حيث كان الولد يقبل ثَدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه،

---

(١) في ب: أو البالغات.
(٢) في ب: إسكانهن.
(٣) في ب: إلى وضع الحمل.
(٤) في ب: فيها.
(٥) في ب: بينهما.
(٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.
(٧) في ب: والمنازعة.
(٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.
(٩) في ب: فسترضع له أخرى.

ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه[1]، عينَّ تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن[2] أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته، ثم قدر تعالى النفقة، بحسب حال الزوج، فقال:

﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء.

﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيق عليه﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ من الرزق.

﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾.

﴿٨ ـ ١١﴾ ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً * فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسل أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم[3] شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به]، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ من الواجبات والمستحبات.

﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ [أي:] ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿١٢﴾ ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى، وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون

[تم تفسيرها والحمد لله]

(١) في ب: لا خروج له منه.

(٢) في ب: يتمكن.

(٣) في ب: تغن عنهم.

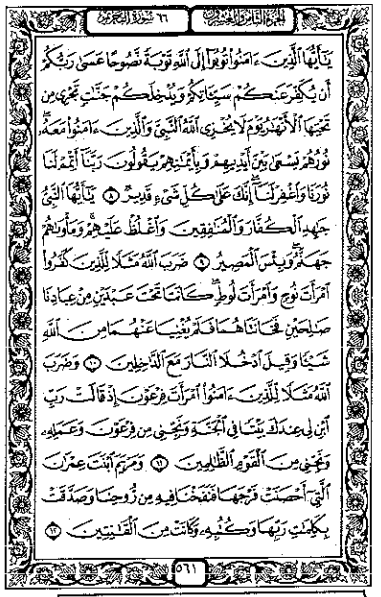

تفسير سورة التحريم
[وهي] مدنية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾ هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سريته «مارية» أو شُرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات﴿يا أيها النبي﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

سورة الملك
بسم الله الرحمن الرحيم
تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ① الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ② الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفوت فارجع البصر هل ترى من فطور ③ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ④ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ⑤ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ⑥ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ⑦ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ⑧ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ⑨ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ⑩ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ⑪ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ⑫
٥٦٢

﴿تبتغي﴾ بذلك التحريم ﴿مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾[1] أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة[2] بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿وهو العليم الحكيم﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله:] ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسرَّ لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرَّفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرماً منه ﷺ وحلماً، فـ ﴿قالت﴾ له: ﴿من أنبأك هذا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله:] ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما[3] قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تعاونا[4] على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه[5]، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول[6]، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق[7] عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكن، فإنه سيلقى[8]، ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تائبات﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷺ فيما يحب، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا

(١) في ب: فقال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا عامّ في جميع أيمان المؤمنين.
(٢) في ب: وما به تتكفر.
(٣) في ب: أن قلوبكما.
(٤) في ب: تتعاونا.
(٥) في ب: أنصاره.
(٦) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخذول.
(٧) في ب: لا يضيق.
(٨) في ب: سيجد.

الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

فـ ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد]، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل[1] تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي: غليظة أخلاقهم، عظيم[2] انتهارهم، يفزعون بأصواتهم، ويخيفون[3] بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمتثلون[4] فيهم أمر الله، الذي حتَّم عليهم العذاب[5] وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ [أي:] فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي تعطى المنافقين، ويسألون الله، أن يتمم[6] لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما[7] معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه[8] والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة[9]، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و] على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠ ـ ١٢﴾ ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين * وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ هذان المثلان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكأن في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا﴾ أي: المرأتان ﴿تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فخانتاهما﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

(١) في ب: وفيمن يدخل.
(٢) في ب: شديد.
(٣) في ب: ويزعجون.
(٤) في ب: وينفذون.
(٥) في ب: بالعذاب.
(٦) في ب: يتم.
(٧) في ب: بما.
(٨) في ب: إلا وجه الله.
(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحجة والموعظة الحسنة.

بغياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن امرأتيهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله:] ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم [عليه السلام]، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال] ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته[1] بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

تمت ولله الحمد

تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١ ــ ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن[2] الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعده إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال:

﴿٥ ــ ١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير * وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

(١) في ب: أي المداومين على طاعة الله.

(٢) في ب: وذلك أن.

للسماء [وجمالا]، ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وجعلناها﴾ أي: المصابيح ﴿رجوماً للشياطين﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين، ﴿وأعتدنا لهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب السعير﴾ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلهذا قال: ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ الذي يهان به أهله[1] غاية الهوان، ﴿إذا ألقوا فيها﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾ أي: صوتاً عالياً فظيعاً، ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟!! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها، ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأيُّ عناد وتكبُّر وظلم يشبه هذا؟

﴿وقالوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم - في الإيمان - بحسب ما منَّ الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم:

﴿١١﴾ ﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾ أي: بُعْداً لهم وخسارة وشقاء.

فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

﴿١٢﴾ ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار[2]، فقال: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به[3]، ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، ووقاهم عذاب

(١) في ب: التي يهان بها أهلها.

(٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء.

(٣) في ب: ولا يقصرون عمّا أمرهم به.

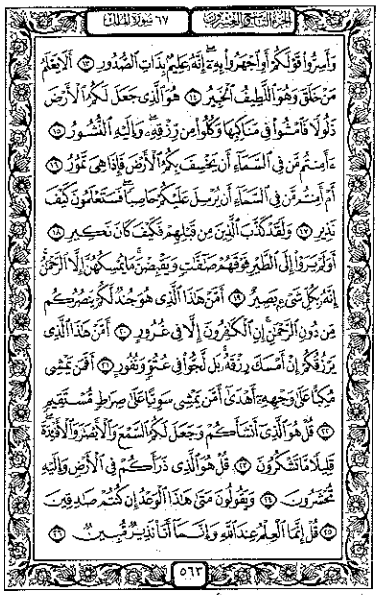

الجحيم، ولهم أجر كبير وهو ما أعده الله لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [المتواصلات] والمشتهيات، والقصور [والمنازل] العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله الله على أهل الجنان[4].

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه، فقال: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـ ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟!

ثم قال - مستدلاً بدليل عقلي على علمه -: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا [والخفايا والغيوب]، وهو الذي ﴿يعلم السر

(٤) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان.

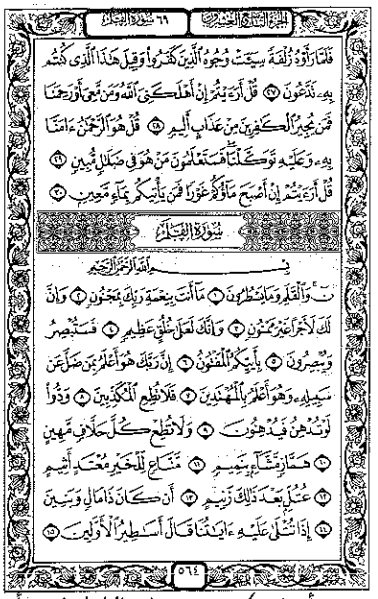

وأخفى﴾ ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، **﴿فامشوا في مناكبها﴾** أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿١٦ ـ ١٨﴾ ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: **﴿أأمنتم من في السماء﴾** وهو الله تعالى، العالي على خلقه.

﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ بكم وتضطرب، حتى تتلفكم وتهلككم[1].

﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: عذاباً من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم **﴿فستعلمون كيف نذير﴾** أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمنكم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان[2] أو قصر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبتم، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٩﴾ ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافاتٍ ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن[3] في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، **﴿إنه بكل شيء بصير﴾** فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ ﴿أمن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أمن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينفعوه مثقال ذرة، على أيِّ عدوٍّ كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسَفَهٌ.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون **﴿لجوا﴾** أي: استمروا **﴿في عتو﴾** أي: قسوة وعدم لين للحق **﴿ونفور﴾** أي: شرود عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أيُّ الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿٢٣ ـ ٢٦﴾ ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو

(١) في ب: حتى تهلكوا وتتلفوا.

(٢) في ب: الأمد.

(٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.

الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبين﴾ يقول تعالى ـ مبيناً أنه المعبود وحده، وداعياً عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة ـ: ﴿**قل هو الذي أنشأكم**﴾ أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مُظاهر، ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، التي هي أنفع أعضاء البدن[1]، وأكمل القوى الجسمانية، ولكنه[2] مع هذا الإنعام ﴿**قليلاً ما تشكرون**﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿**قل هو الذي ذرأكم في الأرض**﴾ أي: بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تنتفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة، ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون ﴿**ويقولون**﴾ تكذيباً:

﴿**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا[3] بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد، فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر وبين الإخبار بوقته، فإن الصدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿**٢٧ ـ ٣٠**﴾ ﴿**فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون * قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين * قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين**﴾ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿**زلفة**﴾ أي: قريباً، ساءهم ذلك وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم، وبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم هذا الذي كنتم به تكذبون، فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلى لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

ولما كان المكذبون للرسول ﷺ، [الذين] يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: أنتم[4] وإن حصلت لكم أمانيكم[5]، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحقيتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذاً، تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد، ولا يُجدِ عنكم شيئاً.

ومن قولهم، إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿**آمنا به وعليه توكلنا**﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفةً على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين.

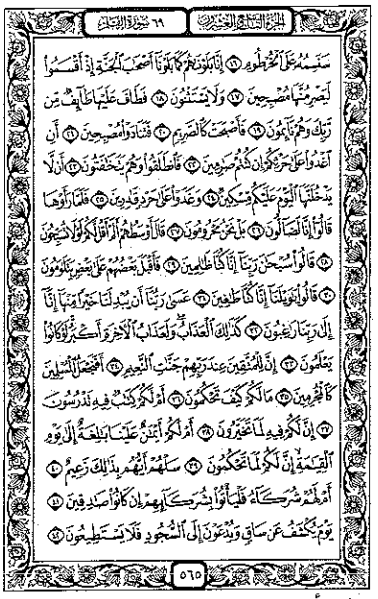

ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصاً بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حيٍّ، فقال: ﴿**قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً**﴾ أي: غائراً ﴿**فمن يأتيكم بماء معين**﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي أي: لا يقدر أحد على ذلك غير الله تعالى.

تمت ولله الحمد[6]

تفسير سورة ن وهي مكية

﴿**١ ـ ٧**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم * فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام، التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على

(١) في ب: وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن.

(٢) في ب: ولكنكم.

(٣) في ب: أن يخبروهم.

(٤) في ب: إنكم.

(٥) في ب: أمنيتكم.

(٦) في ب: تم تفسير سورة الملك والحمد لله.

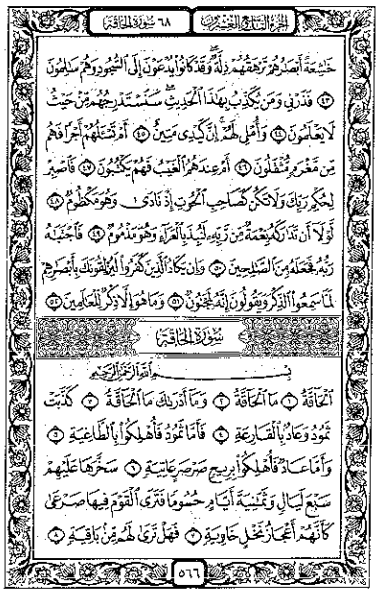
خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُمۡ مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾

براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون[1]، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿**وإن لك لأجراً**﴾ أي: عظيماً، كما يفيده التنكير، ﴿**غير ممنون**﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ أي: عالياً به، مستعلياً بخلقك الذي منَّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين [عائشة ـ رضي الله عنها ـ] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، و [الآيات] الحاثَّات على الخلق العظيم[2]، فكان له منها أكملها وأجلّها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بِشْرَهُ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿**فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون**﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس][3] للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿**هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨ ـ ١٦﴾ ﴿**فلا تطع المكذبين * ودوا لو تدهن فيدهنون * ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم * أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * سنسمه على الخرطوم**﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿**فلا تطع المكذبين**﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مُقْدِمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿**ودوا**﴾ أي: المشركون ﴿**لو تدهن**﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿**فيدهنون**﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه، ﴿**ولا تطع كل حلاف**﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو ﴿**مهين**﴾ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له همة[4] في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة. ﴿**هماز**﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيهم[5]، بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿**مشاء بنميم**﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿**مناع للخير**﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿**معتد**﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض[6] ﴿**أثيم**﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿**عتل بعد ذلك**﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿**زنيم**﴾ أي: دَعِيٌّ، ليس له أصل و [لا] مادة

(١) في ب: عنه ذلك.
(٢) في ب: على كل خلق جميل.
(٣) زيادة من هامش ب.
(٤) في ب: ليس له رغبة.
(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.
(٦) في ب: يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنمة أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيىء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿**أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين**﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطومه[1] في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿**١٧ - ٣٣**﴾ ﴿**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون**﴾ إلى آخر القصة يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون[2]، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وآن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثَمَّ مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿**فطاف عليها طائف من ربك**﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿**وهم نائمون**﴾ فأبادها وأتلفها ﴿**فأصبحت كالصريم**﴾ أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿**اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا**﴾ قاصدين له[3] ﴿**وهم يتخافتون**﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: ﴿**لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين**﴾ أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. ﴿**وغدوا**﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿**على حرد قادرين**﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، ﴿**فلما رأوها**﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿**قالوا**﴾ من الحيرة والانزعاج. ﴿**إنا لضالون**﴾ [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿**بل نحن محرومون**﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، فـ ﴿**قال أوسطهم**﴾ أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: ﴿**ألم أقل لكم لولا تسبحون**﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استثنيتم فقلتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا ﴿**سبحان ربنا إنا كنا ظالمين**﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، ﴿**فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون**﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿**قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين**﴾ أي: متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿**عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون**﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سُؤْلَه.

قال تعالى مبيناً[4] ما وقع: ﴿**كذلك العذاب**﴾ [أي:] الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿**ولعذاب الآخرة أكبر**﴾ من عذاب الدنيا ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب[5].

﴿**٣٤ - ٤١**﴾ ﴿**إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم * أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتابٌ فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم * أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين**﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب.

النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين[1] القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكمٌ باطل، ورأيه[2] فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها[3].

﴿٤٢ ـ ٤٣﴾ ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل [والزلازل] والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ ـ ٥٢﴾ ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين * وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، فـ ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ[4].

﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرماً يثقل عليهم.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يُتلقَّى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابَل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتمٌّ مهتم، بأن قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ

---

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

بالعراء﴾ أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية **﴿وهو مذموم﴾** ولكن الله[1] تغمده برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: **﴿فاجتباه ربه﴾** أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، . **﴿فجعله من الصالحين﴾** أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة **﴿والعاقبة للمتقين﴾** ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه[2] بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: **﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾** أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاقة وهي مكية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾

﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبآت الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كرره من قوله: **﴿الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة﴾** فإن لها شأناً عظيماً، وهولاً جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل][3]، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما[4] أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: **﴿كذبت ثمود﴾** وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحده]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر[5] به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل[6]: **﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾** وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يُرى إلا مساكنهم وجثثهم، **﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾** أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، **﴿عاتية﴾** [أي:] عتت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، **﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾** أي: نحساً وشراً فظيعاً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، **﴿فترى القوم فيها صرعى﴾** أي: هلكى موتى، **﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾** أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، **﴿فهل ترى لهم من باقية﴾** وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

﴿٩ ـ ١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية * إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذنٌ واعية﴾

أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البينات، ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين، **﴿والمؤتفكات﴾** أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا **﴿بالخاطئة﴾** أي: بالفعلة الطاغية، وهي[7] الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش[8] والفسوق، **﴿فعصوا رسول ربهم﴾** وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذَّبَ[9] الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع **﴿أخذة رابية﴾** أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتنَّ الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم **﴿في الجارية﴾** وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم

---

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(٧) في ب: هو.

(٨) في ب: المعاصي.

(٩) في ب: كذبوا.

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال: ﴿لنجعلها﴾ أي: الحادية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكرة﴾ تذكِّركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجّى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكِّر بأصله.

وقوله: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله[1].

﴿١٣ ـ ١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجّى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتتت الجبال واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها.

﴿والملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم[2]، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً عُراةً غُرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ ـ ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعْطَوْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما منَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي: أيقنت، فالظن ـ هنا ـ [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شَهِيٍّ، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة ـ وترك الأعمال السيئة[3] ـ من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر لله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ ـ ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه * خذوه فغلوه * ثم

---

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إبهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك.. في الطبعات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون﴾ هؤلاء أهل الشقاء، يُعْطَوْنَ كتب أعمالهم السيئة[1] بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً، وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزي[2]: **﴿يا ليتني لم أوت كتابيه﴾** لأنه يبشر بدخول النار، والخسارة الأبدية، **﴿ولم أدر ما حسابيه﴾** أي: ليتني كنت نسياً منسياً، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: **﴿يا ليتها كانت القاضية﴾** أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله[3]، فيقول: **﴿ما أغنى عني ماليه﴾** أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

﴿هلك عني سلطانيه﴾ أي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العُدد الخطيرة[4]، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: **﴿خذوه فغلوه﴾** أي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، **﴿ثم الجحيم صلوه﴾** أي: قلبوه على جمرها ولهبها، **﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً﴾** من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، **﴿فاسلكوه﴾** أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل: **﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾** بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، رادّاً ما جاؤوا به من الحق، **﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾** أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق، بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا، **﴿فليس له اليوم ها هنا﴾** أي: يوم القيامة **﴿حميم﴾** أي: قريب أو صديق يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله: **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾**.

وليس له طعامٌ إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم ومرارته لا يأكل هذا الطعام الذميم **﴿إلا الخاطئون﴾** الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم[5]، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿٣٨ ـ ٥٢﴾ ﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾

أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل[6] في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك، أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول

(١) في ب: كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة.
(٢) في ب: الحزن.
(٣) في ب: ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب.
(٤) في ب: فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العِدَدُ.
(٥) في ب: وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم.
(٦) في ب: بل دخل.

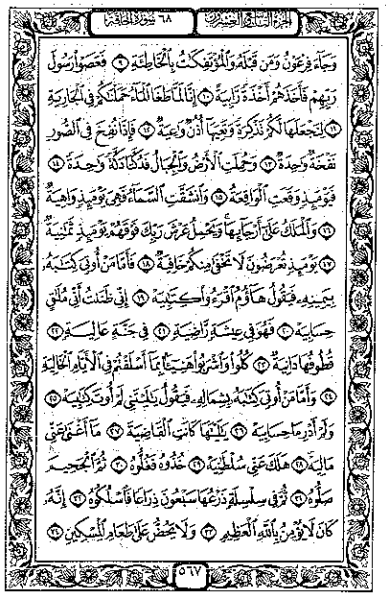

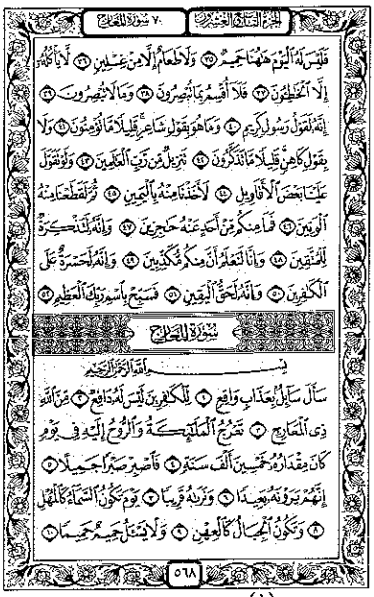
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۖ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۖ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٥٦٨

البشر[1]، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضاً، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه لو تقول عليه[2] وافترى ﴿**بعض الأقاويل**﴾ الكاذبة، ﴿**لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين**﴾ وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع، مات[3] منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوّل على الله، لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته، وقوله: ﴿**فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(١) في ب: قولاً للبشر.
(٢) في ب: علينا.
(٣) في ب: هلك.

﴿**وإنه**﴾ أي: القرآن الكريم ﴿**لتذكرة للمتقين**﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين، ﴿**وإنا لنعلم أن منكم مكذبين**﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة، ﴿**وإنه لحسرة على الكافرين**﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿**وإنه لحق اليقين**﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.

(٤) في ب: المكذبين.
(٥) في ب: وإما أن يدَّخر لهم في الآخرة.
(٦) في ب: بما جعلها.

تفسير سورة سأل سائل وهي مكية

﴿**١ ـ ٧**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً**﴾ يقول تعالى مبيناً لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعنتاً وتعجيزاً:

﴿**سأل سائل**﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿**بعذاب واقع * للكافرين**﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿**ليس له دافع * من الله**﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين[4]، فقال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة[5]، فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى عن عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿**ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه**﴾ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها[6] على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار، فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء

إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحيِّي ربها وتُسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأراوح[1]، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها، ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره، العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه[2]، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يُظْهِرُ لعباده في يوم القيامة، من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشؤون في الخليقة[3].

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿**فاصبر صبراً جميلا**﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تضجّر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً، ﴿**إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً**﴾ الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿٨ ـ ١٨﴾ ﴿**يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى**﴾

أي: ﴿**يوم**﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿**تكون السماء كالمهل**﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها، وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿٩﴾ ﴿**وتكون الجبال كالعهن**﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقاً، أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿**ولا يسأل حميم حميما * يبصرونهم**﴾ أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه، ﴿**يود المجرم**﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿**لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته**﴾ أي: زوجته ﴿**وأخيه * وفصيلته**﴾ أي: قرابته ﴿**التي تؤويه**﴾ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجيه لم ينفعه ذلك.

﴿**كلا**﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون[4]، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

(١) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٢) في ب: وإحسانه.

(٣) في ب: والشؤون الربانية.

(٤) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك.

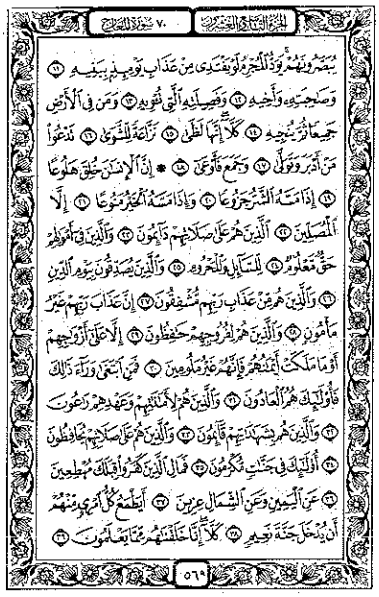

بيتي مؤمناً﴾ خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: **﴿وللمؤمنين والمؤمنات، ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾** أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

تفسير سورة قل أوحي إلي [وهي] مكية

﴿١ ـ ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ أي: **﴿قل﴾** يا أيها الرسول للناس **﴿أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾** صرفهم الله [إلى رسوله] لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذراً[1] لقومهم.

وأمر الله رسوله، أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، **﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾** أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يهدي إلى الرشد﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، **﴿فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾** فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، [المتضمنة لترك الشر] وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمَرْبى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة، **﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾** أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، **﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾** فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً، لأن له العظمة الكمال[2] في كل صفة كمال، واتخاذ الصاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى.

﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾ أي: قولاً جائراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهه وضعف عقله، وإلا فلو كان رزيناً مطمئناً لعرف كيف يقول.

﴿٥﴾ ﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا﴾ أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة[3] والرؤساء من الجن والإنس، فأحسنا بهم الظن، وظنناهم[4] لا يتجرؤون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه[5]، وانقدنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس[6] يعارض الهدى.

﴿٦﴾ ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع[7]، فزاد الإنس الجن رهقا أي: طغياناً وتكبراً، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو[8] أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه».

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان.

﴿وأنا لمسنا السماء﴾ أي: أتيناها واختبرناها، **﴿فوجدناها ملئت حرساً شديداً﴾** عن الوصول إلى أرجائها [والدنو منها]، **﴿وشهبا﴾** يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء.

﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله، **﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً**

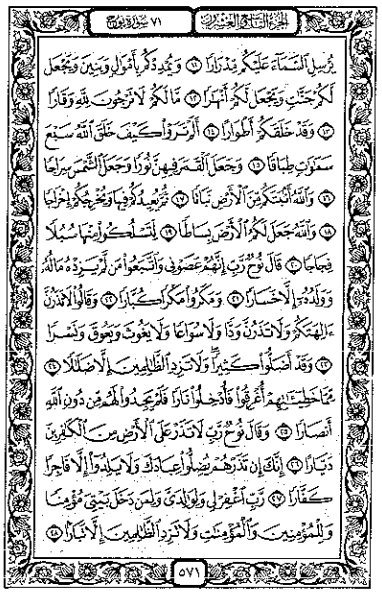

---

(١) في ب: منذرين لقومهم.
(٢) في ب: والجلال.
(٣) في ب: عزتنا السادة والرؤساء.
(٤) في ب: وحسبناهم.
(٥) في ب: سلكنا طريقه.
(٦) في ب: من الخلق.
(٧) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزاع، ويعبدونهم.
(٨) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن.

الجزء التاسع والعشرون ٧٢ سورة الجن
سورة الجن
بسم الله الرحمن الرحيم
قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ① يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ② وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ③ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ④ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ⑤ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ⑥ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ⑦ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ⑧ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ⑨ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ⑩ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ⑪ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ⑫ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ⑬
٥٧٢

﴿رصدا﴾ أي: مرصداً له، معداً لإتلافه وإحراقه أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من خير أو شر، فلهذا قالوا: **﴿وأنا لا ندري أشرٌ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾** أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم، أن هذا الأمر يريده الله، ويحدثه في الأرض، وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدباً مع الله.

﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ أي: فساق وفجار وكفار، **﴿كنا طرائق قددا﴾** أي: فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه، **﴿وأنا لما سمعنا الهدى﴾** وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده، أثَّر في قلوبنا فـ **﴿آمنا به﴾**.

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: **﴿فمن يؤمن بربه﴾** إيماناً صادقاً **﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾** أي: لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه[1]، وإذا سلم من الشر حصل له الخير، فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير وانتفاء كل شر.

﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ أي: الجائرون، العادلون عن الصراط المستقيم.

﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا﴾ أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها، **﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾** وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنهم **﴿لو استقاموا على الطريقة﴾** المثلى **﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾** أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعهم ذلك إلا ظلمهم وعدوانهم. **﴿لنفتنهم فيه﴾** أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم، ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعدا﴾ أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه وينقد له، بل غفل عنه ولهى، يسلكه عذاباً صعداً أي: شديداً بليغاً.

﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته، **﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾** أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه لبدا أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، مبيناً حقيقة ما تدعو إليه:

﴿إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد﴾ أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله [شيئاً] إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى، **﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾** أي: ملجأ ومنتصراً **﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾** أي: ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا[2] تقوم الحجة على الناس.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة.

﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ أي: شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم، **﴿فسيعلمون﴾** في ذلك الوقت حقيقة المعرفة **﴿من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾** حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة، **﴿قل﴾** لهم إن سألوك [فقالوا] «متى هذا الوعد»؟: **﴿إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾** أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله، **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾** من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب، **﴿إلا**

(١) في ب: فقالوا: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ أي: من آمن به إيماناً صادقاً فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

(٢) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.

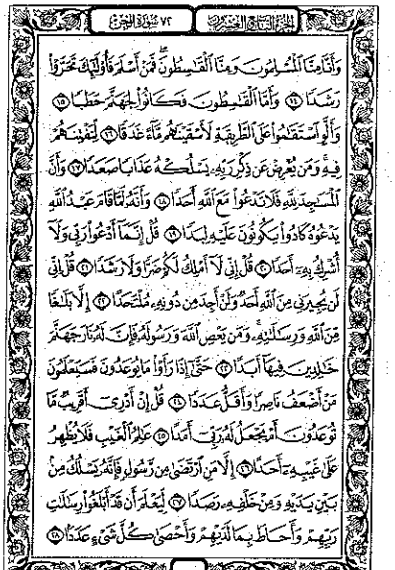
وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾
٥٧٣ سورة الجن ٧٢

من ارتضى من رسول﴾ أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به، وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا[1] يزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال: **﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾** أي: يحفظونه بأمر الله؛ **﴿ليعلم﴾** بذلك **﴿أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾** بما جعله لهم من الأسباب، **﴿وأحاط بما لديهم﴾** أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه، **﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾**.

وفي هذه السورة فوائد كثيرة:

منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسولٌ إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس[2]، فإن الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به، فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشدا، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض، ما تبتهج له القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاستماع الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأن الرسول محمداً ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط[3] اتخاذ من هذا وصفه إلهاً [آخر] مع الله.

ومنها: أن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه[4] بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحي إلي، ولله الحمد[5]

تفسير سورة المزمل [وهي] مكية

﴿١ ـ ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً * إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً * إن لك في النهار سبحاً طويلاً * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً * وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾

المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال [وحيه بإرسال] جبريل إليه، فرأى أمراً لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك[6] انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل، فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارىء»، فغطه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ، ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين.

فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه[7]، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات

(١) في ب: من غير أن تقر به الشياطين فلا.
(٢) في ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس.
(٣) في ب: من الخطأ والظلم.
(٤) في ب: واختصه.
(٥) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.
(٦) في ب: فاعتراه عند ذلك.
(٧) في ب: على أذية قومه.

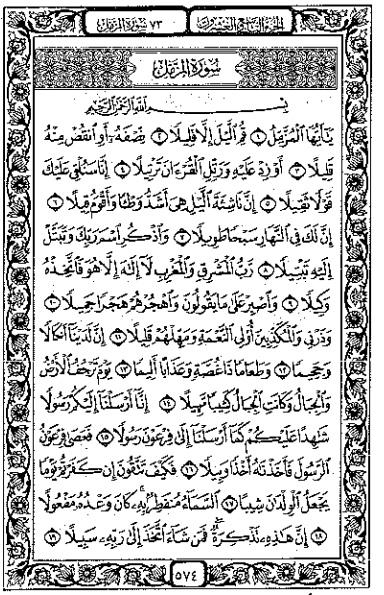

وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿**قم الليل إلا قليلا**﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿**نصفه أو انقص منه**﴾ أي: من النصف ﴿**قليلا**﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿**أو زد عليه**﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿**ورتّل القرآن ترتيلا**﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا**﴾ أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿**إن ناشئة الليل**﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿**هي أشد وطأ وأقوم قيلا**﴾ أي: أقرب إلى تحصيل[1] مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن[2] القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود[3]، ولهذا قال: ﴿**إن لك في النهار سبحاً طويلا**﴾ أي: ترددا على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه التفرغ التام، ﴿**واذكر اسم ربك**﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿**وتبتّل إليه تبتيلا**﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿**رب المشرق والمغرب**﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب [كلها]، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره.

﴿**لا إله إلا هو**﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿**فاتخذه وكيلا**﴾ أي: حافظاً ومدبراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل[4] من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم[5] بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿**وذرني والمكذبين**﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم، وقوله: ﴿**أولي النعمة**﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿**كلاَّ إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى**﴾ ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿**١٢ ـ ١٤**﴾ ﴿**إن لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا**﴾ أي: إن عندنا ﴿**أنكالاً**﴾ أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب[6]. ﴿**وجحيما**﴾ أي: ناراً حامية ﴿**وطعاما ذا غصة**﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿**وعذاباً أليما**﴾ أي: موجعاً مفظعاً، وذلك ﴿**يوم ترجف الأرض والجبال**﴾ من الهول العظيم، ﴿**وكانت الجبال**﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿**كثيباً مهيلا**﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

﴿**١٥ ـ ١٦**﴾ ﴿**إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا**﴾ يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

---

(١) في ب: حصول.
(٢) في ب: عليه.
(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.
(٤) في ب: وفعل المشق.
(٥) في ب: بل يعاملهم.
(٦) في ب: على ما يغضب الله.

فأخذه الله أخذاً وبيلا أي: شديداً بليغاً.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ **﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطرٌ به كان وعده مفعولاً﴾** أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره[1]، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتنفطر به السماء وتنتثر به نجومها **﴿كان وعده مفعولا﴾** أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

﴿١٩﴾ **﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾** [أي:] إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهواله[2]، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون، **﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾** أي: طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكّنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل.

﴿٢٠﴾ **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾** ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: **﴿والله يقدر الليل والنهار﴾** أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى.

﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهاً وعناء زائداً أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص، **﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾** أي: مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً، فإذا فتر أو كسل أو نعس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: **﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾** يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض المتسهل عليه[3]، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحاً]. **﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾** أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس[4] أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

وكذلك **﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه﴾** فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفاً للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول.

وتخفيفاً للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك[5]، فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فلله الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين[6] من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وأقيموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، **﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾** أي: خالصاً لوجه الله، من نية صادقة، وتثبيتاً من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله، فقال: **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾** الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(١) في ب: خطره.
(٢) في ب: وأهوالها.
(٣) في ب: ما يسهل عليه.
(٤) في ب: ويتكففوا عنهم.
(٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره.
(٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين.

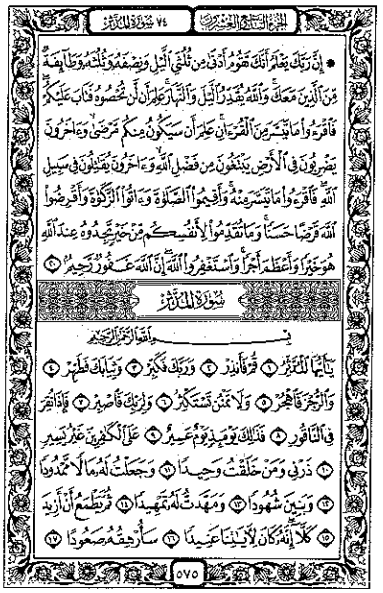

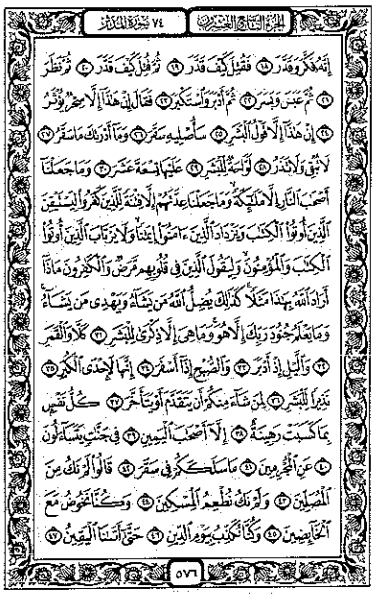

وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها[1].

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل[2]

تفسير سورة المدثر [وهي] مكية

﴿١ ـ ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة[3]، والصدع بالإنذار، فقال: **﴿قم﴾** [أي] بجد ونشاط **﴿فأنذر﴾** الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، **﴿وربك فكبر﴾** أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وثيابك فطهر﴾ يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿والرجز فاهجر﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها ومما نسب إليها من قول أو عمل.

ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها[4]، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتتكثر[5] بتلك المنة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وآنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿ولربك فاصبر﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله[6] من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس ـ بعد منة الله ـ من غير أن يطلب منهم

---

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.
(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.
(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.
(٤) في ب: صغارها وكبارها.
(٥) في ب: فتستكثر.
(٦) في ب: وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يبعد منه.

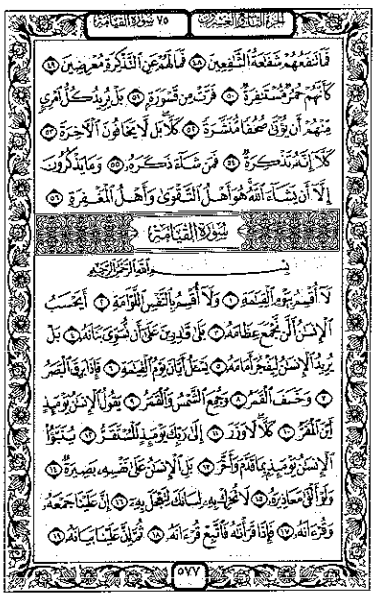

على ذلك[1] جزاء ولا شكوراً، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة[2]، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ﴿فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾ أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق[3] للبعث والنشور. ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ لكثرة أهواله وشدائده ﴿على الكافرين غير يسير﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

﴿١١ ـ ٣١﴾ ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذماً لم يذمه[4] غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ أي: خلقته منفرداً، بلا مال ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنميه وأربيه[5]، ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً﴾ أي: كثيراً ﴿و﴾ جعلت له ﴿بنين﴾ أي: ذكوراً ﴿شهوداً﴾ أي: دائماً حاضرين عنده، [على الدوام] يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

﴿ومهدت له تمهيدا﴾ أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على[6] ما يشتهي ويريد، ﴿ثم﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يطمع أن أزيد﴾ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك لأنه ﴿كان لآياتنا عنيداً﴾ أي: معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم ينقد لها ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه:

﴿إنه فكر﴾ [أي:] في نفسه، ﴿وقدّر﴾ ما فكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

﴿فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر﴾ لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتَسَوَّر على ما لا يناله هو و [لا] أمثاله، ﴿ثم نظر﴾ ما يقول، ﴿ثم عبس وبسر﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له، ﴿ثم أدبر﴾ أي: تولى ﴿واستكبر﴾ نتيجة سعيه الفكري والعملي والقولي، أن قال: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر﴾ أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار.

فتبّاً له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟!

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدىء المعيد[7].

فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى:

﴿سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر﴾ أي:

---

(١) في ب: أن يطلب عليهم بذلك.
(٢) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة.
(٣) في ب: الخلائق.
(٤) في ب: لم يذم به غيره.
(٥) في ب: أربيه، وأعطيه.
(٦) في ب: وحصل له.
(٧) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى.

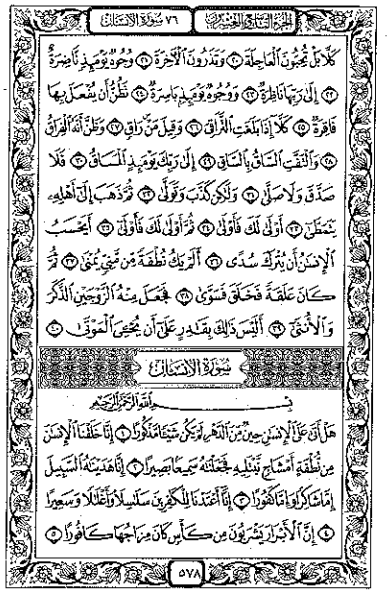

لا تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئاً إلا وبلغته، ﴿لوّاحة للبشر﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرّها.

﴿عليها تسعة عشر﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، [كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾] ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بعده في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد[1] الجليلة، ومميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

﴿٣٢ ـ ٥٦﴾ ﴿كلا والقمر * والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكبر * نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر * كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة * بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة * كلا بل لا يخافون الآخرة * كلا إنه تذكرة * فمن شاء ذكره * وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ ﴿كلا﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه والمقسم عليه قوله: ﴿إنها﴾ أي: النار ﴿لإحدى الكبر﴾ أي: لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة، فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر [عما خلق له و] عما يحبه الله [ويرضاه]، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ الآية.

﴿كل نفس بما كسبت﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رهينة﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب، ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم لم يرتهنوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿في جنات يتساءلون * عن المجرمين﴾ أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي: أيّ شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟ فـ ﴿قالوا لم نك من

(١) في ب: المقاصد.

المصلين * ولم نك نطعم المسكين فلا إخلاص للمعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، **﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾** هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد[1] **﴿حتى أتانا اليقين﴾** أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسدّ في وجوههم باب الأمل، **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم[2].

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهّب مما[3] يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: **﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾** أي: صادين غافلين عنها.

﴿كأنهم﴾ في نفرتهم الشديدة منها **﴿حمرٌ مستنفرة﴾** أي: كأنهم حمر وحش نفرت فنفر بعضها بعضاً، فزاد عدوها، **﴿فرت من قسورة﴾** أي: من صائد ورام يريدها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار.

فـ **﴿يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾** نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: **﴿كلا﴾** أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، **﴿بل لا يخافون الآخرة﴾** فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كلا إنه تذكرة﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، **﴿فمن شاء ذكره﴾** لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل.

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئته[4] نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، **﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾** أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،
ولله الحمد[5]

تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة﴾ ليست «لا» [ها] هنا نافية، [ولا زائدة] وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، **﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾** وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُمّيت «لوّامة» لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت[6]، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: **﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾** بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: **﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾** أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب[7] بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

---

(١) في ب: الباطل.
(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.
(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.
(٤) في ب: فإن مشيئة الله.
(٥) في ب: تمت ولله الحمد والمنة.
(٦) في ب: على ما فعلت.
(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿٧ ـ ١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره﴾.

أي: إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى: ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ ﴿وخسف القمر﴾ أي: ذهب نوره وسلطانه، ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلاقل المزعجات: ﴿أين المفر﴾؟ أي: أين الخلاص والفرار مما طرقنا وأصابنا[1]؟

﴿كلا لا وزر﴾ أي: لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي: بجميع عمله الحسن والسيىء، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي: شاهداً ومحاسباً، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد[2]، فَيُقرُّ به، كما قال تعالى:

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾.

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره يفيدانه شيئاً، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إنّ علينا بيانه﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾.

وقال هنا: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله في صدره، فقال: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك، فلا موجب لذلك.

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي: إذا كمّل جبريل قراءة ما أوحى الله[3] إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه.

﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من[4] المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه، وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه.

وفيها: أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه.

﴿٢٠ ـ ٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة * وتذرون الآخرة * وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكأن هذه الدار هي دار القرار، التي تبذل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آناء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل.

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتم، وربحتم ربحاً لا خسارة معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي: تنظر إلى ربها[5] على حسب مراتبهم: منهم

---

(١) في ب: والفكاك مما طرقنا وألم بنا.

(٢) في ب: بل يقرر بعمله.

(٣) في ب: إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك.

(٤) في ب: أن لا يبادر المتعلم للعلم قبل أن يفرغ المعلم.

(٥) في ب: أي ينظرون إلى ربهم.

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، وازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿**وجوه يومئذ باسرة**﴾ أي: معبسة ومكدرة[١]، خاشعة ذليلة ﴿**تظن أن يفعل بها فاقرة**﴾ أي: عقوبة شديدة، وعذاب أليم، فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

﴿٢٦ ـ ٤٠﴾ ﴿**كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق * فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى * أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منيّ يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ يعظ تعالى عباده، بذكر حال المحتضر عند السياق[٢]، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿**وقيل من راق**﴾ أي: من يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلٰهية[٣].

ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له، ﴿**وظن أنه الفراق**﴾ للدنيا.

﴿**والتفت الساق بالساق**﴾ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن[٤] ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.

فهذا الزجر، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها.

ولكن المعاند الذي[٥] لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده.

﴿**فلا صدَّق**﴾ أي: لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿**ولا صلى * ولكن كذب**﴾ بالحق في مقابلة التصديق، ﴿**وتولى**﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه، بل يذهب ﴿**إلى أهله يتمطى**﴾ أي: ليس على باله شيء، توعده بقوله: ﴿**أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى**﴾ وهذه كلمات وعيد، كررها لتكرير وعيده، ثم ذكَّر الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ أي: معطلاً[٦]، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يُثاب ولا يُعاقَب؟ هذا حسبان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

﴿**ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان**﴾ بعد المني ﴿**علقة**﴾ أي: دماً، ﴿**فخلق**﴾ الله منها الحيوان وسواه أي: أتقنه وأحكمه، ﴿**فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك**﴾ الذي خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة ﴿**بقادر على أن يحيي الموتى**﴾ بلى إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة، ولله الحمد والمنة، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤[٧].

المجلد التاسع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصرين عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿**١ ـ ٣**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها.

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم بل ليس مذكوراً.

ثم لما أراد الله تعالى خلقه، خلق [أباه] آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿**من نطفة أمشاج**﴾ أي: ماء مهين مستقذر ﴿**نبتليه**﴾ بذلك، لنعلم هل يرى حاله الأولى، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟

فأنشأه الله، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة

---

(١) في ب: كدرة.

(٢) في ب: بذكر المحتضر حال السياق.

(٣) في ب: فتعلقوا بالأسباب الإلٰهية.

(٤) في ب: أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته.

(٥) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٦) في ب: أي مهملاً.

(٧) في ب: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم.

إلى الله[١]، ورغّبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهّبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردّها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤ ــ ٢٢﴾ ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾ إلى آخر الثواب أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجرأ على المعاصي **﴿سلاسِلَ﴾** في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾.

﴿وأغلالا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وسعيرا﴾ أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها، ليذوقوا العذاب﴾ وهذا العذاب دائم لهم أبداً، مخلدون فيه سرمدا.

وأما **﴿الأبرار﴾** وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم[٢]، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم **﴿يشربون من كأس﴾** أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة[٣].

كما قال تعالى: ﴿في سدر مخضود * وطلح منضود﴾ ﴿وأزواج مطهرة﴾ ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾.

﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾ أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرا، أنى شاؤوا، وكيف أرادوا، فإن شاؤوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات المونقات.

وقد ذكر[٤] جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: **﴿يوفون بالنذر﴾** أي: بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون **بالنذر**، وهو لم يجب[٥] عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، **﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيرا﴾** أي: منتشراً فاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، **﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾** أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، **﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾**.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾** أي: لا جزاء مالياً، ولا ثناء قوليا.

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾ أي: شديد الجهمة والشر **﴿قمطريرا﴾** أي: ضنكاً ضيقا، **﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾** فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿ولقاهم﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم **﴿نضرة﴾** في وجوههم **﴿وسرورا﴾** في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن، **﴿وجزاهم بما صبروا﴾** على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة، فلم يتسخطوها، **﴿جنة﴾** جامعة لكل نعيم، **سالمة** من كل مكدر ومنغص، **﴿وحريرا﴾** كما قال [تعالى:] ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، **﴿لا يرون فيها﴾** أي: في الجنة **﴿شمساً﴾** يضرهم حرها، **﴿ولا زمهريرا﴾** أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تألم من حر ولا برد.

﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾ أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان[٦] **﴿بآنية من فضةٍ وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة﴾** أي: مادتها من فضة،

---

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.
(٢) في ب: أعمالهم.
(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تنعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.
(٤) في ب: ثم ذكر.
(٥) في ب: الذي هو غير واجب.
(٦) في ب: ﴿ويطاف عليهم﴾ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

[وهي] على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿قدروها تقديرا﴾ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ريِّهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بريهم[1].

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم، ﴿ويسقون فيها﴾ أي: في الجنة، من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، ﴿كان مزاجها﴾ أي: خلطها ﴿زنجبيلا﴾ ليطيب طعمه وريحه.

﴿عيناً فيها﴾ أي: في الجنة، ﴿تسمى سلسبيلا﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿ويطوف﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم.

﴿ولدان مخلدون﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إذا رأيتهم﴾ منتشرين في خدمتهم ﴿حسبتهم﴾ من حسنهم ﴿لؤلؤا منثورا﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم، ﴿وإذا رأيت ثم﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم[2]. ﴿رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة [المشجية]، ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات، اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سروراً، ولذةً وحبورا، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز برؤية[3] الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه، ﴿عاليهم ثياب سندس خضر﴾ أي: قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجلّ أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج[4]، والاستبرق: ما رقّ منه.

﴿وحلوا أساور من فضة﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولا، لأنه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثاً.

وقوله: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهورا﴾ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إن هذا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كان لكم جزاء﴾ على ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿وكان سعيكم مشكورا﴾ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا﴾ فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتمّ القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا﴾ أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿ولا تطع﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿آثماً﴾ أي: فاعلاً إثماً ومعصية ولا ﴿كفورا﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرون[5] إلا بما تهواه أنفسهم.

ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله[6]، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات

(١) في ب: لم تكفهم لريهم.
(٢) في ب: أي رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.
(٣) في ب: برضا.
(٤) في ب: ما غلظ الحرير.
(٥) في ب: لا بد أن تكون معصية لله لأنهم لا يأمرون.
(٦) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله.

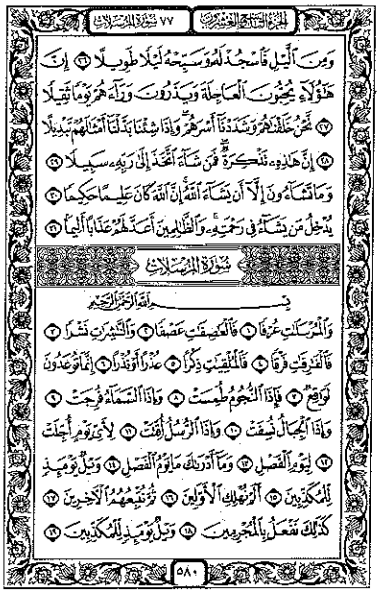

المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة[1].

﴿وسبحه ليلاً طويلا﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا﴾ الآية[2]: [وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يفد فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويطمئنون إليها، ﴿ويذرون﴾ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وراءهم﴾ أي: أمامهم ﴿يوماً ثقيلا﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

﴿٢٨﴾ ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشددنا أسرهم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا﴾ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم[3]، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إن الله كان عليماً حكيما﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أعد لهم عذاباً أليما﴾ [بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،

ولله الحمد والمنة[4]

تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١ ـ ١٥﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشراً * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع * فإذا النجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي: يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾** أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال[5]، بالمرسلات عرفا، وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية ووحيه إلى رسله.

و ﴿عرفا﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفا﴾ وهي [أيضاً] الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها، ﴿والناشرات نشرا﴾ يحتمل أنها الملائكة[6]، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي يُنشِر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها، ﴿فالملقيات ذكرا﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

---

(١) في ب: وذلك متضمنٌ لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.

يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، تلقيه إلى الرسل، ﴿عذراً أو نذرا﴾ أي: إعذاراً وإنذاراً للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم[1]، فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿إنما توعدون﴾ من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لواقع﴾ أي: متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

فإذا وقع حصل من التغير للعالم والأهوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشتد له الكروب، فتنطمس النجوم أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفا، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

﴿لأي: يوم أجّلت﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل.

ثم أجاب بقوله: ﴿ليوم الفصل﴾ [أي:] بين الخلائق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً، ثم توعد المكذب بهذا اليوم، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا[2] العقوبة البليغة.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ ﴿ألم نهلك الأولين * ثم نتبعهم الآخرين * كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه[3]، فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟ ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البينات، والعقوبات والمثلات.

﴿٢٠ ـ ٢٤﴾ ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿من ماء مهين﴾ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿في قرار مكين﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو ﴿إلى قدر معلوم﴾ ووقت مقدر، ﴿فقدرنا﴾ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فنعم القادرون﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً للحكمة، موافقاً للحمد[4].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبينات.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: أما امتننا[5] عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كفاتا﴾ لكم، ﴿أحياء﴾ في الدور، ﴿وأمواتا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وستراً لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وجعلنا فيها رواسي﴾ أي: جبالاً ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات أي: الطوال العراض، ﴿وأسقيناكم ماء فراتا﴾ أي: عذباً زلالا، قال تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ مع ما أراهم الله من النعم، التي انفرد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

﴿٢٩ ـ ٣٣﴾ ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب * إنها ترمي بشرر كالقصر * كأنه جمالة صفر * ويل يومئذ المكذبين﴾ هذا من الويل الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في

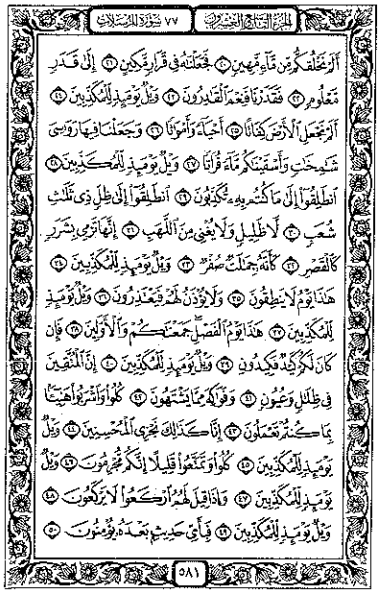

(١) في ب: أعذارهم.
(٢) في ب: فلذلك استحقوا.
(٣) في ب: عقابه.
(٤) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.
(٥) في ب: أمامنا.

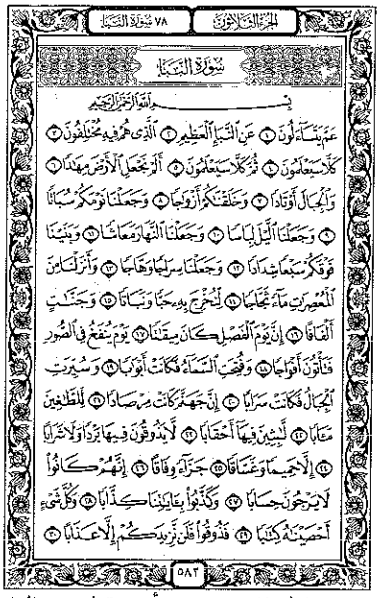

خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار أي: تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به.

﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من اللهب﴾ بل اللهب قد أحاط به، يمنة ويسرة ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾.

﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾.

ثم ذكر عظم شرر النار، الدال على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال:

﴿إنها ترمي بشرر كالقصر * كأنه جمالة صفر﴾ وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء، كريهة المرأى[1]، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها [من الأعمال المقربة منها].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٣٥ ـ ٤٠﴾ ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق، ﴿فإن كان لكم كيد﴾ تقدرون على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، ﴿فكيدون﴾ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٤١ ـ ٤٥﴾ ﴿إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ للمكذبين﴾ لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب[2] المحسنين، فقال: ﴿إن المتقين﴾ [أي:] للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿وعيون﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرها، ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل، ﴿بما كنتم تعملون﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم[3] المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ للمكذبين﴾ ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرماناً وخسراناً[4].

﴿٤٦ ـ ٥٠﴾ ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون * ويل يومئذ للمكذبين * وإذ قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويل يومئذ للمكذبين * فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستنقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿اركعوا﴾ امتنعوا من ذلك.

فأيُّ إجرام فوق هذا؟ وأيُّ تكذيب يزيد على هذا؟!!

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبين؟

فليس بعد النور المبين إلا دياجي

(١) في ب: كريهة المنظر.

(٢) في ب: ثواب.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.

(٤) في ب: حزناً وحرماناً.

الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين[١]، الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فتباً لهم، ما أعماهم! وويحاً لهم، ما أخسرهم وأشقاهم!

نسأل الله العفو والعافية [إنه جواد كريم. تمت].

تفسير سورة عم وهي مكية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم عم يتساءلون * عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون * كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ أي: عن أي: شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بيّن ما يتساءلون عنه، فقال: **﴿عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون﴾** أي: عن الخبر العظيم، الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: **﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾** أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون، حين يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًا، ويقال لهم: **﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾**.

ثم بيّن[٢] تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت[٣] به الرسل، فقال:

﴿٦ ـ ١٦﴾ ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً * وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهار معاشاً * وبنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً * لنخرج به حباً ونباتاً * وجناتٍ ألفافاً﴾ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم **﴿الأرض مهادا﴾** أي: ممهدة مهيأة[٤] لكم ولمصالحكم، من الحروث والمساكن والسبل. **﴿والجبال أوتادا﴾** تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد، **﴿وخلقناكم أزواجاً﴾** أي: ذكوراً وإناثاً من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون[٥] المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة المنكح.

﴿وجعلنا نومكم سباتا﴾ أي: راحة لكم، وقطعاً لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتنقطع[٦] حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وبنينا فوقكم سبعاً شدادا﴾ أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفاً للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: **﴿وجعلنا سراجاً وهّاجا﴾** نبه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح[٧].

﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ أي: السحاب **﴿ماء ثجاجا﴾** أي: كثيراً جداً.

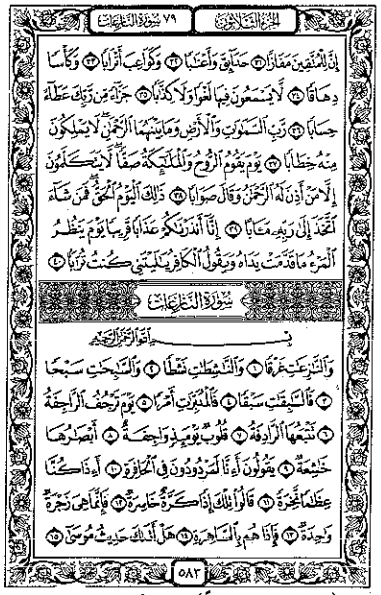
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾
سُورَةُ النَّازِعَاتِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾
٥٨٢

﴿لنخرج به حباً﴾ من بُرٍّ وشعير، وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون.

﴿ونباتاً﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتاً لمواشيهم، **﴿وجنات ألفافا﴾** أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة[٨]، التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عدها، كيف [تكفرون به و] تكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها؟!!

﴿١٧ ـ ٣٠﴾ ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً * يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً * وفتحت السماء فكانت أبواباً * وسيرت الجبال فكانت سراباً * إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآباً * لابثين فيها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا

---

(١) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين.
(٢) في ب: ثم ذكر.
(٣) في ب: على ما جاءت به الرسل.
(٤) في ب: مذللة.
(٥) في ب: فتتكون.
(٦) في ب: لتسكن.
(٧) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج وهي: حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع.
(٨) في ب: الجليلة.

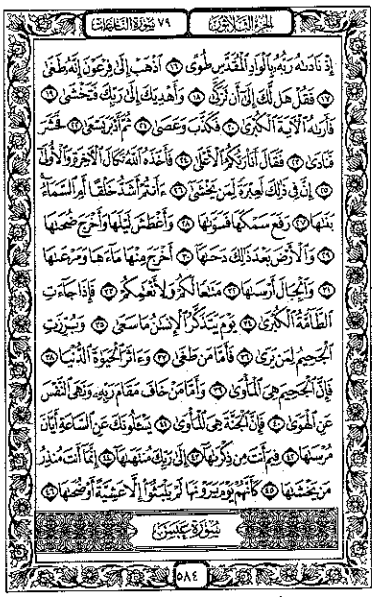

حميماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾

ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿**ميقاتا**﴾ للخلق ﴿**ينفخ في الصور فتأتون أفواجا**﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب، فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشقق[1] السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآبا، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و «الحقب» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها[2] ﴿**لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا**﴾ أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

﴿**إلا حميما**﴾ أي: ماء حاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، ﴿**وغساقا**﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفاقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليهم، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿**إنهم كانوا لا يرجون حسابا**﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة.

﴿**وكذبوا بآياتنا كذابا**﴾ أي: كذبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿**وكل شيء**﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿**أحصيناه كتابا**﴾ أي: كتبناه[3] في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.

﴿**فذوقوا**﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم ﴿**فلن نزيدكم إلا عذابا**﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

﴿٣١ ــ ٣٦﴾ ﴿إن للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً * جزاء من ربك عطاء حساباً﴾

لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال: ﴿إن المتقين مفازاً﴾ أي[4]: الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه[5] فلهم مفاز ومنجى، وبُعْدٌ عن النار، وفي ذلك المفاز لهم ﴿**حدائق**﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿**كواعب**﴾: وهي: النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهن[6].

﴿**والأتراب**﴾: اللاتي على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكنّ متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب[7].

﴿**وكأساً دهاقا**﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، ﴿**لا يسمعون فيها لغواً**﴾ أي: كلاماً لا فائدة فيه ﴿**ولا كذابا**﴾ أي: إثماً.

كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاما﴾.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] ﴿**جزاء من ربك**﴾ لهم ﴿**عطاء حساباً**﴾ أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها[8].

---

(١) في ب: وتنشق.
(٢) في ب: فإذا وردوها.
(٣) في ب: أثبتناه.
(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.
(٥) في ب: عن معصيته.
(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها.
(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.
(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.

﴿٣٧ ـ ٤٠﴾ ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً * يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً * ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً * إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم ﴿رب السماوات والأرض﴾ الذي خلقها ودبّرها ﴿الرحمن﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا.

ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكتون لا يتكلمون، و ﴿لا يملكون منه خطابا﴾ إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا، لأن ﴿ذلك اليوم﴾ هو ﴿الحق﴾ الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب، وفي ذلك اليوم ﴿يقوم الروح﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أشرف الملائكة[1]، ﴿والملائكة﴾ أيضاً يقوم الجميع ﴿صفا﴾ خاضعين لله ﴿لا يتكلمون﴾ إلا بما أذن لهم الله به[2].

فلما رغّب ورهّب، وبشّر وأنذر، قال:

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾ أي: عملاً، وقدم صدق يرجع إليه يوم القيامة.

﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا﴾ لأنه قد أزف مقبلاً، وكل ما هو آت فهو قريب.

﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ أي: هذا الذي يهمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه[3]، كما قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾ الآيات.

فإن وجد خيراً فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة عم،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النازعات وهي مكية

﴿١ ـ ١٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والنازعات غرقا * والناشطات نشطاً * والسابحات سبحاً * فالسابقات سبقاً * فالمدبرات أمراً * يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفةٌ * أبصارها خاشعة * يقولون أئنا لمردودون في الحافرة * أإذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة * فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾ هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه أقسم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: ﴿والنازعات غرقا﴾: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها.

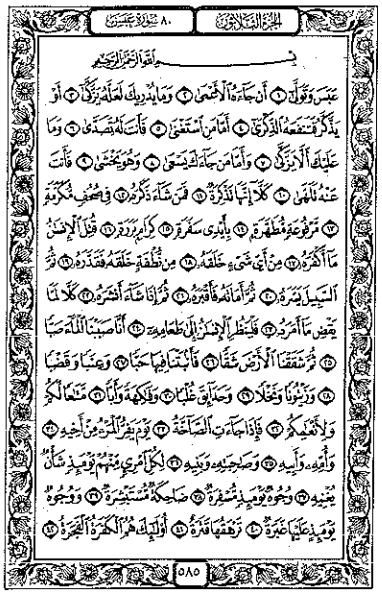

﴿والناشطات نشطا﴾: وهم الملائكة أيضاً، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط، أو أن النزع يكون لأرواح المؤمنين، والنشط لأرواح الكفار.

﴿والسابحات﴾ أي: المترددات في الهواء صعوداً ونزولاً ﴿سبحا﴾ ﴿فالسابقات﴾ لغيرها ﴿سبقا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله حتى لا تسترقه[4].

﴿فالمدبرات أمرا﴾ الملائكة، الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيراً من أمور العالم[5] العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار [وغير ذلك] ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ وهي قيام الساعة، ﴿تتبعها الرادفة﴾ أي: الرجفة الأخرى التي تردفها وتأتي تِلْوَها، ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ أي: موجفةٌ ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع.

﴿أبصارها خاشعة﴾ أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف،

---

(١) في ب: أفضل الملائكة.
(٢) في ب: إلا بإذنه.
(٣) في ب: فلينظر في هذه الدار ما قدّم لدار القرار.
(٤) في ب: لئلا تسترقه.
(٥) في ب: الذين جعلهم الله يدبرون كثيراً من أمور العالم.

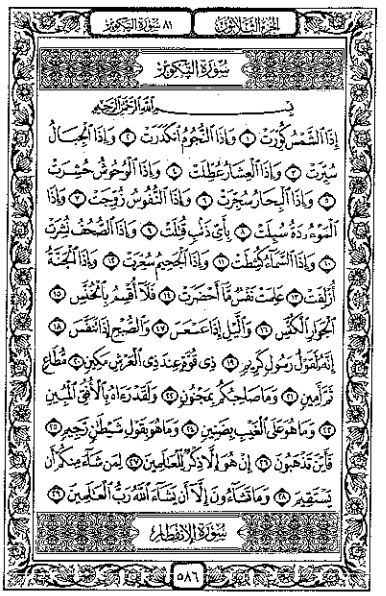

وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: **﴿أإذا كنا عظاماً نخرة﴾** أي: بالية فتاتا.

﴿قالوا تلك إذاً كرّة خاسرة﴾ أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتجرُّؤا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: **﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾** ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم **﴿بالساهرة﴾** أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

﴿١٥ ـ ٢٦﴾ ﴿هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوىً * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إنَّ في ذلك لعبرةً لمن يخشى﴾ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿هل أتاك حديث موسى﴾** وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

أي: هل أتاك حديثه **﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾** وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتنّ عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء[1] فقال له: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾** أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف، لعله **﴿يتذكر أو يخشى﴾**

﴿فقل﴾ له: **﴿هل لك إلى أن تزكى﴾** أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تُزَكِّي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك عليه، وأبيِّنُ لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

﴿فتخشى﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾**.

﴿فكذب﴾ بالحق **﴿وعصى﴾** الأمر، **﴿ثم أدبر يسعى﴾** أي: يجتهد في مُبارزة الحق ومحاربته، **﴿فحشر﴾** جنوده أي: جمعهم **﴿فنادى * فقال﴾** لهم: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** فأذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم، **﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾** أي: صارت عقوبته[2] دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، **﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾** فإن من يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿٢٧ ـ ٣٣﴾ ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد:

﴿أأنتم﴾ أيها البشر **﴿أشد خلقاً أم السماء﴾** ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر **﴿بناها﴾** الله، **﴿رفع سمكها﴾** أي: جرمها وصورتها، **﴿فسواها﴾** بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، **﴿وأغطش ليلها﴾** أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، **﴿وأخرج ضحاها﴾** أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد[3] الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي: بعد خلق السماء **﴿دحاها﴾** أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: **﴿أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾** أي: ثبتها في الأرض.

فَدَحْيُ الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: **﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾** إلى أن قال: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا**

---

(١) في ب: وابتعثه بالوحي واجتباه.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانتشر.

طائعين﴾[١].

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء[٢]، فقال:

﴿٣٤ ـ ٤١﴾ ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل محب عن حبيبه]. و ﴿يتذكر الإنسان ما سعى﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمّه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت[٣] لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فأما من طغى﴾ أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ على الآخرة، فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾[له] أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله، ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثّر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها[٤] عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير، ﴿فإن الجنة﴾ [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] ﴿هي المأوى﴾ لمن هذا وصفه.

﴿٤٢ ـ ٤٦﴾ ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿عن الساعة﴾ متى وقوعها و ﴿أيان مرساها﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال: ﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٥].

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي: إنما نذراتك [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه [تمت] والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١ ـ ١٠﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى﴾ وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصدّ عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: ﴿عبس﴾ [أي:] في وجهه ﴿وتولى﴾ في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريك لعله﴾ أي: الأعمى. ﴿يزّكّى﴾؟ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أو يذّكّر فتنفعه الذكرى﴾؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل[٦] بتلك الذكرى.

---

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ ـ رحمه الله ـ فقال: إلى أن قال ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ وصواب ذلك ما أثبته.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء.

(٣) في ب: هيئت.

(٤) في ب: الذي يصدها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتممتها.

(٦) في ب: فينتفع.

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك[1]، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يَتزَكَّ، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿١١ ــ ٣٢﴾ ﴿كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة * قتل الإنسان ما أكفره * من أي: شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلا لما يقض ما أمره * فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾

يقول تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: عمل به، كقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: ﴿في صحف مكرمة * مرفوعة﴾ القدر والرتبة ﴿مطهرة﴾ [من الآفاق و] عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي ﴿بأيدي سفرة﴾: وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده، ﴿كرام﴾ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بررة﴾ قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقِّيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً سويا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثم السبيل يسره﴾ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، [وبينه] وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي: بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو ــ مع هذا ــ لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له، فقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً﴾ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة، ﴿ثم شققنا الأرض﴾ للنبات ﴿شقاً * فأنبتنا فيها﴾ أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية ﴿حباً﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿وعنباً وقضباً﴾: وهو القتّ، ﴿وزيتوناً ونخلا﴾ وخصّ هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وحدائق غلبا﴾ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة، ﴿وفاكهة وأبّا﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والأبّ: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣ ــ ٤٢﴾ ﴿فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾

أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال، ﴿يفر المرء﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، ﴿من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته﴾ أي: زوجته ﴿وبنيه﴾ وذلك لأنه ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فوجوههم [يومئذ] ﴿مسفرة﴾ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، ﴿ضاحكة مستبشرة * ووجوه﴾ الأشقياء ﴿يومئذ عليها غبرة * ترهقها﴾ أي: تغشاها ﴿قترة﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أولئك﴾ الذين بهذا الوصف ﴿هم الكفرة الفجرة﴾ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجرؤوا على محارمه.

---

(١) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة التكوير [وهي] مكية

﴿١ ـ ١٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجرت * وإذا النفوس زوجت * وإذا الموؤودة سئلت * بأي: ذنب قتلت * وإذا الصحف نشرت * وإذا السماء كشطت * وإذا الجحيم سعرت * وإذا الجنة أزلفت * علمت نفس ما أحضرت﴾ أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة، تميز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار، **﴿وإذا النجوم انكدرت﴾** أي: تغيرت، وتساقطت[1] من أفلاكها، **﴿وإذا الجبال سيرت﴾** أي: صارت كثيباً مهيلاً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثاً، وسيرت عن أماكنها، **﴿وإذا العشار عطلت﴾** أي: عطل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها، فنبّه بالعشار، وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم، على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ أي: جمعت ليوم القيامة، ليقتص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقتص من القرناء للجمّاء[2]، ثم يقول لها: كوني تراباً.

﴿وإذا البحار سجّرت﴾ أي: أوقدت فصارت ـ على عظمها ـ ناراً تتوقد.

﴿وإذا النفوس زوجت﴾ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا﴾ ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا﴾ ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾.

﴿وإذا الموؤودة سئلت﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: **﴿بأي: ذنب قتلت﴾** ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا توبيخ وتقريع لقاتليها[3].

﴿وإذا الصحف﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر **﴿نشرت﴾** وفرقت على أهلها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

﴿وإذا السماء كشطت﴾ أي: أزيلت، كما قال تعالى: ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾.

﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ أي: أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك، **﴿وإذا الجنة أزلفت﴾** أي: قُرّبت للمتقين، **﴿علمت نفس﴾** أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط.

﴿ما أحضرت﴾ أي: ما حضر لديها من الأعمال [التي قدمتها] كما قال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة **﴿إذا الشمس كورت﴾**.

﴿١٥ ـ ٢٩﴾ ﴿فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أقسم تعالى **﴿بالخنس﴾** وهي الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: «الشمس»، و «القمر»، و «الزهرة»، و «المشتري»، و «المريخ»، و «زحل»، و «عطارد»، فهذه السبعة

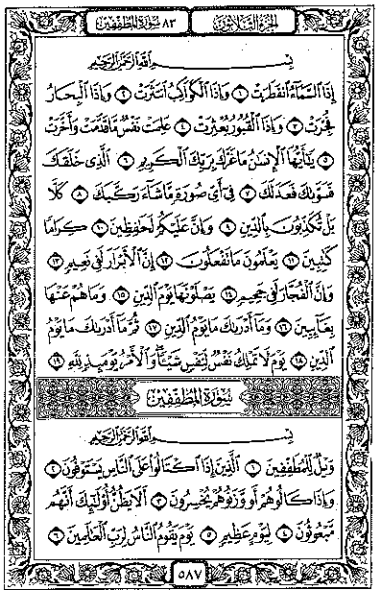

(١) في ب: وتناثرت.

(٢) في ب: حتى إنه يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء.

(٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها.

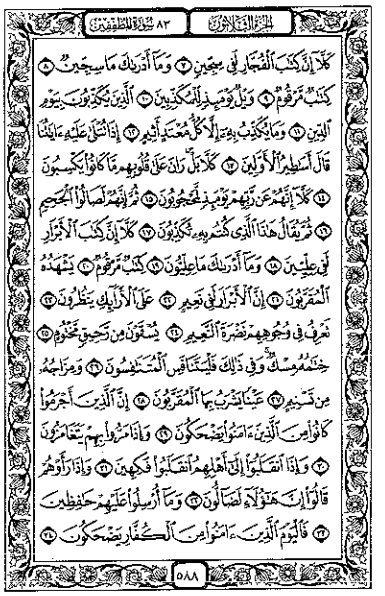

لها سيران:

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك[1]، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم[2] الكواكب السيارة وغيرها.

﴿والليل إذا عسعس﴾ أي: أدبر، وقيل: أقبل، ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي: بانت[3] علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن[4] وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين﴾

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، ﴿ذي قوة﴾ على ما أمره الله به.

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

﴿عند ذي العرش﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مكين﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مطاع ثم﴾ أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه[5] من الملائكة المقربين جنودٌ، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه، ﴿أمين﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُدَّ له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة. والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وما صاحبكم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بمجنون﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يُطفؤوا بها ما جاء به ما شاؤوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البيِّن، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه، عن غنيٍّ ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضريٍّ ولا بدويٍّ، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ لما ذكر جلالة كتابه[6] وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه، ﴿فأين تذهبون﴾ أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأرذل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والرذائل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ بعدما

---

(١) في ب: مع سائر الكواكب والفلك.
(٢) في ب: الكواكب.
(٣) في ب: بدت.
(٤) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.
(٥) في ب: لأنه.
(٦) كذا في ب، وفي أ: جلالته.

تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي: فمشيته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمانع.

وفي هذه الآية وأمثالها، ردٌّ على فرقتي القدرية النفاة، والقدريّة المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

تفسير سورة الانفطار [وهي] مكية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي: إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتثرت[1] نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحراً واحداً، وبعثرت القبور بأن أخرجت[2] ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال.

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي[3].

و [هنالك] يفوز المتقون، المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿٦ ـ ١٢﴾ ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي: صورة ما شاء ركبك * كلا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرىء على مساخطه[4]: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

أليس هو ﴿الذي خلقك فسواك﴾ في أحسن تقويم؟ ﴿فعدلك﴾ وركبك تركيباً قويماً معتدلاً، في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات [فلهذا قال تعالى ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾

[وقوله:] ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي: مع هذا الوعظ والتذكير، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم وتحترموهم.

﴿١٣ ـ ١٩﴾ ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين * وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ المراد بالأبرار، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا [وفي دار] البرزخ و [في] دار القرار.

﴿وإن الفجار﴾ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم، ففجرت أعمالهم ﴿لفي جحيم﴾ أي: عذاب أليم، في دار الدنيا و [دار] البرزخ وفي دار القرار ﴿يصلونها﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي: بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها.

﴿وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ ولو كانت لها قريبة [أو حبيبة] مصافية، فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

﴿والأمر يومئذ لله﴾ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

---

(١) في ب: وتناثرت.

(٢) في ب: بأن أخرج.

(٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يداه وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي.

(٤) في ب: المقصر في حقه المتجرىء على معاصيه.

الجزء الثلاثون
٨٥ سورة البروج
سورة البروج
بسم الله الرحمن الرحيم
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ
الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ⑭
ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ⑯ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
⑰ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑱ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑲ وَاللَّهُ مِنْ
وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ㉒
سورة الطارق
٥٩٠

تفسير سورة المطففين وهي مكية[1]

﴿١ ــ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ ﴿ويل﴾ كلمة عذاب، ووعيد[2] ﴿للمطففين﴾ وفسر الله المطففين بقوله[3] ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس﴾ أي: أخذوا منهم وفاءً عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه كاملاً من غير نقص.

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم، الذي للناس[4] عليهم بكيل أو وزن، ﴿يخسرون﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا سرقة[لأموال] الناس[5]، وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد[6] على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في [عموم هذا][7] الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج[8] [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعد تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدي الله، يحاسبهم[9] على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿٧ ــ ١٧﴾ ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم * ويل يومئذ للمكذبين * الذي يكذبون بيوم الدين * وما يكذب به إلا كل معتد أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ يقول تعالى: ﴿كلا إن كتاب الفجار﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين، والفاسقين ﴿لفي سجين﴾ ثم فسّر ذلك بقوله: ﴿وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل الضيق الضنك، و «سجين» ضد «عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار، كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة، مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ثم بين المكذبين بأنهم[10] ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وما يكذب به إلا كل معتد﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق، ولهذا ﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ الدالة على الحق، و [على] صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها، ﴿وقال﴾: هذا ﴿أساطير الأولين﴾ أي: من ترهات المتقدمين، وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله تكبراً وعناداً.

وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار[11]، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه، فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك، بأن حجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله، ﴿ثم إنهم﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال لهم توبيخاً

---

(١) في ب: وهي مدنية.
(٢) في ب: وعقاب.
(٣) في ب: بأنهم.
(٤) في ب: لهم.
(٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.
(٦) في ب: وعيداً.
(٧) في ب: يدخل في ذلك.
(٨) في ب: الحجة.
(٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم.
(١٠) في ب: ثم بينهم بقوله
(١١) في ب: وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار.

وتقريعاً: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض[1] عقوبات الذنوب.

﴿١٨ ـ ٢٧﴾ ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم﴾ لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأن كتابهم المرقوم ﴿يشهده المقربون﴾ من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويُنوِّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و «عليون» اسم لأعلى الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿على الأرائك﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، ﴿تعرف﴾ أيها الناظر إليهم ﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي: بهاء النعيم[2] ونضارته ورونقه، فإن توالي اللذة والسرور[3]، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مختوم﴾ ذلك الشراب، ﴿ختامه مسك﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، ﴿وفي ذلك﴾ النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عينٌ ﴿يشرب بها المقربون﴾ صِرْفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩ ـ ٣٦﴾ ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المؤمنين[4]، و [ذكر] ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزؤون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ صباحاً أو مساء ﴿انقلبوا فكهين﴾ أي: مسرورين مغتبطين[5]، وهذا من أعظم[6] ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن[7] في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرؤاً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: ﴿فاليوم﴾ أي: يوم القيامة، ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر المزينة، ﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم[8] في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

---

(١) في ب: من أعظم.
(٢) في ب: أي بهاءه.
(٣) في ب: فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح.
(٤) في ب: المحسنين.
(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.
(٦) في ب: وهذا أشد.
(٧) في ب: مع الأمن.
(٨) في ب: حين رأوهم.

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١ ــ ١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبوراً * ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا﴾ يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقت﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وأذنت لربها﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً.

﴿وألقت ما فيها﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وتخلت﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقياً[1].

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

﴿وينقلب إلى أهله﴾ في الجنة ﴿مسروراً﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب، ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي: بشماله من خلفه[2].

﴿فسوف يدعو ثبورا﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿ويصلى سعيرا﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كان في أهله مسرورا﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم[3] يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بلى إن ربه كان به بصيرا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿١٦ ــ ٢٥﴾ ﴿فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق * فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وسق﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿والقمر إذا اتسق﴾ أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لتركبن﴾ [أي:] أيها الناس ﴿طبقاً عن طبق﴾ أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم مميزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي: لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سراً، فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرة سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله، فآمنوا بالله، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فآمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقياً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.

مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة ولله الحمد

تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١ ـ ٢٢﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾** ﴿**والسماء ذات البروج**﴾ أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿**واليوم الموعود**﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿**وشاهد ومشهود**﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مُبْصِر ومُبْصَر، وحاضر ومحضور، وراءٍ ومَرْئي.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوماً كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم للدخول[1] في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدوداً [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿**النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود**﴾ وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة[2] يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿**الذي له ملك السماوات والأرض**﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه[3]، ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله[4]، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجازٍ لهم على فعالهم[5]؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى[6] عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه

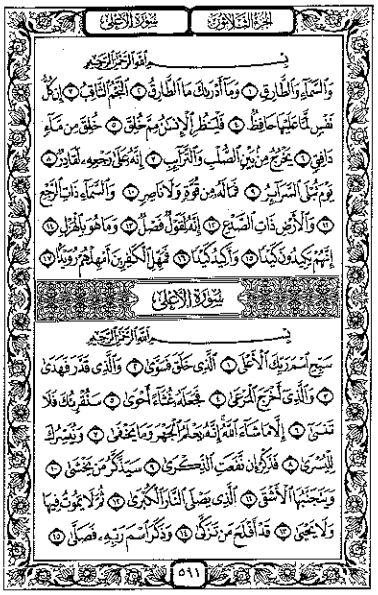

(١) في ب: على الدخول.

(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم مماليك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴿١٦﴾ والآخرة خير وأبقى ﴿١٧﴾ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴿١٨﴾ صحف إبراهيم وموسى ﴿١٩﴾

سورة الغاشية ﴿٨٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتاك حديث الغاشية ﴿١﴾ وجوه يومئذ خاشعة ﴿٢﴾ عاملة ناصبة ﴿٣﴾ تصلى نارا حامية ﴿٤﴾ تسقى من عين آنية ﴿٥﴾ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴿٦﴾ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴿٧﴾ وجوه يومئذ ناعمة ﴿٨﴾ لسعيها راضية ﴿٩﴾ في جنة عالية ﴿١٠﴾ لا تسمع فيها لاغية ﴿١١﴾ فيها عين جارية ﴿١٢﴾ فيها سرر مرفوعة ﴿١٣﴾ وأكواب موضوعة ﴿١٤﴾ ونمارق مصفوفة ﴿١٥﴾ وزرابي مبثوثة ﴿١٦﴾ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴿١٧﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴿١٨﴾ وإلى الجبال كيف نصبت ﴿١٩﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴿٢٠﴾ فذكر إنما أنت مذكر ﴿٢١﴾ لست عليهم بمصيطر ﴿٢٢﴾ إلا من تولى وكفر ﴿٢٣﴾ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴿٢٤﴾ إن إلينا إيابهم ﴿٢٥﴾ ثم إن علينا حسابهم ﴿٢٦﴾

٥٩٣

وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ بقلوبهم ﴿**وعملوا الصالحات**﴾ بجوارحهم ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير**﴾ الذي حصل به الفوز[1] برضا الله ودار كرامته.

﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [لقوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

﴿**إنه هو يبدئ ويعيد**﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك[2]، ﴿**وهو الغفور**﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿**الودود**﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود، الوادُّ لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه!! ﴿**ذو العرش المجيد**﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون «المجيد» نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإنَّ المجيد نعتٌ لله[3]، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿**فعال لما يريد**﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعالاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿**هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود**﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين، ﴿**بل الذين كفروا في تكذيب**﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات، ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدرة، كقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ففيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره. ﴿**بل هو قرآن مجيد**﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم، ﴿**في لوح محفوظ**﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

تفسير سورة الطارق وهي مكية

﴿١ ـ ١٧﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر * والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع * إنه لقول فصل * وما هو بالهزل * إنهم يكيدون كيداً * وأكيد كيداً * فمهل الكافرين أمهلهم رويدا**﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿**والسماء والطارق**﴾.

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿**النجم**

---

(١) في ب: حصل لهم الفوز.

(٢) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٣) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.

الثاقب﴾ أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [فينفذ حتى يرى في الأرض]، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها[1]، فيرى منها.

وسمي طارقاً، لأنه يطرق ليلاً، والمقسم عليه قوله: ﴿**إن كل نفس لما عليها حافظ**﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها، ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق**﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق ﴿**من ماء دافق**﴾ وهو المني الذي ﴿**يخرج من بين الصلب والترائب**﴾ يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها.

ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفقه، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى، لقال: «من بين الصلب والثديين»، ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء]، وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا ـ وإن كان المضى صحيحاً ـ فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه﴾ ففي الدنيا، تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة، فيظهر برُّ الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية، ﴿**فما له من قوة**﴾ يدفع بها عن نفسه[2]، ﴿**ولا ناصر**﴾ خارجي[3] ينتصر به، فهذا القَسَمُ على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿**والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع**﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقدار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿**إنه**﴾ أي: القرآن ﴿**لقول فصل**﴾ أي: حق وصدق، بَيِّنٌ واضح.

﴿**وما هو بالهزل**﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

﴿**إنهم**﴾ أي: المكذبين للرسول ﷺ، وللقرآن ﴿**يكيدون كيدا**﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، ﴿**وأكيد كيدا**﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا مَن الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده، ﴿**فمهل الكافرين أمهلهم رويدا**﴾ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبح وهي مكية

﴿١ ـ ١٩﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى * سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى * ونيسرك لليسرى * فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى * قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى**﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم[4]، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، ﴿**والذي قدر**﴾ تقديراً، تتبعه جميع المقدرات ﴿**فهدى**﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: ﴿**والذي أخرج المرعى**﴾ أي: أنزل من السماء ماء فأنبت به أنواع[5] النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان[6]، ثم بعد أن

(١) في ب: وينفذها.

(٢) في ب: أي من نفسه يدفع بها

(٣) في ب: من خارج.

(٤) في ب: بمعناها العظيم الجليل.

(٥) في ب: أصناف.

(٦) في ب: وجميع الحيوانات.

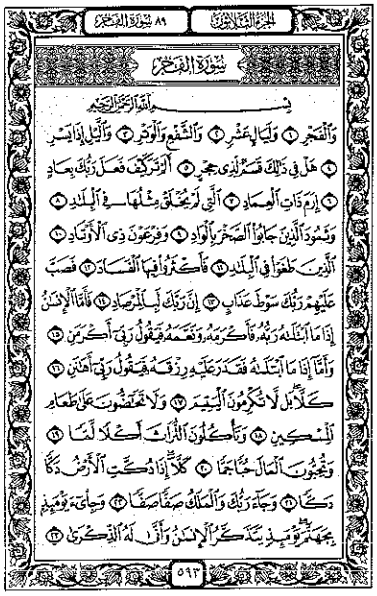

الجزء الثلاثون ٩٠ سورة البلد
يقول يليتني قدمت لحياتي ﴿٢٤﴾ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴿٢٥﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿٢٦﴾ يا أيتها النفس المطمئنة ﴿٢٧﴾ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴿٢٨﴾ فادخلي في عبادي ﴿٢٩﴾ وادخلي جنتي ﴿٣٠﴾
سورة البلد
بسم الله الرحمن الرحيم
لا أقسم بهذا البلد ﴿١﴾ وأنت حل بهذا البلد ﴿٢﴾ ووالد وما ولد ﴿٣﴾ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴿٤﴾ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴿٥﴾ يقول أهلكت مالا لبدا ﴿٦﴾ أيحسب أن لم يره أحد ﴿٧﴾ ألم نجعل له عينين ﴿٨﴾ ولسانا وشفتين ﴿٩﴾ وهديناه النجدين ﴿١٠﴾ فلا اقتحم العقبة ﴿١١﴾ وما أدراك ما العقبة ﴿١٢﴾ فك رقبة ﴿١٣﴾ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿١٤﴾ يتيما ذا مقربة ﴿١٥﴾ أو مسكينا ذا متربة ﴿١٦﴾ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴿١٧﴾ أولئك أصحاب الميمنة ﴿١٨﴾ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة ﴿١٩﴾ عليهم نار مؤصدة ﴿٢٠﴾
سورة الشمس
٥٩٤

استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، وصوّح عشبه، ﴿**فجعله غثاء أحوى**﴾ أي: أسود أي: جعله هشيماً رميماً، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومنشأها[1]، وهو القرآن، فقال: ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة، ﴿**إنه يعلم الجهر وما يخفى**﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما يريد[2]، ﴿**ونيسرك لليسرى**﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة[3]، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسراً[4].

﴿**فذكّر**﴾ بشرع الله وآياته ﴿**إن نفعت الذكرى**﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله: ﴿**سيذّكر من يخشى**﴾ الله تعالى، فإن خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه على أعماله[5]، توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي[6] والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله: ﴿**ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى**﴾ وهي النار الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، ﴿**ثم لا يموت فيها ولا يحيى**﴾ أي: يعذب عذاباً أليماً، من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

﴿**قد أفلح من تزكى**﴾ أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقّاها من الشرك والظلم ومساوىء الأخلاق، ﴿**وذكر اسم ربه فصلى**﴾ أي: اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة، وأما من فسر قوله: ﴿**تزكى**﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصلى، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا**﴾ أي: تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة، [﴿**والآخرة خيرٌ وأبقى**﴾] وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة، ﴿**إن هذا**﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿**لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى**﴾ اللذين هما أشرف المرسلين، سوى[7] النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سبح، ولله الحمد

تفسير سورة الغاشية
وهي مكية

﴿١ ــ ١٦﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم هل أتاك حديث الغاشية * وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع * وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة**﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامَّة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

---

(١) في ب: ومادتها.
(٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد.
(٣) في ب: أخرى.
(٤) كذا في ب، وفي أ: يسيراً.
(٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال.
(٦) في ب: الانكفاف عمّا يكرهه الله.
(٧) في ب: بعد.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿**وجوه يومئذ**﴾ أي: يوم القيامة ﴿**خاشعة**﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

﴿**عاملة ناصبة**﴾ أي: تاعبة في العذاب، تجرُّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله:] ﴿**وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة**﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباء منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها[1]؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿**تصلى ناراً حامية**﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿**تسقى من عين آنية**﴾ أي: حارةٌ شديدة الحرارة ﴿**وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه**﴾ فهذا شرابهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع**﴾ وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم القيامة ﴿**ناعمة**﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿**لسعيها**﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿**راضية**﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿**في جنة**﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿**عالية**﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿**قطوفها دانية**﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي: حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿**لا تسمع فيها**﴾ أي: الجنة ﴿**لاغية**﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [على] الآداب المستحسنة[2] بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿**فيها عين جارية**﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنَّى أرادوا.

﴿**فيها سرر مرفوعة**﴾ و «السرر» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿**وأكواب موضوعة**﴾ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿**ونمارق مصفوفة**﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويَصُفُّوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿**وزرابيُّ مبثوثة**﴾ والزرابي [هي:] البسط الحسان، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ ـ ٢٦﴾ ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت * فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم**﴾ يقول تعالى حثّاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿**وإلى الجبال كيف نصبت**﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض[3] وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿**وإلى الأرض كيف سطحت**﴾ أي: مدت مداً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق[4] على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة[5] إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

---

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحسنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر[١] الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة[٢]، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿**فذكّر إنما أنت مذكّر**﴾ أي: ذكّر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

وقوله: ﴿**إلا من تولى وكفر**﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿**فيعذبه الله العذاب الأكبر**﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿**إن إلينا إيابهم**﴾ أي: رجوع الخليقة[٣] وجمعهم في يوم القيامة.

﴿**ثم إن علينا حسابهم**﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفجر
وهي مكية

﴿**١ ـ ٥**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسمٌ لذي حجر**﴾ الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مُهِمّاً، وهو كذلك في هذا الموضع.

فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر[٤] لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رُئِيَ الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة، لما يرى من تَنَزُّلِ الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿**والليل إذا يسر**﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿**هل في ذلك**﴾ المذكور ﴿**قسم لذي حجر**﴾ أي: [لذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿**٦ ـ ١٤**﴾ ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد**﴾ يقول تعالى: ﴿**ألم تر**﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فُعِلَ بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿**إرم**﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿**ذات العماد**﴾ أي: القوة الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿**التي لم يخلق مثلها**﴾ أي: مثل عاد ﴿**في البلاد**﴾ أي: في جميع البلدان [في القوة والشدة]، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن، ﴿**وفرعون ذي الأوتاد**﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿**الذين طغوا في البلاد**﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وآذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال: ﴿**فأكثروا فيها الفساد**﴾ وهو العمل بالكفر وشُعَبِه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ لمن عصاه[٥] يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿**١٥ ـ ٢٠**﴾ ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلاً لمّاً * وتحبون المال حباً جماً**﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿**قدر عليه رزقه**﴾ أي: ضيّقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

(١) في ب: كثير.

(٢) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

(٣) في ب: الخلائق.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

(٥) في ب: لمن يعصيه.

له، فرد الله عليه هذا الحسبان: بقوله ﴿كلا﴾ أي: ليس كل من نَعَّمْتُه في الدنيا فهو كريم عليّ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لديّ، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الوبيل.

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ أي: لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المحاويج من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال: ﴿وتأكلون التراث﴾ أي: المال المخلف ﴿أكلاً لما﴾ أي: ذريعاً، لا تبقون على شيء منه.

﴿وتحبون المال حبا جما﴾ أي: كثيراً شديداً، وهذا كقوله تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾.

﴿٢١ ـ ٣٠﴾ ﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدمت لحياتي * فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد * يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾ ﴿كلا﴾ أي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بباق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم، صفاً صفا أي: صفاً بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور فـ ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وأنى له الذكرى﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها، يقول متحسراً على ما فرط في جنب الله: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً، كما قال تعالى: ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا﴾.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها[1]، وفي تتميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء، ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين، وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدق رسله، فيقال له: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله. ﴿ارجعي إلى ربك﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه ﴿راضية مرضية﴾ أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾ وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به في حال الموت[2] [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد[3] مكية

﴿١ ـ ٢٠﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد * ووالدٍ وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد * أيحسب أن لن يقدر عليه أحد * يقول أهلكت مالاً لبدا * أيحسب أن لم يره أحد * ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة * يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نارٌ مؤصدة﴾ يقسم تعالى ﴿بهذا البلد﴾

(١) في ب: السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها.

(٢) في ب: وقت السياق والموت.

(٣) في ب: سورة البلد.

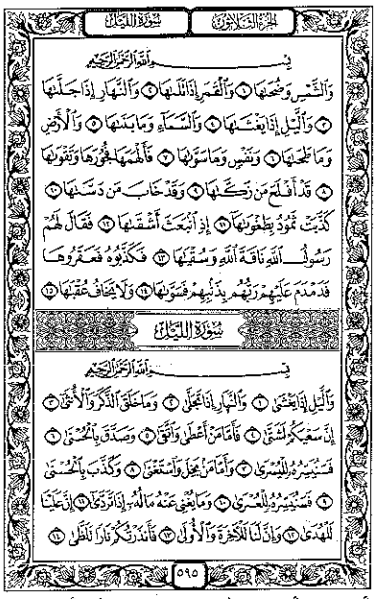

لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ
تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾
سورة الضحى
بسم الله الرحمن الرحيم
وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾
سورة الشرح
بسم الله الرحمن الرحيم
أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ
ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ
ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾
٥٩٦

الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿**ووالد وما ولد**﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿**لقد خلقنا الانسان في كبد**﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، مقدر[1] على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجبّر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿**أيحسب أن لن يقدر عليه أحد**﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، فـ ﴿**يقول أهلكت مالاً لُبدا**﴾ أي: كثيراً، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿**أيحسب أن لم يره أحد**﴾ أي: أيحسب[2] في فعله هذا، أن الله **لا** يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿**ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين**﴾ للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه[3]، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿١١﴾ ﴿**فلا اقتحم العقبة**﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته[4].

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة بقوله: ﴿**فك رقبة**﴾ أي: فكها من الرق، بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿**أو إطعام في يوم ذي مسغبة**﴾ أي: مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿**يتيماً ذا مقربة**﴾ أي: جامعاً بين كونه يتيماً، فقيراً ذا قرابة، ﴿**أو مسكيناً ذا متربة**﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ﴿**ثم كان من الذين آمنوا**﴾[5] أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم من كل قول[6] وفعل واجب أو مستحب، ﴿**وتواصوا بالصبر**﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملاً منشرحاً به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿**وتواصوا بالمرحمة**﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿**أولئك أصحاب الميمنة**﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿**والذين كفروا بآياتنا**﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحاً، ولا رحموا عباد الله، ﴿**والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة**﴾ أي: مغلقة، في عمد ممددة،

---

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أيظن.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.

قد مدت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهمّ وشدّة [والحمد الله].

تفسير سورة والشمس وضحاها وهي مكية

﴿١ ـ ١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها * كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها﴾ أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونفعها الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جلّى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام[1] لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه فباطل.

﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مدها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه[2] الانتفاع.

﴿ونفس وما سواها﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كُلٍّ، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقةٌ بالإقسام بها[3]، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه[4] آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقّاها بطاعة الله، وعلاّها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها.

﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله[5]، ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمروه فأتمر لهم.

﴿فقال لهم رسول الله﴾ صالح عليه السلام محذراً: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسَقْي لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً ﴿فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة[6] ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: تَبِعَتَها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت ولله الحمد

تفسير سورة والليل وهي مكية

﴿١ ـ ٢١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغني عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء

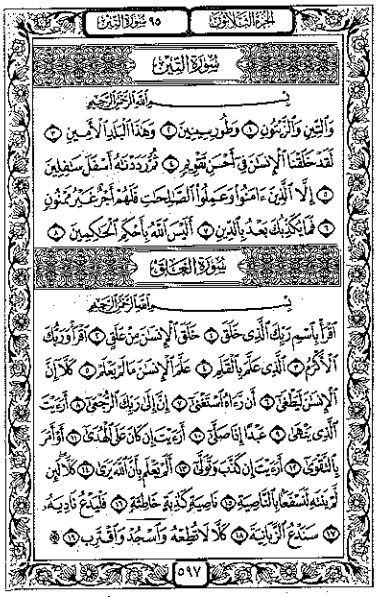

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.
(٢) في ب: أوجه.
(٣) في ب: يحق الإقسام بها.
(٤) في ب: على ما هي عليه.
(٥) في ب: على رسولهم.
(٦) في ب: في العقوبة.

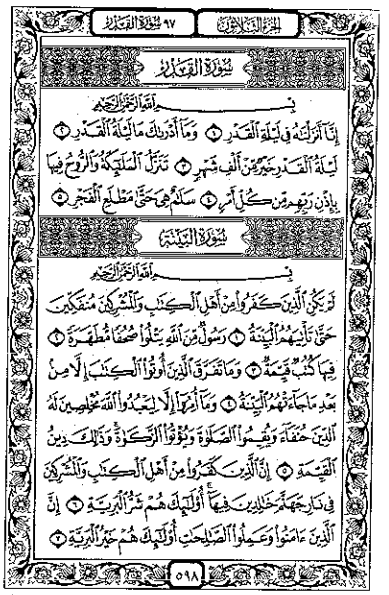

وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: **﴿والليل إذا يغشى﴾** [أي: يعم] الخلق بظلامه، فيسكن كلٌ إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، **﴿والنهار إذا تجلى﴾** للخلق، فاستضاؤوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم، **﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾** إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه[1] خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية، كان قسماً بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلاً منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: **﴿إن سعيكم لشتى﴾** هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوتٌ تفاوتاً كثيراً، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له[2] ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا فضّل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم، فقال: **﴿فأما من أعطى﴾** [أي] ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما.

والمركّبة منهما، كالحج والعمرة، [ونحوهما] **﴿واتقى﴾** ما نهى عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وصدّق بالحسنى﴾ أي: صدّق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فسنيسره لليسرى﴾ أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسراً له[3] كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، **﴿واستغنى﴾** عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، **﴿وكذّب بالحسنى﴾** أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، **﴿فسنيسره للعسرى﴾** أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وما يغني عنه ماله﴾ الذي أطغاه واستغنى به، وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح[4].

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالاً عليه، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويدني من رضاه، وأما الضلال، فطرقٌ مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ملكاً وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين، **﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾** أي: تستعر وتتوقد، **﴿لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذب﴾** بالخير **﴿وتولى﴾** عن الأمر.

﴿وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب[5]، قاصداً به وجه الله تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقةٍ ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها،

---

(١) في ب: بكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي نيسر له أمره، ونجعله مسهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأدناس.

وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي[1] عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن لله ورسوله المنة على كل أحد، منةً لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه مَن الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿**إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى**﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة والضحى وهي مكية

﴿١ ـ ١١﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خيرٌ لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث**﴾

أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجى وادلهمَّت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿**ما ودَّعك ربك**﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ ربّاك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿**وما قلا**﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج[2] الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلة، فقال: ﴿**وللآخرة خير لك من الأولى**﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي[3]، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل[4] إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله[5] [الخاصة] فقال: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى**﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفّله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمَّك ما لم تكن تعلم، ووفّقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

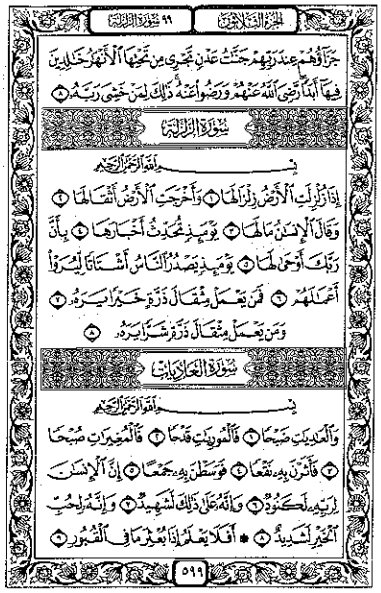
جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه
سورة الزلزلة
بسم الله الرحمن الرحيم
إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره
سورة العاديات
بسم الله الرحمن الرحيم
والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور
٥٩٩

﴿**ووجدك عائلاً**﴾ أي: فقيراً ﴿**فأغنى**﴾ بما فتح الله عليك[6] من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابلْ نعمته بالشكران.

[ولهذا قال:] ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾ أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿**وأما السائل فلا تنهر**﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام[7] يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

(١) في ب: بقيت.
(٢) في ب: درجات.
(٣) في ب: درجات.
(٤) في ب: ما وصل.
(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.
(٦) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك.
(٧) في ب: لا يصدرك منك كلام للسائل.

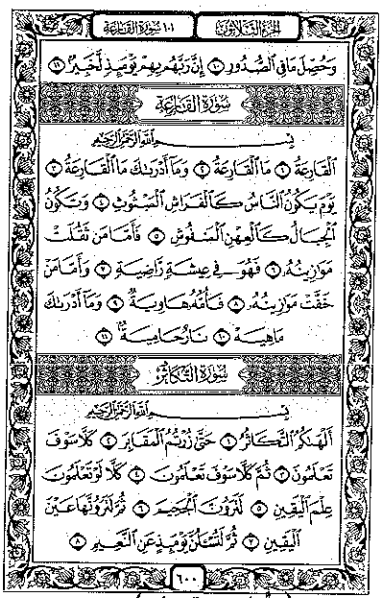

﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فحدث﴾ أي: أثنِ على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

تفسير سورة ألم نشرح [لك صدرك] وهي مكية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك * فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب﴾ يقول تعالى ـ ممتناً على رسوله ـ: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجاً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطاً.

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي: ذنبك ﴿الذي أنقض﴾ أي: أثقل ﴿ظهرك﴾ كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن أمته.

وقوله: ﴿فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا».

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر ـ وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ ـ فإنه في آخره التيسير ملازم له.

ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك[1].

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت ولله الحمد.

تفسير سورة والتين وهي مكية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعلموا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وطور سينين﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسى ﷺ، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات[2] وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور، وسفساف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من منَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فلهم﴾

(١) في ب: دعواتك.

(٢) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم.

بذلك المنازل العالية، و ﴿أجر غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع، بل لذاتٌ متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها، ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ أي: أي: شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به، ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون. تمت ولله الحمد.

تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١ ـ ١٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم * كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى * أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادىء النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة السلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع، وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿من علق﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم[1]، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر[2] بعد الأمر بالقراءة، خلقه[3] للإنسان.

ثم قال: ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم[4]. و ﴿علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم منّ عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان ـ لجهله وظلمه ـ إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسي أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرد العاتي:

﴿أرأيت﴾ أيها الناهي للعبد إذا صلى ﴿إن كان﴾ العبد المصلي ﴿على الهدى﴾ العلم بالحق والعمل به، ﴿أو أمر﴾ غيره ﴿بالتقوى﴾.

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادَّة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

﴿أرأيت إن كذب﴾ الناهي بالحق، ﴿وتولى﴾ عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: ﴿كلا لئن لم ينته﴾ عما يقول ويفعل ﴿لنسفعن بالناصية﴾ أي: لنأخذن بناصيته، أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

﴿فليدع﴾ هذا الذي حق عليه العقاب[5] ﴿ناديه﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينوه على ما نزل به، ﴿سندعوا الزبانية﴾ أي: خزنة جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه، فقال: ﴿كلا لا تطعه﴾ [أي:] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، ﴿واسجد﴾ لربك ﴿واقترب﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدْني من رضاه وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(٥) في ب: العذاب.

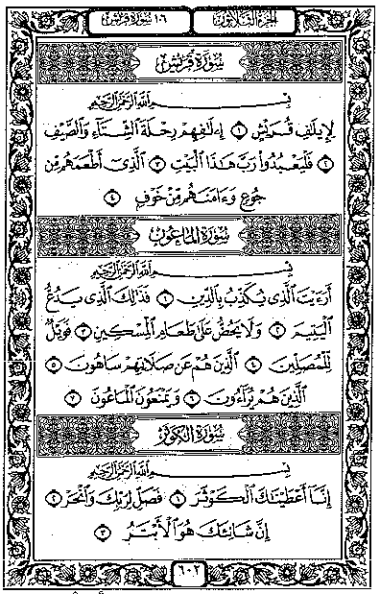

عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبث به[1] وآذاه. **تمت ولله الحمد**

تفسير سورة القدر
[وهي] مكية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾** كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وذلك أن الله [تعالى]، ابتدأ بإنزاله[2] في رمضان [في] ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمةً عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية.

ثم فخم شأنها، وعظم مقدارها، فقال: **﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾** أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم، **﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾** أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها]، وهذا مما تتحير فيه[3] الألباب، وتندهش له العقول، حيث منَّ تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي: يكثر نزولهم فيها **﴿من كل أمر * سلام هي﴾** أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، **﴿حتى مطلع الفجر﴾** أي: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر[4].

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء لليلة القدر [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن
وهي مدنية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ يقول تعالى: **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾** أي: [من] اليهود والنصارى **﴿والمشركين﴾** من سائر أصناف الأمم.

﴿منفكين﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين[5] إلا كفراً.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال: **﴿رسول من الله﴾** أي: أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: **﴿يتلو صحفاً مطهرة﴾** أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: **﴿فيها﴾** أي: في تلك الصحف **﴿كتب قيمة﴾** أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرَّقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً **﴿إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾** التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا **﴿الله مخلصين له الدين﴾** أي:

---

(١) في ب: وعذبه.

(٢) في ب: ابتدأ بإنزال القرآن.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

(٤) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

(٥) في ب: الأوقات.

قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حنفاء﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخصّ الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وذلك﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دين القيمة﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خالدين فيها﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذلك﴾ الجزاء الحسن ﴿لمن خشي ربه﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته[1].

[تمت والحمد لله]

تفسير سورة إذا زلزلت[2] وهي مدنية

﴿١ ـ ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها * يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء وعَلَم[3].

فتندك جبالها، وتُسوَّى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمتَ.

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكنوز، ﴿وقال الإنسان﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿ما لها﴾؟ أي: أيُّ شيء عرض لها؟

﴿يومئذ تحدث﴾ الأرض ﴿أخبارها﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [أي] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره[4].

﴿يومئذ يصدر الناس﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أشتاتاً﴾ أي: فرقاً متفاوتين. ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي: ليريهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويريهم جزاءه موفراً.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١ ـ ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والعاديات ضبحاً * فالموريات قدحاً * فالمغيرات صبحاً * فأثرن به نقعاً * فوسطن به جمعاً * إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصل ما في الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعاديات ضبحاً﴾ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو[5]. ﴿فالموريات﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قدحاً﴾ أي: تقدح[6] النار من صلابة حوافرهن [وقوتهن] إذا عدون، ﴿فالمغيرات﴾ على الأعداء ﴿صبحاً﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فأثرن به﴾ أي: بعدوهن وغارتهن ﴿نقعاً﴾ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾ أي: براكبهن ﴿جمعاً﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ أي: لمنوع للخير الذي

---

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

(٣) في ب: وعَلْم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا ستعصي.

(٥) في ب: عدْوها.

(٦) في ب: تنقدح.

عليه لربه[١].

فطبيعة [الإنسان] وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق، ﴿**وإنه على ذلك لشهيد**﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمرٌ بيِّنٌ واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿**وإنه**﴾ أي: الإنسان ﴿**لحب الخير**﴾ أي: المال ﴿**لشديد**﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق[٢] ربه، وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حاثاً له على خوف يوم الوعيد:

﴿**أفلا يعلم**﴾ أي: هلاَّ يعلم هذا المغتر ﴿**إذا بعثر ما في القبور**﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

﴿**وحُصِّل ما في الصدور**﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها و] ما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿**إن ربهم بهم يومئذ لخبير**﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره[٣] بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال[٤]، الناشىء عن علم الله واطلاعه.

تفسير سورة القارعة [وهي] مكية

﴿**١ ــ ١١**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش * فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نارٌ حامية**﴾ ﴿**القارعة**﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿**القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس**﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿**كالفراش المبثوث**﴾ أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون ﴿**كالعهن المنفوش**﴾ أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ثم بعد ذلك تكون هباء منثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، ﴿**فأما من ثقلت موازينه**﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿**فهو في عيشة راضية**﴾ في جنات النعيم.

﴿**وأما من خفت موازينه**﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿**فأمه هاوية**﴾ أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إن عذابها كان غراما﴾.

وقيل: إن معنى ذلك، فأم دماغه هاوية في النار أي: يلقى في النار على رأسه.

﴿**وما أدراك ماهيه**﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿**نار حامية**﴾ أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

تفسير سورة ألهاكم التكاثر وهي مكية

﴿**١ ــ ٨**﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم الهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم**﴾ يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: ﴿**ألهاكم**﴾ عن ذلك المذكور ﴿**التكاثر**﴾ ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى[٥].

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] ﴿**حتى زرتم المقابر**﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن

---

(١) في ب: لله عليه.
(٢) في ب: على رضا ربه.
(٣) في ب: خبرهم.
(٤) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.
(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

بعدما تعذر عليكم استئنافه.

ودل قوله: ﴿حتى زرتم المقابر﴾ أن البرزخ دارٌ مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الباقية[١]، لأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين.

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال[٢]، في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي، صيَّركم إلى ما ترون، ﴿لترون الجحيم﴾ أي: لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي: رؤية بصرية، كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾.

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله، فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ الآية.

تفسير سورة والعصر [وهي] مكية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خساراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده[٣]، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغّبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان[٤] نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح [العظيم].

تفسير سورة الهمزة وهي مكية

﴿١ ـ ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالاً وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة﴾ ﴿ويل﴾ أي: وعيد، ووبال، وشدة عذاب ﴿لكل همزة لمزة﴾ الذي يهمز الناس بفعله، ويلمزهم بقوله، فالهماز: الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللماز: الذي يعيبهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز اللماز، أنه لا همَّ له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك، ﴿يحسب﴾ بجهله ﴿أن ماله أخلده﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله، الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار، ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كلا لينبذن﴾ أي: ليطرحنَّ ﴿في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة﴾ تعظيم لها، وتهويل لشأنها.

ثم فسرها بقوله: ﴿نار الله الموقدة﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿التي﴾ من شدتها ﴿تطلع على الأفئدة﴾ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهذا قال: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي: مغلقة، ﴿في عمد﴾ من خلف الأبواب ﴿ممددة﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾.

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية].

تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم

(١) في ب: الآخرة.
(٢) في ب: على الأعمال.
(٣) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده.
(٤) في ب: العبد.

كعصف مأكول أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمدٍ ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قِبل للعرب به، من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة محماة من سجيل، فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة] وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته، ومقدمات[1] رسالته، فلله الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١ ــ ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا، ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: **﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾** أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة، **﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾** فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخصّ الله بالربوبية البيت[2]، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون [وهي] مكية

﴿١ ــ ٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أرأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين * فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: **﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾** أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى[3] عقاباً.

﴿ولا يحض﴾ غيره **﴿على طعام المسكين﴾** ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، **﴿فويل للمصلين﴾** أي: الملتزمون[4] لإقامة الصلاة، ولكنهم **﴿عن صلاتهم ساهون﴾** أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها[5]، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم[6]، وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ

ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: **﴿الذين هم يراؤون﴾** أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس.

﴿٧﴾ ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به[7].

فهؤلاء ــ لشدة حرصهم ــ يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الحث على إكرام[8] اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها و] في جميع الأعمال.

والحث على [فعل المعروف و] بذل الأمور الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١ ــ ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: **﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾** أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض[9].

طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم[10] السماء في

---

(١) في ب: أدلة.
(٢) في ب: الربوبية بالبيت.
(٣) في ب: يخاف.
(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.
(٥) في ب: مخلون بأركانها.
(٦) في ب: الذم والوعيد.
(٧) في ب: ببذله والسماح به.
(٨) في ب: إطعام.
(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض الذي يقال له: الكوثر.
(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿**فصلِّ لربك وانحر**﴾ خصّ هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجلّ القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

﴿**إن شانئك**﴾ أي: مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿**هو الأبتر**﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

تفسير سورة الكافرون

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين**﴾ أي: قل للكافرين معلناً ومصرحاً ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ أي: تبرأً مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً.

﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته[1]، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾ كما قال تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾.

تفسير سورة النصر وهي مدنية[2]

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾ في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين[3]، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمراً، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاهم الله[4] بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فلهذه الأمة، ولهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك.

فأمرُ الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى**

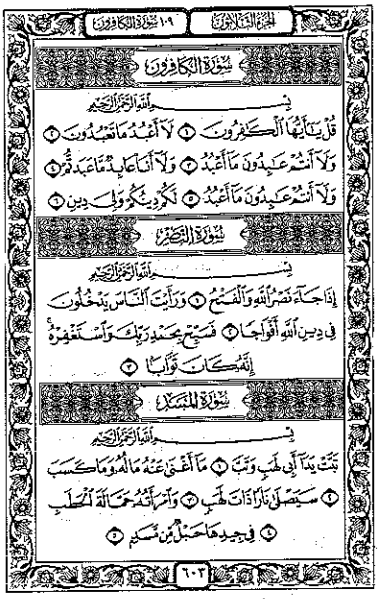

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله.

(٢) في ب: وهي مكية.

(٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين.

(٤) في ب: فابتلوا.

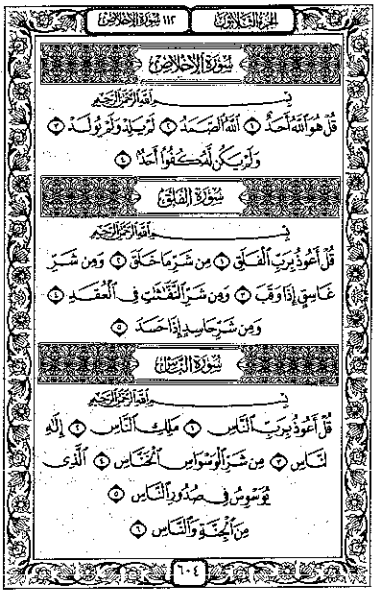

ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد﴾ أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة ـ قبّحه الله ـ فذمّه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ أي: خسرت يداه، وشقي ﴿**وتب**﴾ فلم يربح، ﴿**ما أغنى عنه ماله**﴾ الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، ﴿**سيصلى ناراً ذات لهب**﴾ أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿**وامرأته حمالة الحطب**﴾.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿**من مسد**﴾ أي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص [وهي] مكية

﴿١ ــ ٤﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد**﴾ أي: ﴿**قل**﴾ قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿**هو الله أحد**﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿**الله الصمد**﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ لكمال غناه، ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق [وهي] مكية

﴿١ ــ ٥﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد**﴾ أي: ﴿**قل**﴾ متعوذاً ﴿**أعوذ**﴾ أي: ألجأ وألوذ، وأعتصم ﴿**برب الفلق**﴾ أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح.

﴿**من شر ما خلق**﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها، ثم خص بعدما عمّ، فقال: ﴿**ومن شر غاسق إذا وقب**﴾ أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾ أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر.

﴿**ومن شر حاسد إذا حسد**﴾ والحاسد: هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر، عموماً وخصوصاً.

ودلّت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه [ومن أهله].

تفسير سورة الناس وهي مدنية[1]

﴿١ ــ ٦﴾ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس**﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادّتها، الذي من فتنته وشره، أنه

(١) عدلت بخط مغاير في ب إلى: مكية.

يوسوس في صدور الناس، فيحسن [لهم] الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه.

فينبغي له أن [يستعين و] يستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم.

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها.

وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿**من الجنة والناس**﴾.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوباً لنا حالت[1] بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته.

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه، على يد جامعه وكاتبه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ[2]

---

(١) في ب: ذنوبنا التي حالت.

(٢) في ب: ووقع النقل في شعبان ١٣٤٥ ربنا تقبل منا واعف إنّك أنت الغفورُ الرحيم.

الملاحق

١ ـ أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢ ـ تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان.

أصول وكليّات
من أصول التفسير وكليّاته لايستغني عنها المفسر للقرآن[1]

النكرةُ في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تَعمُّ، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأَثْبِتْ جميعَ ما دخل في ذلك اللفظ، ولاتعتبر سببَ النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لابخصوص السبب».

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لاتزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرفُ أن القرآن تبيانٌ لكل شيء، وأنه لايحدث حادث، ولايستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيدُ استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبدَ من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لايلحقه فيه أحدٌ من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويُقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقررالله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثلات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن مَنْ تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لاتصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيِّز وحقق وُجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمتَ ما دلَّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لاتتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعةٌ لذلك المعنى، فما لايتم الخير إلا به،

---

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ ـ رحمه الله ـ في آخر الجزء الخامس لمّا طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابعٌ للخبر، وما لايتم الحكم إلا به، فهو تابعٌ للحكم، وأنَّ الآيات التي يُفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولاتعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة اللائقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لايجوز حذفُ ما لايدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لابد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولانافع.

الموهوم لايدفع المعلوم، والمجهول لايعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكرالله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومَدَح المتقين، ورتَّب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصّل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لايضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفسادُ.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لايصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولابدنه ولالسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المنتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى‌الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع][1].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لايقبل إلا العمل الخالص.

وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجهَ الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لايحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾، ويراد بها ما أباحه‌الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق‌الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين‌الله، وهو: القيام بعبادة‌الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

---

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ ـ رحمه الله ـ

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام.

مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

القرآن، كله مُحكمٌ، وأُحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابهٌ، من جهة اتفاقه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاقه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميعُ، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللطف، والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.

ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم، ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾[1].

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.

وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حِجْر، ولُب، ونُهى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.

لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب. ويراد به «المدة»،

---

(١) لم يتم الشيخ ـ رحمه الله ـ الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنيّ حميد﴾.

ويراد به «الدين» و«الملة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُدِّيَ بـ«على» كان معناه العلو والارتفاع، ﴿**ثم استوى على العرش**﴾.

وإن عُدِّي بـ«إلى» فمعناه قصد، كقوله: ﴿**ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سموات**﴾.

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمُل»، كقوله تعالى ﴿**ولما بلغ أشده واستوى**﴾.

«التوبة» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبهالله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوانالله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصـــل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

و«**الرب**»: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«**الله**»: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

«**الملك، المالك**»: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«**الواحد، الأحد**»: وهو الذي توحَّد بجميع الكمالات، بحيث لايشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«**الصمد**»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها،وضروراتها وأحوالها ؛ لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«**العليم، الخبير**»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلايخفى عليه شيء من الأشياء.

«**الحكيم**»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾. فلايخلق شيئاً عبثاً، ولايشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لايشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

«**الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب**».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون**﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«**السميع**» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

«**البصير**» الذي يُبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويُبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«**الحميد**» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«**المجيد، الكبير، العظيم، الجليل**» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«**العفو، الغفور، الغفار**» الذي لم يزل، ولايزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿**وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى**﴾.

«**التواب**» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«**القدوس، السلام**» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحدٌ من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحدٌ في شيء من الكمال ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ ﴿**هل تعلم له سمياً**﴾ ﴿**فلاتجعلوالله أنداداً**﴾.

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

«**العلي الأعلى**» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

«**العزيز**» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

«**القوي، المتين**» هو في معنى العزيز.

«**الجبار**» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذ به ولجأ إليه.

«**المتكبر**» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«**الخالق، البارىء، المصوّر**» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسوَّاها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولايزال على هذا الوصف العظيم.

«**المؤمن**» الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

«**المهيمن**»: المطلّع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«**القدير**» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبَّرها، وبقدرته سوَّاها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«**اللطيف**» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لايشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

«**الحسيب**» هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

«**الرقيب**» المطلّع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«**الحفيظ**» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

«**المحيط**» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«**القهار**» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

«**المُقيت**» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

«**الوكيل**» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أولياءه، فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**﴾.

«**ذو الجلال والإكرام**» أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه.

«**الودود**» الذي يحبُّ أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وداً وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«**الفتاح**» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلاممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده**﴾.

«**الرزاق**» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البَرَّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«**الحكم، العدل**» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلايظلم مثقال ذرة، ولايحمِّل أحداً وزر أحد، ولايجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلايدع صاحب حقٍ إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾.

«**جامع الناس**» ليوم لاريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلايترك منها صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرَّق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

«**الحيُّ القيُّوم**» كامل الحياة والقائم بنفسه. القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فـ«الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم» الجامع لصفات الأفعال.

«**النور**» نور السموات والأرض، الذي نوَّر قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونَوَّر أفئدتهم بهدايته، وهو الذي أنار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«**بديع السموات والأرض**» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«**القابض الباسط**» يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«**المعطي، المانع**» لامانع لما أعطى، ولامعطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«**الشهيد**» أي: المطَّلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«**المبدىء، المعيد**» قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ابتدأ خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«**الفعَّال لما يريد**» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعله بلاممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولاعوين، على أيّ أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«**الغني، المغني**» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلايتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولايمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لايكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحدٍ بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«**الحليم**» الذي يَدِرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«**الشاكر، الشكور**» الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«**القريب، المجيب**» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لاتدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة[1] للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أيِّ حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

«**الكافي**» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«**الأول، والآخر، والظاهر، والباطن**».

قد فسَّرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

«**الواسع**» الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لايُحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

«**الهادي، الرشيد**» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لايعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره.

وللرشيد معنىً بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«**الحق**» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولاوجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولايزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لاشريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

---

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإثابة) والله أعلم.

﴿ ٢٣٨ـ ٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين * فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿على الصلوات﴾ عموماً، وعلى ﴿الصلاة الوسطى﴾ وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿فإن خفتم﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا، ﴿رجالاً﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أو ركباناً﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم أخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾.

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، وأن الأمر كان على الزوجة، أن تتربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحتيم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخاطرها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾، أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿ ٢٤١ـ ٢٤٢﴾ ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين * كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ لما بيّن في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾، والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بيّن تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فراراً من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضله وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجبناً عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

﴿ ٢٤٤ـ ٢٤٥﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم * من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمدهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مناً ولا أذى؛ ولا مبطلاً ومنقصاً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقائل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ وأنه عيّن لهم نبيهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً.

فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا بكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحينئذ سلموا وانقادوا.

﴿٢٤٩﴾ فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم، ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، ووفور جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقتل داود﴾ ﷺ ﴿جالوت﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود ﴿الملك والحكمة﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ثم بيّن تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ فلما بيّن هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتعبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيوش،

أن يتفقدها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيله، أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزيمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي.

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما منّ الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل؛ واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبده صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلّم الناس في المهد صبيّاً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس ـ هنا ـ جبريل، أيده الله بإعانته ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً ـ بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ـ ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكلُّ ذلك تبعٌ لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ يحثُّ الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعيض؛ فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق.

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسوق، والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيدهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿القيوم﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدها وأبقاها، وأمدها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

﴿لا تأخذه سنة﴾، أي: نعاس ﴿ولا نوم﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾، فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يشفع عنده﴾ أحدٌ ﴿إلا بإذنه﴾، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿قل لله الشفاعة جميعاً، له ملك السموات والأرض﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها ﴿وما خلفهم﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك فـ ﴿لا يؤوده﴾، أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وهو العلي﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

﴿العظيم﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجلّ المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهماً، أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظاً ومعنىً، كما هو واضح بيّن لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبها عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين:

قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت ـ وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره ـ، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً، ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿والله سميع﴾، أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿عليم﴾بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافيه، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينوّر قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذين حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ، حيث حاجّ هذا الملك الجبار، وهو نمرذ[1] البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره مُلكه وأطغاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد ﷺ.

فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتاً: ﴿أنا أحيي وأميت﴾، وعنى بذلك أني أقتل من أردت قتله، وأستبقي من أردت استبقاءه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بآجالها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾، أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿ ٢٥٩- ٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير * وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحدٌ أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾؟، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبثت مائة عام﴾، والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب - خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله، مائة عام، وقيل له: ﴿انظر إلى حمارك﴾، فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظاماً نخرة.

﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾، أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، ﴿ثم نكسوها﴾ بعد الالتئام ﴿لحماً﴾، ثم نعيد فيه الحياة.

﴿فلما تبين له﴾ رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه، ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾.

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزير أو غيره، وأن قوله: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾، يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل ينافيه، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، برجوع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فلما تبين له﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٦٠﴾وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أولم تؤمن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿بلى﴾ يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

(١) كذا في الأصل وسيأتي بعد قليل تسميته بـ (نمرود).

أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال: فخذ أربعة من الطير﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فصرهن إليك﴾ أي: ضمهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن، يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

ففعل ذلك، وفرّق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخصّ الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله.

﴿ ٢٦١ـ ٢٦٢﴾ ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه منًّا منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية.

فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفى عنهم المكروه الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قول معروف ومغفرة خيرٌ من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق مناً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عمن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطى، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشراً.

فالخير المحض ـ وإن كان مفضولاً ـ خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحمق والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عباده.

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

﴿ ٢٦٤ـ ٢٦٦﴾ ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌّ والله بما تعملون بصير * أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مناً ولا أذى، ولمن أتبعها مناً وأذى، وللمرائي.

﴿٢٦٥﴾ فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل طل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا ﴿آتت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مناً وأذى، أو عمل عملاً، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إعصار﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار فاحترقت﴾، وله ذرية ضعفاء، وهو

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أيود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة ـ وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه ـ فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يرائي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوابل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلداً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله يطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿ ٢٦٧ـ ٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض، من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين، والعروض كلها، المعدّة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها الفرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزىء عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميدٌ في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومنّ عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجلّ الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم. ﴿إلا أولو الألباب﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجلّ الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجلٌ آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس».

﴿ ٢٧٠ـ ٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار * إن تبدوا الصدقات فنعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧١﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلاً بعمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٢﴾ ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: إنما عليك ـ أيها الرسول ـ البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فبيد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتزكية للمؤمنين، ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص.

وكرر علمه ـ تعالى ـ بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٣ـ ٢٧٤﴾ ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم * الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراراً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويج حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيتقبلها الجبار بيده، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم».

﴿٢٧٥ـ ٢٨١﴾ ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويُربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم، إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فجمعوا ـ بجراءتهم ـ بين ما أحل الله، وبين ما حرّم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، كغيرها من آيات الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار.

ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار، إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين، ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيده. فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره.

فالمتجرىء على الربا، يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾.

﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾، وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد منّة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء، تائباً من المآثم والذنوب.

﴿٢٧٧﴾ ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم.

﴿٢٧٨﴾ ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويذروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصرّ عليه، محارباً لله ورسوله.

﴿٢٧٩﴾ ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾ يعني من المعاملات الربوية.

﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾ الناس بأخذ الربا ﴿ولا تُظلمون﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة، فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

﴿٢٨٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾، أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.

وإن تصدّق عليه غريمه ـ بإسقاط الدين كله أو بعضه ـ فهو خير له، ويهون على العبد، التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

﴿٢٨١﴾ ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون﴾.

﴿ ٢٨٢ـ ٢٨٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾.

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات وحلول الإجارات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون.

وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى، والأوقاف، والوكلاء، والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقتضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذممهما كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً عدلاً عند الناس رضياً، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلاً بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾.

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك ـ لصغره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته ـ أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنته في معاملة، وفوّضته فيها، فقوله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق ـ إذا أملى على الكاتب ـ أن يتقي الله، ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرته وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبينات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية ـ كالرواية والفتوى ـ فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته ـ ولو غلب على ظنه ـ لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب، ولا بالشهيد، بأن يدعيا في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهي لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضاً نهي للكاتب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب ـ إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة ـ أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، فـ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾؟

وكذلك على من أحسن وفعل معروفاً، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كما علمه الله﴾، ومع هذا: «فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب، فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: ﴿فإنه

فسوق بكم﴾ فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل براً أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً، فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معامله، فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتثالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر ـ مع أنه يجوز حضراً وسفراً ـ فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه ﴿عليم﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى، بعموم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأواب إليه ﴿إنه كان للأوابين غفوراً﴾.

ويعذب من يشاء، وهو المصرّ على المعاصي، في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿ما في أنفسكم﴾، أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿على كل شيء قدير﴾، فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿٢٨٥ ـ ٢٨٦﴾ ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾، الآية.

وأخبر في هذه الآية، أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وبجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض، وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾، هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذة في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق، والآصار، والأغلال، ما حمله على من قبلهم، ولم يحمّلهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فنسأل الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وبما منّ به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى.

وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد.

تم تفسير سورة البقرة، ولله الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ ﴿الٓمٓ﴾من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢ ـ ٣﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الحي﴾ كامل الحياة، ﴿القيوم﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿أنزل التوراة والإنجيل﴾.

﴿٤﴾ ﴿من قبل﴾ هذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرّق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والثواب العاجل والآجل.

و﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ ممن عصاه.

﴿٥﴾ ومن تمام قيوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦﴾ فهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك ـ فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿لا إله إلا هو العزيز﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم ﴿الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربّنا وما يذكّر إلاّ أولوا الألباب * ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد ـ ولن يوجد ـ له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف ـ فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة.

فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: ﴿آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إلا أولوا الألباب﴾، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على «إلا الله» حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف يتزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾، أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة﴾، تصلح بها أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾، أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه، عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمّارة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ هذا

من تتمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات.

﴿١٠ ـ ١١﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب﴾ لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم، لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ وعجّل لهم العقوبات الدنيوية، متصلة بالعقوبات الأخروية.

﴿والله شديد العقاب﴾، فإياكم أن تستهينوا بعقابه، فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين، أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزموهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان ـ بحسب الأسباب الحسية ـ الأمر بالعكس.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زُيّنت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي ـ مع هذا ـ متاع قليل، منقض في مدة يسيرة.

فهذا ﴿متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات، والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿والله بصير بالعباد﴾ فييسر كلاً منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمئنون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ أي: هؤلاء الراسخون في العلم، أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالاستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم﴾ هذه أجلّ الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، وبنعوت الجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة، كله قسط وعدل.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله﴾، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعدّه.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره.

﴿١٩﴾ ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى ﴿إن الدين عند الله﴾، أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الإسلام﴾، وهو الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطناً بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدن لله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فانحرفوا عنه عناداً وبغياً، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت، وسيجزيهم الله بما كانوا يعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلن: أنه قد أسلم وجهه، أي: ظاهره وباطنه، لله، وأن من اتبعه كذلك، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب، والأميين، أي: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشّرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ أي الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى، الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

﴿٢٢﴾ فهؤلاء قد ﴿حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾، واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿٢٣ ـ ٢٥﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودات وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾، و ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ عن اتباع الحق، فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، ومن المعلوم أن هذه أماني باطلة، شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغتروا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم ـ إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا، وجرى عدل الله في عباده، فهنالك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وما ربك بظلاّم للعبيد﴾.

﴿٢٦ـ٢٧﴾ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً ـ أن يقول عن ربه، معلناً بتفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأماني أهل الكتاب، ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿٢٧﴾ ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا، ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويخرج الحي من الميت، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحي.

كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي

يخرج المتضادات، بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر[1].

وقوله ﴿بيدك الخير﴾، أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفاً، ولا اسماً، ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: «بيدك الخير والشر»، بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق، إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿٢٨﴾ ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ التولي، ﴿فليس من الله في شيء﴾، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.

وقوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلكم ـ في هذه الحال ـ الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي تتبعه النصرة.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيهم، وإليه يرجعون ويصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاءه، على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الوبيل.

﴿٢٩ ـ ٣٠﴾ ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير * يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم ـ حينئذ، من خير وشر ـ محضرة.

فحينئذ يغتبط أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلاقي سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته، أنه خوّف العباد، وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى ـ لما ذكر العقوبات ـ: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾، فرأفته ورحمته، سهّلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتها؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ بامتثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخبر، ﴿فإن تولوا﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله ﴿لا يحب الكافرين﴾.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ إلى آخر القصة.

لله تعالى من عباده أصفياء، يصطفيهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمل الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا

(١) قدم الشيخ ـ رحمه الله ـ هذا الجزء من الآية، وقد آثرتُ إبقاءه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

من أجلّ منته وأفضل مواقع جوده وكرمه.

﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

﴿٣٤ ـ ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران، قالت ـ متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته ـ: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾، أي: خادماً لبيت العبادة، المشحون بالمتعبدين.

﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل، أي: اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مثمراً للخير والثواب، ﴿إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾.

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً.

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

﴿٣٧ ـ ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به.

إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها، ﴿وجد عندها رزقاً﴾، هنيئاً معداً.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد، على حين اليأس منه، فقال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله﴾، اسمه أي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن مريم».

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم، تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة.

فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون﴾.

وقوله: ﴿وسيداً وحصوراً﴾، أي: هذا المبشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: «والحصور»، قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين.

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

﴿٤٠﴾ ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟!﴾، فهذان مانعان، فمن أي طريق ـ يا رب ـ يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإنه ـ كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت.

﴿٤١﴾ ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت ـ يا رب ـ متيقناً ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف.

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة ﴿اذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾، أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر.

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين، ولسانه منطلق بذكر الله، وتسبيحه، آية أخرى.

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار.

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران، على زكريا، فإن ما منَّ الله به عليها، من ذلك الرزق الهني، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه، ليرفع الله قدره، ويعظم أجره.

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة والكمال، مبلغاً عظيماً، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾، أي: اختارك، ووهب لك من الصفات الجليلة، والأخلاق الجميلة.

﴿وطهّرك﴾ من الأخلاق الرذيلة، ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾، ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك، لتغتبط بنعم الله، وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾، أي: أكثري من الطاعة، والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾، أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت، وفاقت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا بتعلم من الناس ـ قال تعالى ـ: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾، حيث جاءت بها أمها،

فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابت القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها.

فأنت ـ يا أيها الرسول ـ لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نبأك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار.

﴿٤٥﴾ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو ـ عند الله ـ من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يكلم الناس في المهد﴾، فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق، ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾، أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهد، فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته، فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم، في وحيه، وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿من الصالحين﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه، وألسنتهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

﴿٤٧﴾ ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾، وهذا من الأمور المستغربة ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته.

﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب﴾، أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس، ويعطيه النبوة.

﴿٤٩﴾ ﴿و﴾ يجعله ﴿رسولاً إلى بني إسرائيل﴾، ويؤيده بالآيات البينات، والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ تدلكم أني رسول الله حقاً.

وذلك ﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه﴾، وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه، ﴿والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك﴾ المذكور ﴿لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾، فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة، والدين الذي جاء به، وأنه دين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين، لخالف ما جاءت به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضاً فقوله: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، أي: ولأخفف عنكم بعض الآصار، والأغلال.

﴿٥١﴾ ﴿فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾، وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

﴿٥٢﴾ ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر﴾ والاتفاق على رد دعوته، ﴿قال﴾: نادباً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿من أنصاري إلى الله، قال الحواريون﴾، أي: الأنصار.

﴿نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾، وهذا من منة الله عليهم، وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين، الإيمان به، والانقياد لطاعته، والنصرة لرسوله.

﴿٥٣﴾ ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول﴾، وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة، ولدينك بالحق والصدق.

﴿٥٤﴾ وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مكروا﴾ بعيسى ﴿ومكر الله﴾ بهم، ﴿والله خير الماكرين﴾، فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى.

﴿٥٥﴾ فقبضوا على من شبّه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾، فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى، وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكماً عدلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به، ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، الآية.

ولكن حكمة الله عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه، ونبذ شرعه، وتجرأ على معاصيه، إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، ﴿والله عزيز حكيم﴾.

وقوله: ﴿ثم إليّ مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

﴿٥٦ـ ٥٧﴾ فقد بيّن ما يفعله بهم، فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب

الظالمين﴾.

وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة.

ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخت رسالته، الرسالات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين ـ هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿ ٥٩ـ ٦٢﴾ ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل الدعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى ـ كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعاهم منه.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم ـ إن باهلوه ـ هلكوا، هم وأولادهم وأهلوهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يحرجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ هذا لهو القصص الحق﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾، الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسماوات.

ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها[1].

﴿٦٤﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله﴾، الآية.

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهة.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

و ﴿إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخرها.

﴿ ٦٥ـ ٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾، فكلما قوي إيمان العبد، تولاه الله بلطفه، ويسره لليسرى، وجنبه العسرى.

﴿ ٦٩ـ ٧٤﴾ ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل

(١) لم يفسر ـ رحمه الله ـ الآية الثالثة والستين، وقد قام النجار بإضافة تفسيرها من عنده.

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون * وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم ـ من حرصهم على إضلال المؤمنين ـ ينوعون المكرات الخبيثة.

فقالت طائفة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾، أي: أوله، وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم ـ إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصَّكم ـ يا هذه الأمة ـ بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، إذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزدد صاحبه ـ على طول المدى ـ إلا إيماناً ويقيناً.

ولم تزده الشبه، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث منَّ به عليه.

وقولهم: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة، الحسد والبغي، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾، الآية.

﴿٧٥ـ٧٦﴾ ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة أمناء، بحيث لو أمنته على قناطير من النقود، وهي المال الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: ﴿بلى﴾، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي، والله يحبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمقته، وسيجازيه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة، والعهود المنكوثة، فهؤلاء ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾، أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه، وحرموا ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظائم.

﴿٧٨﴾ ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب﴾، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم ـ مع هذا التحريف الشنيع ـ يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم.

﴿٧٩ـ٨٠﴾ ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر منَّ الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي ـ أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!!

هذا من الممتنع، لأن حاله وما هو عليه، وما منَّ الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أتأمرنا ـ يا محمد ـ أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبيّن الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١ـ٨٢﴾ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومنَّ به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقتضي للقيام التام، بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقوا وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿ ٨٣ـ ٨٥﴾ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسل، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟، أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم ـ في الآخرة ـ من الخاسرين.

﴿ ٨٦ـ ٩١﴾ ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين * أولئك جزآؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم * إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكصين ناكثين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه، والباطل فآثره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم، فإن الله يغفر لهم ما قدموه، ويعفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزدد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، لم ينفعهم شيئاً، فعياذاً بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ يعني: لن تنالوا وتدركوا البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن آثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليم.

وسيجزي كل منفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿ ٩٣ـ ٩٤﴾ ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام ـ قبل نزول التوراة ـ كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة جرمها إسرائيل، وهو: يعقوب عليه السلام ـ على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلا قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم ـ إن أنكروا ذلك ـ: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق، فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان، تبين كذبه وافتراؤه، وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً، وقد بيَّن في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله، وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك، ببراهين وحجج، تتصدع لها الجبال، وتخضع لها الرجال.

فتعين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ ٩٦- ٩٧﴾ ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن[1] الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودِيناً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ ٩٨- ٩٩﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾ لما أقام فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - وبّخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصدهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿ ١٠٠- ١٠١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - ولله الحمد - أنتم - يا معشر المؤمنين - بعدما منَّ الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجلّ غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ومن يعتصم بالله﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿فقد هُدي إلى صراط مستقيم﴾، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ ١٠٢- ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكَّرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتميم هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿يدعون إلى الخير﴾ وهو الدين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

﴿ويأمرون بالمعروف﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبينات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

---

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيىء، وبغي من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

﴿ ١٠٦ـ ١٠٧﴾ ثم بيَّن متى يكون هذا العذاب العظيم، ويمسهم هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾.

يخبر تعالى، بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون، فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟!

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

﴿ ١٠٨ـ ١٠٩﴾ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين * ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ يثني تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعده لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان، فقال: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة يبين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿ ١١٠ـ ١١١﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحاً، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب، لو آمنوا بمثل ما آمنتم به، لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير، فهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم، لولوا الأدبار، ثم لا ينصرون.

وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين، ولوا الأدبار، ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤو بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانو يعتدون﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿بحبل من الناس﴾، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، [كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتمهيدهم لهم كل سبب][1].

﴿وباؤوا بغضب من الله﴾، أي: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغي وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجناياتهم الفظيعة.

﴿ ١١٣ـ ١١٥﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيَّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف﴾، وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

و﴿يسارعون في الخيرات﴾ والمسارعة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه، من خير قليل أو كثير، فإن الله تعالى سيقبله، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فلن يكفروه﴾، يعني: لن ينكر ما عملوه، ولن يهدر.

﴿والله عليم بالمتقين﴾، وهم الذين قاموا بالخيرات، وتركوا المحرمات،

---

(١) قد يشكل ـ على القارىء ـ هذا الموضع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألّف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجمل الموضوعة بين القوسين المركنين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لقصد رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿ ١١٦ـ ١١٧﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ بيّن تعالى: أن الكفار، الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ، ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم، التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره، لا تفيدهم شيئاً، وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا، لنصر باطلهم، ستضمحل.

وأن مثلها ﴿كمثل﴾ حرث أصابته ﴿ريح﴾ شديدة ﴿فيها صر﴾، أي: برد شديد، أو نار محرقة، فأهلكت ذلك الحرث، وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾.

﴿ ١١٨ـ ١١٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسسكم حسنة تسؤكم وإ ن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما تعملون محيط﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار، واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالاً، أي: هم حريصون غير مقصرين، في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وفلتات ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم، من البغضاء والعداوة، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهومٌ وعقول، فقد وضح الله لكم أمرهم.

وأيضاً، فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجلّ الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم، وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم، عضوا عليكم الأنامل، من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم﴾، أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون.

﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾، فلذلك بيّن لعباده المؤمنين، ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿إن تمسسكم حسنة﴾ عز ونصر وعافية وخير ﴿تسؤهم، وإن تصبكم سيئة﴾ من إدالة العدو، أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يفرحوا بها﴾، وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لمّا بين تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة، أمر عباده المؤمنين بالصبر، ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك، فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم، التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى، أنهم لا يضرونكم شيئاً، فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿ ١٢١ـ ١٢٣﴾ ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾، إلى آخر القصة. وذلك يوم «أحد» حين خرج ﷺ بالمسلمين، حين وصل المشركون ـ بجمعهم ـ إلى قريب من «أحد». فنزّلهم ﷺ منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيماً عجيباً، يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات.

﴿والله سميع عليم﴾، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة، لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه، كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم، في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد، يكون توكله، والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه، ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره، ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربهم، وليخفف هذا هذا، فقال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ في عددكم وعددكم، فكانوا ثلاثمائة، وبضعة عشر، في قلة ظهر، ورثاثة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف، في كمال العدة والسلاح.

﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿إذ تقول﴾ مبشراً ﴿للمؤمنين﴾ مثبتاً لجنانهم: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا﴾، أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة، مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها، فيها طمأنينة للقلوب، وثبات على الخير.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾، أي: نصر الله لعباده المؤمنين، لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف

من الكفار، أو ينقلبوا بغيظهم، لم ينالوا خيراً، كما أرجعهم يوم الخندق، بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين، أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

﴿١٢٨﴾ ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت رباعيته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم، شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مدبَّرون لا مدبِّرون.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووفقهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا.

وإن شاء عذبهم، فإنهم ظالمون، مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿والله غفور رحيم﴾ فمن صفته اللازمة، كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

تم الجزء المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ويليه المجلد الثاني أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا.

فهرس أسماء السور

تفسير سورة الفاتحة ٣٩
تفسير سورة البقرة ٤٠
تفسير سورة آل عمران ١٢١
تفسير سورة النساء ١٦٣
تفسير سورة المائدة ٢١٨
تفسير سورة الأنعام ٢٥٠
تفسير سورة الأعراف ٢٨٣
تفسير سورة الأنفال ٣١٥
تفسير سورة براءة (التوبة) ٣٢٨
تفسير سورة يونس ٣٥٧
تفسير سورة هود ٣٧٦
تفسير سورة يوسف ٣٩٣
تفسير سورة الرعد ٤١٢
تفسير سورة إبراهيم ٤٢١
تفسير سورة الحجر ٤٢٩
تفسير سورة النحل ٤٣٥
تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء) ٤٥٣
تفسير سورة الكهف ٤٦٩
تفسير سورة مريم ٤٨٩
تفسير سورة طـٰه ٥٠١
تفسير سورة الأنبياء ٥١٨
تفسير سورة الحج ٥٣٢
تفسير سورة المؤمنون ٥٤٧
تفسير سورة النور ٥٦١
تفسير سورة الفرقان ٥٧٧
تفسير سورة الشعراء ٥٨٩
تفسير سورة النمل ٦٠٠
تفسير سورة القصص ٦١١
تفسير سورة العنكبوت ٦٢٦
تفسير سورة الروم ٦٣٦
تفسير سورة لقمان ٦٤٦
تفسير سورة السجدة ٦٥٣
تفسير سورة الأحزاب ٦٥٧
تفسير سورة سبأ ٦٧٤
تفسير سورة فاطر ٦٨٤
تفسير سورة يٰس ٦٩٢
تفسير سورة الصافات ٧٠٠
تفسير سورة صٓ ٧٠٩
تفسير سورة الزمر ٧١٧
تفسير سورة المؤمن (غافر) ٧٣١
تفسير سورة فصلت ٧٤٤
تفسير سورة الشورى ٧٥٢
تفسير سورة الزخرف ٧٦٢
تفسير سورة الدخان ٧٧١
تفسير سورة الجاثية ٧٧٥
تفسير سورة الأحقاف ٧٧٩
تفسير سورة القتال (محمد ﷺ) ٧٨٤
تفسير سورة الفتح ٧٩١
تفسير سورة الحجرات ٧٩٩
تفسير سورة قٓ ٨٠٣
تفسير سورة الذاريات ٨٠٨
تفسير سورة الطور ٨١٣
تفسير سورة النجم ٨١٨
تفسير سورة اقتربت (الانشقاق) ٨٢٣
تفسير سورة الرحمن ٨٢٨
تفسير سورة الواقعة ٨٣٢
تفسير سورة الحديد ٨٣٧
تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة) ٨٤٣
تفسير سورة الحشر ٨٤٨
تفسير سورة الممتحنة ٨٥٤
تفسير سورة الصف ٨٥٨
تفسير سورة الجمعة ٨٦٢
تفسير سورة المنافقون ٨٦٤
تفسير سورة التغابن ٨٦٦
تفسير سورة الطلاق ٨٦٩
تفسير سورة التحريم ٨٧٢
تفسير سورة الملك (تبارك) ٨٧٥
تفسير سورة نٓ (القلم) ٨٧٨
تفسير سورة الحاقة ٨٨٢
تفسير سورة سأل سائل (المعارج) ٨٨٥

تفسير سورة نوح ٨٨٨
تفسير سورة قل أوحي إلي (الجن) ٨٩٠
تفسير سورة المزمل ٨٩٢
تفسير سورة المدثر ٨٩٥
تفسير سورة القيامة ٨٩٨
تفسير سورة الإنسان (الدهر) ٩٠٠
تفسير سورة المرسلات ٩٠٣
تفسير سورة عمّ (النبأ) ٩٠٦
تفسير سورة عبس ٩٠٨
تفسير سورة التكوير ٩١٠
تفسير سورة الانفطار ٩١٢
تفسير سورة المطففين ٩١٤
تفسير سورة الانشقاق ٩١٥
تفسير سورة البروج ٩١٨
تفسير سورة الطارق ٩١٩
تفسير سورة سبح (الأعلى) ٩٢٠
تفسير سورة الغاشية ٩٢١
تفسير سورة الفجر ٩٢٣
تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد) ٩٢٤
تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس) ٩٢٦
تفسير سورة الليل ٩٢٦
تفسير سورة الضحى ٩٢٨
تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح) ٩٢٩
تفسير سورة التين ٩٢٩
تفسير سورة اقرأ (العلق) ٩٣٠
تفسير سورة القدر ٩٣١
تفسير سورة لم يكن (البينة) ٩٣١
تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة) ٩٣٢
تفسير سورة العاديات ٩٣٢
تفسير سورة القارعة ٩٣٣
تفسير سورة الهاكم التكاثر (التكاثر) ٩٣٣
تفسير سورة العصر ٩٣٤
تفسير سورة الهمزة ٩٣٤
تفسير سورة الفيل ٩٣٤
تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش) ٩٣٥
تفسير سورة الماعون ٩٣٥
تفسير سورة الكوثر ٩٣٥
تفسير سورة الكافرون ٩٣٦
تفسير سورة النصر ٩٣٦
تفسير سورة تبت (اللهب) ٩٣٦
تفسير سورة الإخلاص ٩٣٧
تفسير سورة الفلق ٩٣٧
تفسير سورة الناس ٩٣٧